

# أمل

التاريخ . الثقافة . المجتمع

العدد 25-26 ○ السنة التاسعة ○ 2002

تصدر ثلاث مرات في السنة

ملف الصحافة  
ص 85 ردمد 113  
الإيداع القانوني

92 - 48

dafali maarouf@  
hotamil.com

العنوان : ص ب 14910  
البريد المركزي البيضاء  
الهاتف :  
(02)50-61-46  
الفاكس : 50-61-46

المدير، رئيس التحرير:  
محمد معروف الدفالي

○ ○ ○

هيئة التحرير

محمد الفلاح العلوي  
المختار عنقا الإدريسي  
بوشعيب اهلال  
عبد العزيز باقية  
نوال متزكي  
محمد المؤيد

- التوزيع : سابريس
- الأفكار الواردة في المواضيع تعبر عن آراء أصحابها
- المقالات المرسلة إلى المجلة لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر

**تم طبع هذا العدد بدعم  
من وزارة الثقافة والاتصال**

## المحتوى

5	مراحل مقاومة الشعب المغربي للاستعمار	عبد الله العياشي
17	الشيخ مربيه ربه العالم المجاهد	ماء العينين النعمة علي
39	الفكر السلفي والحركة الوطنية في المغرب	محمد الفلاح الطوي
52	تأصيل الهوية الثقافية الوطنية	بدر المقرئ
62	المقاومة في الشعر المغربي الحديث	ابراهيم السولامي
70	الشعر المغربي والمقاومة ابلان الحماية	العربي الحمداوي
79	المقاومة في الشعر الملحون	عبد الله شقرون
99	المقاومة الوطنية من خلال الأعمال الأدبية	محمد أزهرى
121	صورة الذات	شعيب حليفي
130	تاريخ الحركة الوطنية في القصة القصيرة	احمد زيادي
137	نماذج من أغاني الجهاد الأمازيغية	الملكى المالكي
155	المقاومة وانعكاسها على المسرح المغربي	المهدي الودغيري
175	احمد الحنصالي	عبد الرحيم العمري
188	مظاهرات 25 يوليوز 1955 بمكناس	بوشنة بوعصرية
204	المغاربة والدعاية الأجنبية	عبد الحميد احساين
221	أسئلة الكتابة عن تاريخ الحركة الوطنية	عبد اللطيف حسني
230	المقاومة والاستقلال بالمغرب	عثمان أشقرا
239	البحث عن المخاطب السياسي	محمد العربي المساري
249	حكومة البكاي الأولى	محمد معروف الدفالي

## تقديم

نقترح على قراء أمل في هذا العدد موضوعا سبق أن أنجزناه في إطار ندوة علمية منذ حوالي سبع سنوات خلت ، في موضوع " **المقاومة والاستقلال خلال القرن العشرين : الرموز والدلالات** " .

فبتاريخ 24-25 نونبر من سنة 1995 نظمت المجلة بتعاون مع مجلس عمالة بنمسك سيدي عثمان ، بالمركب الثقافي مولاي رشيد بالدار البيضاء هذه الندوة ، بمساهمة مجموعة هامة من الباحثين المتخصصين ، الذين رصدوا الموضوع من جوانب متعددة ، يسرنا أن يطلع القراء عليها.

ورغم أن الموضوع سيصل القراء متأخرا مقارنة مع التاريخ الذي عقدت فيه الندوة فإننا ما زلنا معتقدين في راهنيته ، وأهمية ما طرح فيه من إشكالات ، واجتهادات من طرف المساهمين ، وإذ نعتذر على هذا التأخير الخارج عن إرادتنا في إيصال هذا الموضوع إلى القراء الأعزاء ، نعتذر لهم كذلك عن التأخير الذي وقع في صدور هذا العدد من المجلة ، ونطلب مزيدا من التفهم الذي يضع في الاعتبار عددا من العراقيل والمعوقات التي تفاجئ مثل هذا العمل بين الفينة والأخرى.

## المقاومة والهوية

- مراحل مقاومة الشعب المغربي للاستعمار
- الشيخ مربيه ربه العالم المجاهد
- الفكر السلفي والحركة الوطنية
- تأصيل الهوية الثقافية في مدينة وجدة

## مراحل مقاومة الشعب المغربي للإستعمار

عبد الله العياشي\*

في رأيي ، أن حركة المقاومة التي انطلقت في بداية القرن العشرين ضد المستعمرين الفرنسيين والإسبان والتي توجت في نهاية مطافها بإعلان الاستقلال وضم منطقة الشمال بمنطقة الجنوب واسترجاع صحرائنا الغربية، إن هذه المقاومة لم تنطلق من عدم - فلم تكن في الواقع، سوى حلقة من حلقات مسلسل طويل انطلق منذ قرون عديدة استطاع شعبنا أثناءها أن يكس تقاليد سقت روح نضاليتها - وذلك في خضم الدفاع عن الأرض عن الكرامة عن الحرية عن العقيدة ضد حملات الإستعمار التي كانت تستهدف استعباده كشعب واستعمار بلاده كوطن وكرحم تكوين أمته فإثناء هذه الممارسة الجهادية العريقة في المجد والقدم تكون عند شعبنا ، رويدا رويدا ، ما يمكن أن نسميه بالحس الوطني قبل أن يصير هذا الحس فيما بعد وفي خضم النضال، ما نعرفه اليوم بالوعي الوطني .فمن انتفاضة القبائل أولا بكيفية منفردة ، ثم في تحالف بين قبيلة مع أخرى أو مع جماعة قبائل إلى إبراز مفاهيم سياسية عصرية على الصعيد الوطني وتنصيب الهياكل التنظيمية المناسبة لها. وهكذا ومنذ قرب نهاية المقاومة المسلحة الأولى، صارت الأمور

---

\* أستاذ باحث من الدار البيضاء،عضو قيادة حزب التقدم والاشتراكية

تتطور من حركة اللطيف في بداية الثلاثينات من هذا القرن وتكوين أول تنظيم سياسي " كتلة العمل الوطني" وصياغة أول برنامج مطلبى في مرحلتين ، "مطالب الشعب" ثم "المطالب المستعجلة" وبرز أحزاب متعددة ونقابات عمالية. ففي سياق هذا التسلسل المتطور على الدوام ، نشأت ونمت حركتنا الوطنية بمفهومها العصري. وبسرعة وقع الانتقال من مرحلة المطالبة بالإصلاحات في نطاق نظم الحماية إلى مرحلة الإلحاح على الاعتراف بالاستقلال كشرط مسبق لكل تغيير ليصل المطاف إلى العودة إلى الكفاح المسلح الذي انتهى بإعلان الاستقلال وفتح آفاق استرجاع الوحدة الترابية.

هذه المسيرة الطويلة والمليئة بالبطولات المجيدة التي سلكتها مقاومتنا مدة قرون دفاعا عن الوطن ضد كل غازي أجنبي ، لا بد لنا أن نجعلها نصب أعيننا كلما تطرقنا بالدرس والتحليل إلى تاريخ مقاومتنا.

أجل ففي خضم هذه المسيرة تألف كياننا القومي وترسخ في وجداننا تعلقنا به إلى درجة الاستشهاد للدفاع عنه والحفاظ عليه.

وفي هذا الصدد ، يتجلى أنه ليس من باب العبث ولا لمجرد فضول فكري التحدث عن تحديد تاريخ البداية ، بداية هذه المقاومة – في ذلك ، أولا إنصاف للحقيقة التاريخية ، وهذا لا أحد يمكن أن يجادل فيه – ولكن ما هو أعظم وأعمق هو أن لنا في معرفة هذه البداية ، بالتنقيح العلمي الموضوعي ، مجالا للتأمل والاستلهام – فمن أصالة تاريخ نضالنا ومن طابعه العريق تستطيع الأجيال المتلاحقة أن تستمد القوة المتجددة والإيمان الوطني المترسخ ، لأن تتواصل المسيرة الجهادية للدفاع عن ما هو أعز شيء عند الشعوب وعند شعبنا بالذات : الوطن المقدس – إن شعبنا واعيا ومدركا أن أجداده وآبائه وأمهاته ناضلوا منذ القدم وطيلة قرون للحفاظ على وطنهم من كل أذى وانتفضوا باستمرار ضد كل معتدي ومحتل ، إن مثل هذا الشعب لم يقهر ولا يغلب – وحتى إذا قهر وغلب سرعان ما ينهض ليتحرر ويعتق نفسه بنفسه . هذه سمة يتسم بها شعبنا وهي حقيقة

تاريخية تتحلى بها أمتنا — وهذا ما يجب أن نعرفه ونلقنه لأبنائنا وبناتنا حتى تستمر تقاليدنا النضالية المجيدة على أصالتها ونتمكن من تغذيتها على الدوام —.

في هذا الصدد تختلف الآراء والمواقف عند المهتمين بدراسة تاريخ حركتنا الوطنية. فمنهم من يرجع هذه البداية إلى معركة وادي إسلي سنة 1844 ، ربما لأن جيش الدولة العلوية الذي كان قد أتى لنجدة المجاهدين الجزائريين ضد الاحتلال الفرنسي ، كان قد منى في هذه المعركة بأفزع هزيمة كان قد عرفها في تاريخه. وقد كانت لتلك الكارثة العسكرية لجيش مولاي عبد الرحمان وكان قائده ابنه سيدي محمد ، عواقب سياسية ومالية وخيمة أدخلت المغرب في مرحلة المسلسل الذي انتهى بضياح سيانته واستقلاله وتفكيك وحدة ترابه.

ورأي ثاني يربط بداية الحركة الوطنية بالحرب الغادرة التي شنتها إسبانيا على مدينة تطوان واحتلالها سنة 1860 وما ترتب عن هذه الحرب وهذا الاحتلال من غرامات مالية خارقة وشروط سياسية مخجلة مست بكيفية جد خطيرة وحدة ترابنا الوطني على وجه الخصوص.

ولكن الرأي الأكثر انتشارا عند بعض من يهتم بتاريخ الحركة الوطنية هو القائل بأن البداية كانت مع حركة اللطيف التي انطلقت في مستهل الثلاثينات للاحتجاج على ما يسمى ب "الظهير البربري" المؤرخ في 16 ماي 1930 أصحاب هذا الرأي، ومنهم وطنيون تاريخيون مرموقون ، يقولون به لأنهم يحصرون مفهوم الحركة الوطنية في شكلها السياسي وفيما رافق ذلك من وسائل التعبير وأشكال النضال والهياكل التنظيمية ، أي المنشير والصحف والكتابة على الجدران والمظاهرات في المساجد أولا ، ثم في الشوارع، وتأسيس أحزاب ونقابات عمالية تماما ، كما هو الأمر في المجتمعات الأوروبية وباقي الأقطار المتطورة.

الحقيقة في رأبي ، أن المقاومة في بلادنا التي كتب لها ، في ظروف تاريخية معينة، أن تصبح حركة وطنية مهيكلة على نمط عصري بدأت مع بداية قدوم المستعمر لاحتلال المغرب.



في هذا الصدد ، واقعتان تاريخيتان أثرتا بكيفية عميقة على مصير بلادنا وجعلتا سكانها يدركون ، أكثر من الماضي ، مدى خطر الاحتلال الأجنبي. الواقعة الأولى تجسدت في العدوان الغادر الذي اقتتته إسبانيا على مدينة تطوان عام 1399 أي 93 سنة قبل سقوط غرناطة. ولقد سجل التاريخ أن مدينة تطوان خربت إثر هذا العدوان ، على أتمها، ونجح مجموع سكانها تقريبا وشرذم الأحياء منهم خارج مدينتهم التي صارت خربة خالية. وكانت علة عدوانهم أنهم أرادوا "تأديب القراصنة" المغاربة على أفعالهم في البحر الأبيض المتوسط. على أن ما كان البحارة المغاربة يقومون به كان يدخل في مجال حماية شواطئنا من غزوهم بالذات.

والحدث الثاني تمثل في احتلال البرتغاليين لمدينتنا سبتة سنة 1415 فاتحين بذلك الطريق لتعزيز وجودهم الاستعماري ووجود حلفائهم الإسبان على شواطئنا. ولقد تحقق ذلك فعلا وبكيفية متوازية مع تكثيف الإسبان لعمليات احتلالهم لمواقع عديدة من وطننا . وتطورت الأمور إلى أن تبين بأن هذه الحملات الاحتلالية لم تكن محدودة ولا عابرة. فسرعان ما تجلى أنها كانت تدخل في نطاق مخطط محكم يستهدف استعمار وطننا بأجمعه بل والقضاء على عقيدتنا الإسلامية الحنيفة.

ولما توغل الاحتلال البرتغالي والإسباني في بلادنا ، عقد الاستعماران تحت إشراف البابا الفاجر أليساندرو السادس ، حلفا ليقاسما شواطئنا فيما بينهما. فكان شاطئ المحيط الأطلسي من حظ البرتغال وشاطئ البحر الأبيض المتوسط من سعد الإسبان . إلا أنه ، ومنذ البداية اصطدم هذا الغزو بمقاومة القبائل ولاسيما منها المجاورة لأماكن الاحتلال. ومما يدل على شراسة هذه المقاومة كون البرتغاليين كانوا محبوسين داخل قلاع محصنة ومغلقة عليهم.

وكان منفذهم الوحيد وسبيلهم الأوحده هو البحر لاستيراد حتى تموينهم الغذائي بما فيه الماء الصالح للشرب من البرتغال. ولا تزال شاهدة على ذلك بقايا القلاع وخزانات الماء المحفورة داخلها كما يمكن مشاهدة ذلك في مدينة الجديدة

وأزمور. ولقد تطورت مقاومة هذا الاحتلال إلى أن وصل المطاف إلى حوب وادي المخازن سنة 1578م . ونذكر بأن هذه المعركة قادها، من الجانب المغربي ، عبد المالك السعدي الذي نصب نفسه ملكا مكان وضد ابن أخيه الملك الخائن المتوكل المتحالف مع العدو البرتغالي . وتعتبر هذه المعركة التي أنزلت الضربة القاضية على الاحتلال البرتغالي في المغرب ، صفحة مجيدة من أمجد صفحات تاريخ مقاومتنا، حيث كان قد التف حول زعيمها عبد المالك القبائل والعلماء وأعيان البلاد. يتبين لنا إذن ، أن الحركة الوطنية المعاصرة والتي انطلقت منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، هي امتداد ومواصلة للتقاليد النضالية التي رسخها شعبنا، وأساسا قبائل باديتنا ، الأمازيغية والعربية ، عبر قرون من التصدي لكل مستعمر حاول غزو بلادنا واستعباد شعبنا. ولقد كانت إحدى السمات لهذه المقاومة المسلحة، الشمولية ، بحيث عمت جميع مناطق المغرب، شمالا وجنوبا شرقا وغربا.

والجدير بالذكر كذلك أن مسلسل هذه المقاومة انطلق من حيث قدر له أن ينتهي أي من صحرائنا التي حررناها ولا تزال نعمل جادين لإضفاء التركيبة الدولية على استرجاعها.

نعم ، فمنذ أواخر القرن التاسع عشر وبعد أن تمكنت من السيطرة بالنار والحديد، أولا على الجزائر ثم على تونس ، شرعت فرنسا في مساعيها للاستيلاء على المغرب. فمن صحرائنا الشرقية والجنوبية دشنت فرنسا ، بتحالف مع إسبانيا إنجاز مخططها الماكر الرامي إلى استعمار وطننا وتجزئ ترابه وتوزيع أطراف الولاية بينهما . ولقد تصدى بإيمان راسخ وبطولة نادرة الصحراويون لهذا المخطط الاستعماري الفرنسي - الإسباني بالتنسيق مع السلطة المركزية المغربية وهكذا ، لقد سجل التاريخ أن المجاهد ماء العينين، وهو أبرز وجه لهذه المقاومة جاء إلى مدينة فاس العاصمة حينذاك ليجدد بيعة سكان الصحراء للسلطان عبد

العزیز ویتسلم منه السلاح والذخيرة والزاد ثم يعود إلى إقليم الصحراء لیتابع على رأس قبائلها المتكثلة مقاومة الغزاة الاستعماريين الفرنسيين والإسبان.

وبعد وفاة المجاهد ماء العينين خلفه ابنه أحمد الهيبة الذي واصل المقاومة بالصحراء بل وساهم في الجهاد مع إخوانه بشمالها، ولاسيما في أحواز مدينة مراكش. واستمر يقاوم الجيش الفرنسي في المنطقة إلى أن وافاه الأجل في سنة 1919 بعد أن سلم مشغل الجهاد إلى أخيه الذي واصل المعركة إلى حدود 1934.

ومثل هذه المعارك الملحمية شملت، كما سبقنا أن قلنا، جميع مناطق باديتنا. فبالإضافة إلى الصحراء، كما ذكرنا، كانت نار المقاومة ملتهبة على الحدود المغربية الجزائرية لصد تسربات الجيش الفرنسي، وعلى شاطئ المحيط الأطلسي ولاسيما بعد قصف مدينة الدار البيضاء سنة 1907 ونفس المقاومة كانت تجري في جبال الأطلس الكبير والمتوسط والصغير. ولا تزال ذاكرة شعبنا تحتفظ بملاحم مجيدة وقادة أبطال مثل موحى أوحمو الزباني ونكري ملحمة الريف بقيادة البطال المغوار محمد بن عبد الكريم الخطابي... الخ.

هذه الأمجاد لم تنبت من لاشيء مثل الفطر بل لها جنور مغروسة في التربة التي أخصبتها، أمجاد مماثلة سبقتها وتراكت عبر قرون من النضال والمقاومة والاستشهاد. وهي ذاتها التي ورثتها وواصلت تقاليدنا مرحلة الحركة الوطنية العصرية السياسية، ثم المسلحة التي توجت المسيرة الطويلة بإنجاز الاستقلال واسترجاع جل أجزاء ترابنا الوطني.

أجل، إن المقاومة المسلحة الأولى التي لم تتوقف رسميا إلا سنة 1934 لم تحقق هدفها أي الحفاظ على الاستقلال، وهذا شيء طبيعي، تاريخيا وذلك لأسباب عديدة. إن العهد كان عهد زحف وامتداد الإمبريالية والكولونيالية، والمغرب كلن يفتقر إلى حكم مركزي قوي، بل كان هذا الحكم يعيش أزمة حادة كانت تنذر بقرب نهايته وأفله.

كانت المقاومة المسلحة ، حقا ، تشمل المغرب بأجمعه ، وكانت لها قيادات مقتدرة وبطلة. ولكنها كانت مقاومة فلاحين غير منسجمين طبقيًا. كانوا يناضلون لوحدهم في غياب قيادة مركزية توحدهم وتتسق فيما بينهم في نطاق استراتيجيات مدروسة ومحكمة. كان من المستحيل ، تاريخيا التغلب على هذه العوائق.

وهذا لا يعني أن سكان المدن كانوا في غيبة كاملة عن المقاومة التي كان يقوم بها في وجه الدخيل الأجنبي سكان البوادي . كان المجتمع الحضري يتركب أساسا من أصحاب الحرف و"الطلبة" والفقهاء والمتقنين والتجار ... كان هؤلاء يعبرون عن استيائهم أمام عمليات الغزو التي كانت بلادهم عرضة لها، وينشدون بهذه العمليات. لكن الإمكانيات التي كانوا يتوفرون عليها لم تكن في مستوى غيرتهم الوطنية . ومع ذلك ، إن ما كانوا يقومون به من نشاط فكري وإيديولوجي للدعوة الوطنية ساعد ، بالتأكيد ، على تهيئ المدن على خلافة البادية لها لم تبق هذه الأخيرة قادرة حينذاك ، على مواصلة مقاومتها المسلحة ، ولما توفرت الظروف الملائمة لذلك.

وهكذا بالضبط جرت الأمور. ففي مستهل الثلاثينات كانت المقاومة المسلحة تقترب من توقفها قسرا ، والجيش الفرنسي كانت منتشرة في أغلب المناطق المغربية. فظن المستعمر، في غرور وعجرفة ، أن المجال قد أصبح معبدا أمامه لأن يبسط سيطرته المطلقة على المغرب بكامله . ولاسيما والمدن كانت تظهر له "هادئة" "إن" عاجزة وغير خطيرة..."

نعم ، لقد استطاع أن يغصب استقلالنا ويمزق ترابنا الوطني ويهزم مقاومتنا فلم يبق أمامه سوى شعبنا الذي توحدته عقيدته الإسلامية وبيعته لسلطان البلاد والشعور بأنه ينتمي لوطن واحد : المغرب - فوعى المستعمر أن شعبا توثق وحدته مثل هذه الرموز يبقى دائما مؤهلا للنضال من أجل تحرره ، طال الزمن أو قصر . وبما أن شعبنا هو من هذا النوع، ولقد أعطى للعدو برهان ذلك ، فيجب تكسيره وتفريقه عملا بالمقولة الشهيرة "فرق تسود".

فانطلاقاً من خاصيات وعادات وتقاليد تجعل إقليم يتميز عن آخر ، كما هو الأمر في جميع المجتمعات بما فيها المنعوتة بـ "الراقية" ومنها فرنسا نفسها ، ظهر للإدارة الفرنسية أن هذا كافي لجعل من الشعب المغربي الواحد ، شعبين اثنين . الأول الشعب العربي خاضع للشريعة الإسلامية ولسلطانه . والشعب البربري الذي يجب أن يبعد عنه الشريعة والقضاء وممثلي المخزن وتترك له "الحرية" في ممارسة تقاليد وأعرافه ويكون المراقب الفرنسي المدني والعسكري هو القائم مقام القاضي . فمن أجل كل هذا ، استتبط ما سمي فيما بعد ، "الظهير البربري" بتاريخ 16 ماي 1930 إلا أن ما حدث ، إثر ذلك ، لم يكن في حساب العدو ولا في مخططات مفكره . فبمجرد إعلان الظهير المشؤوم ، استيقظ الشعب ونهض كرجل واحد، لينطلق في حملة احتجاجية عارمة بشعار واحد بسيط في صياغته عميق في أبعاده: " اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير لا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر!" .

وبالطبع ، واجهت السلطات الفرنسية هذه الاحتجاجات ، التي انطلقت أولاً ، من المساجد قبل أن تكتسح الأزقة والشوارع ، واجهتها بالاضطهاد الهمجي فكانت الاعتقالات الجماعية والتعذيب والأحكام بالسجن وبالنفى....

لكن ، هذا القمع لم يزد حركة "اللطيف" إلا قوة وانتشاراً. ففي حين كان المستعمر يتوخى من ظهير 16 ماي تحكيم سيطرته على أمتنا ، فشعبنا رأى فيه على عكس ذلك ، الظرف المناسب ليجعل منه بداية نهاية نظام الحماية ذاته.

فعلاً ، فمن حركة اللطيف، انطلق مسلسل تصاعدي ، تجلّى في تسابق بين النضال وبين القمع. فكلما تصاعد مكر المستعمر إلا وتولد من ذلك تصعيد النضال ضد هذا المكر. فيجابه المستعمر هذا النضال بتشديد قمعه مما يزيد بدوره في ارتفاع مستوى الكفاح لمجابهة وقهر الاضطهاد ، وهكذا دواليك.

وكان من نتائج هذا الصراع ، بين القمع والنضال وبين النضال والقمع أن ازدادت سرعة المسيرة التحررية إلى أن حقق شعبنا استقلاله واسترجع وحدته الترابية.

نعم ، ففي سياق مظاهرات اللطيف والمجاببات التي ترتبت عنها مع العدو خرج إلى الوجود أول تنظيم سياسي للحركة الوطنية تمثل في تكوين " كتلة العمل الوطني" ثم سرعان ما تبنت هذه الأخيرة أول برنامج في مرحلتين ، أولا "مطالب الشعب" في سنة 1934 ثم "المطالب المستعجلة" عام 1936 . وبعد انشطار كتلة العمل الوطني تكون أول حزب سياسي " الحزب الوطني " بزعامة علل الفاسي وتأسست بجانبه، "الحركة القومية" برئاسة محمد حسن الوزاني.

أما الاتجاه والبرامج لكلا الحزبين فاستمرت محصورة على المطالب الإصلاحية في نطاق نظام الحماية.

بقي الأمر على هذا المنهج إلى أن وصل المطاف إلى بداية سنة 1944 وكانت الأفق تنبئ بقرب نهاية الحرب العالمية الثانية بانتصار الحلفاء على المحور النازي - الفاشستي. كما كانت تبشر ببزوغ عهد جديد ، عهد تحرر الشعوب المستعمرة ومنها بالطبع شعبنا.

في هذه الظروف بالذات، تجرأ الحزب الوطني الذي كان قد تحول بالمناسبة إلى حزب الاستقلال بتقديم وثيقة 11 يناير 1944 للمطالبة ، لأول مرة في تاريخ حركتنا الوطنية العصرية بالاستقلال. وهذا كان يعني القطيعة مع مرحلة المطالبة بالإصلاحات ، للدخول في عهد العمل الجدي والعنيد لتحقيق الاستقلال، كشرط مسبق لأي تغيير.

حدث هذا التحول الجذري الذي زاد في تطور مسار الحركة الوطنية تحت تأثير وعي جديد صار يتحلى به شعبنا بحكم تجربة نضال دام إحدى عشرة عاما . ووقع هذا التطور كذلك تحت وقع نتائج الحرب العالمية الثانية التي ساهم فيها شعبنا على غرار الشعوب المستعمرة الأخرى ، بكثافة ونجاعة.

والحركة الوطنية المغربية عرفت كيف تستثمر هذه المساهمة لفائدة قضية وطننا وقد وجدت ، في هذا المضمار ، تجاوبا كاملا وفي منتهى الحماس عند شعبنا. واستمرت الأمور ، نضال ، اضطهاد ثم نضال واضطهاد ، إلى أن وصل المطاف إلى حواث دجنبر 1952 . وكان الجديد في هذه الحواث ، بالإضافة إلى ارتفاع وعي شعبنا واشتداد روح نضاليته بكيفية يصعب تصورها اليوم، أنها سجلت تحولا تاريخيا جديدا في مسار الحركة الوطنية. ولقد تبلور هذا التحول في انتقال محور هذه الأخيرة من المدن التقليدية إلى المراكز العمالية ولاسيما إلى عاصمة البروليتارية : الدار البيضاء. فكانت مناسبة أظهرت دخول الطبقة العاملة بكل ثقلها وكطبقة اجتماعية طلائعية في معركة الاستقلال. فتوضح ، منذ البداية ، أن هذا التحول سيكون له التأثير الديناميكي الفعال على طابع الحركة الوطنية، وفيما بعد على المقاومة المسلحة ، مما سيضمن الفوز في تحقيق شعارها المركزي أي الاستقلال.

في هذا الصدد ، تفرض الموضوعية والنزاهة التاريخية، التذكير بالدور الذي قام به الحزب الشيوعي المغربي في تنظيم الطبقة العاملة في نقابات مستقلة " الاتحاد العام للنقابات الكنفدرالية بالمغرب" متحديا في ذلك القانون الذي كان يحرم على المغربي الحق النقابي.

شرع الحزب الشيوعي المغربي في هذا العمل منذ نشأته يوم 14 نونبر 1943 وزاد في تقوية هذا النشاط منذ أن تمغرب وصار حزبا عماليا وطنيا مغربيا بعد أن تبني بيانه المطالب بالاستقلال في شهر غشت 1946.

ولقد اعتنى بتنظيم العمال المغاربة في أول نقابات عمالية عرفها مجتمعنا وداخلها تمرنوا على التنظيم المستقل وعلى النضال الطبقي والوطني المنظم والفاعل . ولقد ساعد كل هذا على تحضير طبقتنا العمالية على أن تقوم بالدور البطولي في حواث دجنبر 1952 وأن تقوم، منذ ذلك الحين، بالدور الطلائعي للحركة الوطنية وللمقاومة المسلحة التي تولدت عنها.

واتسمت هذه المرحلة الجديدة بتفانٍ الاضطهاد وبارتفاع مستوى النضال إلى درجة جعلت العدو يفقد رشده ورباطة جأشه . ففي هذا الظرف الجد محرج بالنسبة إليه ارتكب مؤامراته الدنيئة على العرش المغربي . فخلع ملك البلاد الشرعي محمد الخامس مع عائلته، ثم أطلق عنان إرهابه ضد الحركة الوطنية وجماهير الشعب بالمدن أساسا ، ولكن كذلك بالبادية . لكن ، لم تكن نتيجة هذا الإرهاب سوى تجنير النضال وذلك ما تجلى في العودة إلى المقاومة المسلحة في المدن أولا وخصوصا في الدار البيضاء ثم في جبال الشمال وفي الصحراء .

وبسرعة ، وصل الصراع إلى أسوأ قمته . فتغيرت الأوضاع رأسا على عقب وجاء الانتصار المبين بعودة محمد الخامس إلى بلاده وإلى عرشه، وإعلان الاستقلال . وفورا توحد الشمال بالجنوب ورفع النظام الدولي على طنجة الخ . فلقد جاءت كل هذه الانتصارات في أعقاب مقاومة قبلنا طيلة قرون عديدة كما كانت تتويجا للمقاومة المسلحة المعاصرة التي انطلقت أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . والتي لم تتوقف قهرا إلا في عام 1934 ، هذه المقاومة ذاتها التي تواصلت بالنضال السياسي الذي انطلق في بداية الثلاثينات وتوج بالنضال المسلح الفدائي .

هذا ، في رأيي ، هو أصل ومحطات الحركة الوطنية المغربية ، التي تواصل تقاليدنا اليوم الكتلة الديمقراطية التي نتمنى لها كل التوفيق في الحفاظ على وحدتها وفي إنجاز مهامها .



## الشيخ مربيه ربه العالم المجاهد

ماء العينين النعمة علي  
بومزكو احمد \*

تقديم :

يتناول هذا البحث موضوع الجهاد وهو ممارسة فكرية عملية كانت منبعها لمجموعة من الحركات التعبوية التي عرفها المغرب منذ القرن السادس عشر (1). وقد طرح هذا المفهوم بحدّة خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مع تزايد الضغوط الأجنبية الأوربية . وللإشارة فإن مصطلح الجهاد لم يعد فقط محاربة ومقاومة الأجنبي المتكالب على البلاد بل أصبح يحمل شحنة فكرية تنظيرية حماسية بالأساس . ومن أجل الكشف عن حيثيات هذا المفهوم في مجال جغرافي محدد حصرنا موضوع هذا البحث في جهاد الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين

\* - أستاذان باحثان من تيزنيت

(1879-1942) (2) ، الذي أولى اهتماما خاصا لهذا الموضوع ضمن إنتاجه الفكري والأدبي. ويبدو أن هذا الاهتمام أملتة الصبغة الحادة التي كان يطرحها موضوع الجهاد في تلك الظرفية التي تمر بها المقاومة المسلحة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي وكذا ما وفره له جهاده من خبرة وحنكة وتجربة.

### السياق التاريخي لجهاد الشيخ مربيه ربه (1912-1931) :

أدى تزايد التهافت الاستعماري على منطقة سوس إلى اشتداد الحمية الجهادية لدى القبائل السوسية وفي هذا الإطار تمثل حركة الشيخ أحمد الهيبة بن الشيخ ماء العينين (1876-1919) مناسبة للتعبئة العامة بمنطقة الجنوب المغربي (3) ومن باب حرصه ، على إشراك جميع القبائل في تأسيس جيش للمجاهدين لیتجه به نحو مراكز فقد أسهم في توثيق روابط التضامن بين هذه القبائل باسم الجهاد ضد الاحتلال الأجنبي وفوق الاعتبارات القبلية الضيقة (4).

وبالرغم من التراجع الواضح الذي أبدته القبائل السوسية في مواجهة الضغط الفرنسي الغير مباشر خاصة بعد نكسة "سيدي بو عثمان" 1912 (5) التي كانت ضربة قاسية لقدرات القبائل الحربية فإنها ظلت على تأييدها للشيخ أحمد الهيبة ولا زالت تعيش على صدى تحركات أنصاره (6).

وفي سياق هذه الحمية الجهادية يمثل الشيخ مربيه ربه أحد الوجوه البارزة في حركة أخيه الشيخ أحمد الهيبة فقد كان خليفته ونائبه المفوض له في أمره وعضده الأيمن المرافق له في تنقلاته وتحركاته والمحرك الرئيسي لمختلف عملياته ومعاركه العسكرية الحربية لما كان يتصف به من شجاعة وجرأة وإقدام .

وقد استطاع في خضم هذه الظروف أن يجمع بعض القبائل التي لازالت تساند الشيخ أحمد الهيبة " آيت باعمران إيداو بعقيل ماسة " لإخضاع مدينة " تزنييت " التي كانت تآزرها وتساندها قبائل " أكلو الأخصاص، السيجل " وهكذا تمت محاصرة البلدة لمدة شهرين (7) كما قطعت المؤونة عن قائدها محمد بن دحان

من طرف القائدين يرعى السباعي والناجم الخصاصي (8) إلا أن مسلسل هذا الحصار انتهى بتراجع أنصاره في وقعة " تيغانيمين " .

بعد وفاة الشيخ أحمد الهيبة سنة 1919م قام مقامه الشيخ مربيه ربه في تعبئة القبائل بعد إجماع علماء وقواد سوس على تعيينه رئيسا للمجاهدين (9) ونظرا لشدة الضغط الفرنسي على المقاومين من خلال حملة الجنرال " دولاموط " على " ويجان وإسك " سنة 1917م (10) ثم محاولات الطيب الكنتافي إختراق مسالك الأطلس الصغير إنطلاقا من " آيت واد ريم " (11) فقد أسرعت القبائل السهلية إلى استعطاف الأجانب والاستسلام لحامياتها العسكرية ، بينما لازالت المناطق الجبلية تتحكم فيها القبائل الموالية للشيخ مربيه ربه، ولم تكن سلطات الاحتلال تبحث عن خضوع اسمي لهذه المناطق وإنما كانت ترغب في الاستحواذ الفعلي عليها ، وهذا ما دفعها إلى استعمال مختلف الوسائل لتحقيق مسعاها، بما في ذلك تكثيف العمليات الحربية وإنشاء مراكز عسكرية للمراقبة وتجميع المعلومات " بونعمان ، ميرغت، ويجان آقا ، إيغرم " (12). وأمام هذه الأحداث ظل الشيخ مربيه ربه يقاوم ويجاهد ويشرف بنفسه على العمليات العسكرية وكثف من تنقلاته بين قبائل الأطلس الصغير التي دعمتها قبائل آيت خباش وآيت حمر بالرجال والعتاد إلا أن رد فعل القبائل المجاهدة عامة لم يكن موحدًا وكان يفتقد إلى التنسيق والتنظيم (13).

وبعد اشتداد الحملات العسكرية الفرنسية التي قادها الجنرال "كاترو Katroux" حاكم المنطقة الجنوبية (14) استسلمت جميع القبائل السوسية سنة 1934م واضطر الشيخ مربيه ربه إلى مغادرة " كرويس " (15) متجها نحو طرفاية بالصحراء المغربية ليستقر بها . وهذا الاستقرار لا يعني نهاية حركته الجهادية ، بل واصل جهاده ومقاومته ولكن في شكل جديد يتماشى مع التغيرات التي شهدتها البلاد بعد نهاية العمل المسلح وظهور العمل السياسي. وقد كان على اتصال دائم بالخليفة السلطاني مولاي الحسن بلمهدي الذي التقى به في مدينة تطوان خلال زيارته لها وهو في طريقه لأداء فريضة الحج ، وبمختلف زعماء الحركة الوطنية في الشمال

"عبدالخالق الطريس ، عبد السلام بنونة، علال الفاسي، المكي الناصري، معنينو  
السلوي أحمد ، عبد السلام بن المقدم الحاج التسماني".

توفي رحمه الله سنة "1361هـ - / 1942م" ودفن بقريه " تافودارت " التي تقع  
شرق مدينة العيون.

### إنتاجه الفكري والأدبي :

كان الشيخ مربيه ربه جهبذة من جهبذة الفكر والعلم والأدب فهو شاعر  
وكاتب وناثر وعالم ومصنف في علوم شتى. خلف أعمالا أدبية تصل إلى مائة  
وعشرين كتابا في الفقه والتصوف والطب والرحلات والنحو والبلاغة والتوحيد  
والأسرار والتاريخ ، ضاع بعضها ولا يزال البعض منها مخطوطا في بعض  
الخزانات (16) نذكر منها :

في التصوف :

- إغائة اللفان . - تيجان المحامد وزينة كل حامد. - جامع الحمد. - حمد
- الأيام السبعة. - خواص الأوفاق لنيل مقام الأخلاق . - خواص أسماء الله
- الحسنى. - دعوة الفاتحة في الحمد بالفاتحة. - دعوة الإجابة من معطي الإجابة.
- ربيع الأسرار في سر الأسرار. - عدة الفئين في أسرار وفق المئين .
- فيض المجيد ودوام المزيد . - قره العينين في كرامات شيخنا الشيخ ماء
- العينين. - كتاب الحمد . - المتربع في أسرار المربع. - الأدعية القدسية
- بأسماء الله الإدرسية . - الفيضان فيما اختص به رمضان. - القربان فيما
- اختص به شعبان. - الفرائض المجتمعة في الأوراد بالجمعة. - مفيض الإعانة.
- منيل فضل الله ونعمته في الحمد لكل اسم على حذته. - محامد الوارد الصابر.
- مغناطيس النعم. - محمد اللسان والفكر فيما يتعلق بالحمد والشكر. - واهب
- الزيادة الأسنى في أسماء الله الحسنى. - حمد ليس فيه حرف إلا من حروف
- الحمد. - واهب المعالي.

**في الفقه :**

— أخلاق النساء. — إظهار المكنون في كشف الظنون. — الترغيب في بعض ما أعده الله للمجاهدين في سبيل الله. — تسلية المؤمنين في عدم قبول المنافقين والكافرين. — خطبه في الحث على الجهاد. — دعامة المتيمم أكل متيمم. — دافعة الباطل الذابة عن تحريف أوصاف الذابة. — الرضاب في بعض ما يتعلق بالخضاب. — صولة الكار وملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار. — صادق الفجر في الكلام على ركعتي الفجر. — فصوص الحكم. — فكاهاة الصباح والمساء في نعوت أوصاف النساء. — فريضة الجهاد في هذا الزمن على العباد. — لبانة المجاهدين وبغية الطالبين. — الفرائض القرآنية في التركة الإسلامية. — منطقة العزائم. — محمدى السكينة في الاعتدال والطمأنينة. — موافق ذي الحجة فيما يفعل في الحجة. — نشر فلاح الدارين في الكلام على بر الوالدين.

**في التاريخ :**

— جولات في سوس أعادنا الله من كل بؤس. — الترجمان العام. — العسل المصفى في عدد من استشهد زمن المصطفى. — وجه الحق الصحيح في أن إسماعيل هو الذبيح.

**في الطب :**

— ترياق الأبدان في تدبير الأسنان. — كتاب السل. — نفع الوبري والمدري في الكلام على الجدري.

**في الفلك :**

— الكلام على انقضااض النجوم.

**في الرحلات :**

— رحلة الشيخ ماء العينين. — رحلة الشيخ مربيه ربه.

**في الأحزاب والشرح والدعوات :**

— حزب السير والسلامة في الدين والدنيا والقيامة.

— حزب يتوسل فيه بما في القرآن من لفظة رب. — حزب سعادة الدارين والكفاية من الهمين. — حزب العافية والكمال محمود الحال والمال. — حزب إلهام المؤمن من فضل السلام المؤمن. — حزب الغنى وكهف العناية الأسنى في أسماء الله الحسنى. — حزب النصر والحمد والشكر. — حزب السعادتين. — حزب ليس فيه حرف إلا من حروف "وإن يردك بخير فلا راد لفضله". — حزب ليس فيه حرف إلا من حروف الحمد لله حمدا يوافي نعمه و يكافىء مزيده. — حزب اعملوا آل داود شكرا. — الدعوات النثرية والأحزاب الشكرية. — دعوة ولئن شكرتم لأزيدنكم. — شرح آية وأما بنعمة ربك فحدث.

وله ديوان شعري في مختلف الأغراض الشعرية من مدح وغزل ووصف ورثاء وتضرعات إلهية ومحامد ربانية إلى غير ذلك وقد جمعه وبوبه الشاعر والأديب ماء العينين بن العتيق في مؤلف سماه "بحور البدائع المحتوية على درر الأشعار المصطفوية" ويتضمن مقامة وثمانية أبواب :

- المقامة : في مدح الشعر وما قيل فيه .
- الباب الأول : في المحامد والثناء على الله.
- الباب الثاني : في أمداحه النبوية.
- الباب الثالث : في مدحه لوأده الشيخ ماء العينين.
- الباب الرابع : في محاوراته لإخوته.
- الباب الخامس : في مخاطبته لمعاصريه.
- الباب السادس : في الغزل والنسيب.
- الباب السابع : في أقواله المختلفة في القواعد والحكم وغيرها.
- الباب الثامن : في التضرع إلى الله.
- الخاتمة : في قصائد الذين مدحوه من الشعراء.

ويلاحظ أن الاهتمام الذي أبداه هذا الشيخ لعملية الجهاد كمعطى فاعل في تلك الظرفية ، جعلت أفكاره في هذا السياق متميزة وتعتبر مدخلا لفهم الإطار

النظري العام الذي يوطر حركته الجهادية وللإقتراب أكثر من هذا المعطى سنقدم صورة مختصرة عن بعض كتاباته حول الجهاد، وذلك بالشكل الذي يسمح لنا الإمام بأبعاد الكتابة في موضوع الجهاد كنوع من المجاهدة والمقاومة بالفكر والقلم وهذه الكتب هي :

- 1 - " لبانة المجاهدين وبغية الطالبين " .
- 2 - " الترغيب في بعض ما أعده الله للمجاهدين في سبيل الله " .
- 3 - " صولة الكار وملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار " .

### وصف الكتب :

- 1 - " لبانة المجاهدين وبغية الطالبين "

— يقع الكتاب في ثلاثين ورقة من الحجم المتوسط ، خط مغربي واضح مقروء بخزانة الأستاذ المحترم ماء العينين علي مربيه ربه. تاريخ الكتابة ضحوة الثلاثاء الحادي عشر من رجب الفرد عام واحد وأربعين بعد ثلاثمائة وألف (1341هـ — 1922م). ويشتمل على مقدمة وأربعة فصول :

\* المقدمة : يبين فيها أسباب تأليف الكتاب وتسميته فيقول : " يقول عبيد ربه محمد مصطفى مربيه ربه أناله الله بشكره ما يحب بن شيخه الشيخ محمد فاضل بن مامين غفر الله لهم وللمسلمين : الحمد لله الذي فضل الجهاد وجعله حرفة أفضل العباد فدل على أنه أفضل الأعمال حيث اختاره الله لخيرته من الرجال عليه الصلاة والسلام وعلى آله وأصحابه الكرام.

أما بعد : فمن أجل ما يتنافس فيه المتنافسون الجهاد في سبيل الله ولمثل هذا فليعمل العاملون ولقد عن لي غفر الله لي قولي وعملي أن أجمع فيه نصوصا عموما وخصوصا واقتصرتها فيها على بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وحذفت إسنادها ترغيبا لمن أرادها كي تسهل مناولتها وتيسر مدلولتها وسميتها "لبانة المجاهدين وبغية الطالبين" تنكرة لي وترغيبا للمؤمنين " ونكر فإن النكرى تنفع المؤمنين" (18) جعلها الله بفضلها العميم خالصة لوجه الكريم(19)..

• الفصل الأول : يتحدث فيه عن الجهاد الذي يعتبره " في هذا الزمن فرض عين وحق على كل مسلم أن يجعله نصب العين ولو كانت عينيته لا تحتاج إلى تبیین لفجاء العدو وجميع بلاد المسلمين " (20) حتى أنه " يتعين على كل واحد وإن لم يكن من أهل الجهاد " (21) وعلى الإمام أن يقوم بتعيين " طائفة تخرج للقتال ولا يسعها أن تخالف سواء كانت ممن تلي العدو أم كانت ممن تخاطب بفرض الجهاد " (22).

• الفصل الثاني : يتحدث فيه عن الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام التي تعتبر هي بدورها " فريضة إلى يوم القيامة " (23) ويستدل على ذلك بآيات قرآنية وأحاديث نبوية كقوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاعَتْ مَصِيرًا** " (24) ويشير إلى أن ظالمي أنفسهم في هذه الآية : " هم التاركون للهجرة مع القدرة عليها " (25) وكقول الرسول "ص" لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها " (26)، ويبين في ختام هذا الفصل بأن " الخوف على المال والأهل لا يبيح ترك الهجرة ومن رضي بالمقام مع الكافرين فهو مارق من الدين منخرط في سلك الملحدين ومن هاجر عنهم وحصل له ندم لضيق معاش أو عدم انتعاش فلا رخصة له في الرجوع ولا عذر (...) فلم يبق إلا اغتنام جهادهم والهجرة من بلادهم نصره لدين الله ورسوله وامتنالا لأمره " (27).

• الفصل الثالث : يستعرض فيه بعض الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تحث على الجهاد وترغب فيه.

• الفصل الرابع : خصصه لشرح ثلاثة آيات قرآنية هي :  
 — الأولى : قوله تعالى : **" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنَّ اسْتَحْبَبُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ "** (28) فالله تبارك وتعالى وكما يقول ابن عباس يريد في هذه الآية " مشركا مثلهم لأنه رضي بشركهم والرضى بالكفر كفر كما أن الرضى بالفسق فسق " (29).



— الثانية : قوله تعالى : " قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال إقترفتوها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي أمره والله لا يهدي القوم الفاسقين " (30). فإله تبارك وتعالى يبين في هذه الآية " أنه يجب تحمل جميع هذه المضار الدنيوية ليبقى الدين سليماً " (31). أما إذا " كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عنكم أولى من طاعة رسوله ومن المجاهدة في سبيل الله فتربصوا بما تحبون حتى يأتي الله بأمره أي بعقوبة عاجلة أو آجلة والمقصود منه الوعيد " (32) ثم قال : " والله لا يهدي القوم الفاسقين " أي الخارجين عن طاعته إلى معصيته وهذا أيضاً تهديد " (33) وعموماً فالآية " تدل على أنه إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين وبين جميع مهمات الدنيا وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا " (34) لذلك يجب " الإعراض عن مخالطة الأبناء والأبناء والإخوان والعشائر وعن الأموال والتجارات والمساكن رعاية لمصالح الدين ولما علم الله تعالى أن هذا يشق جداً على النفوس والقلوب نكر ما يدل على أن من ترك الدنيا لأجل الدين فإنه يوصله إلى مطلوبه من الدنيا — وذلك يدل على أن الإنسان متى اعتمد على الدنيا فاته الدين والدنيا ومتى أطاع الله ورجح الدين على الدنيا أتاه الله الدين والدنيا على أحسن الوجوه " (35).

— الثالثة : قوله تعالى " لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون " (36) فهذه الآية تبين " أن المؤمنين المتصلين في الدين لا يوالون هؤلاء الأقرباء بعد أن كانوا محادين لله ورسوله فكيف بغيرهم فإن قضية الإيمان أن يهجر الجميع بالكلية بل أن يقتلهم ويقصدتهم بالسوء " (37) ويستشهد على ذلك بأسماء بعض الصحابة رضوان الله عليهم الذين قتلوا آباءهم أو أقرباءهم نصرته لدين الله. فقد " روي أن أبا عبيدة

قتل أباه الجراح يوم بدر وأن أبا قحافة قبل أن يسلم سب النبي عليه السلام فصكه أبو بكر رضي الله عنه صكة سقط منها وأنه أيضا رضي الله عنه دعا ابنه عبد الرحمان إلى البراز يوم بدر فأمره عليه السلام أن يقعد قال : يا رسول الله : دعني أكن في الرعدة الأولى وهي القطعة من الفرسان فقال عليه السلام : متعنا بنفسك يا أبا بكر. وأن مصعبا رضي الله عنه قتل أخاه عبيد بن عمير بأحد وأن عمر رضي الله قتل خاله العاصي بن هشام بن المغيرة يوم بدر وأن عليا وحمزة وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم قتلوا يوم بدر عتبة وشيبة ابن أبي ربيعة والوليد بن عتبة وكانوا من عشيرتهم وقرابتهم " (38).

(2) – "الترغيب في بعض ما أعده الله للمجاهدين في سبيل الله

– يقع الكتاب في سبعين ورقة من الحجم المتوسط . خط مغربي واضح مقروء بخزانة الأستاذ المحترم ماء العينين علي مريه ربه ، تاريخ الكتاب صحوة الأربعاء المكمل عشرين من ذي الحجة عام اثنين وأربعين بعد ثلاثمائة وألف (1342هـ/1923م). يشتمل على مقدمة وثلاثة فصول :

\* المقدمة : يبين فيها أسباب تأليف الكتاب وتسميته فيقول : يقول عبيد ربه محمد مصطفى بن شيخه الشيخ ماء العينين بن شيخه محمد فاضل بن مامين غفر الله لهم وللمسلمين آمين : الحمد لله القائل : " وفضل الله المجاهدين على القاعدین " (39) والصلاة والسلام على من قال : " السيوف أودية المجاهدين " (40) وقال : نضر الله امرء أسمع منا شيئا فبلغه كما سمعه قرب مبلغ أوعى من سامع " (41) نسأل الله تعالى أن يكسوننا من تلك النضارة أحسنها وأبهجها وأسرها في الأفراد والمجامع أما بعد : فهذه أحاديث جمعتها تسر الناظر والسامع رتبها على حروف المعجم (...). لخصتها بجد واجتهاد ترغيبا في الهجرة والجهاد ولأجل ذلك وأخذ تلك المسالك سميتها " الترغيب في بعض ما أعده الله للمجاهدين في سبيل الله " جعلنا الله من أعلامه ومن بالله وبما عنده أولاهم " (42).

• الفصل الأول : خصصه لشرح الآية القرآنية الكريمة التالية وهي : " وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِيُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ " (43) التي تدل على أن " الاستعداد للجهاد بالنبل والسلاح وتعليم الفروسية والرمي فريضة إلا أنه من فروض الكفايات ( ... ) أما في زماننا هذا الذي هو عام اثنين وأربعين من القرن الرابع عشر فلاشك أنه فرض عين بسبب احتلال النصارى الصليبيين قائلهم الله بلاد المسلمين " (44) فنذكر أولاً أسباب نزولها وتتجلى في أن " أصحاب النبي "ص" في قصة بدر لما قصدوا الكفار بلا آلة ولا عدة أمرهم الله أو لا يعيدوا لمثله وأن يعدوا للكفار ما يمكنهم من آلة وعدة وقوة " (45) ثم بدأ في شرح مقاطعها ، فبين أن المراد بالقوة هو " ما يكون سبباً لحصولها ونكروا فيه وجوها :

الأول : المراد بالقوة السلاح .

الثاني : روي أنه " صلى الله عليه وسلم " قرأ هذه الآية على المنبر وقال إلا إن القوة الرمي قالها ثلاثاً .

الثالث : قال بعضهم القوة هي الحصون .

الرابع : قال أصحاب المعاني الأولى أن يقال هذا عام في كل ما يتقوى به على حرب العدو وكل ما هو آية للغزو والجهاد فهو من جملة القوة (46) .

ثم ينتقل للحديث عن العدة والعتاد من خلال قوله تعالى " وأعدوا لهم " أي لقتال الكفار ، وهيئوا لحربهم ما استطعتموه من قوة ( ... ) ومن كل ما يتقوى به في الحرب كائناً ما كان من خيل وسلاح وقسي وغيرها " (47) . وعن فضيلة الرمي ويعتبره من أحسن " ما يتقوى به في الحرب " (48) ويستدل على ذلك بأحاديث نبوية كقول الرسول "ص" من شاب شيبة في الإسلام كانت له نورا يوم القيامة ومن رمى بسهم في سبيل الله فبلغ العدو أو لم يبلغ كان له كعتق رقبة مومنة . كانت له فداء من النار عضوا بعضو " (49) . بعد ذلك يتحدث عن الخيل من خلال قوله تعالى

"رباط الخيل ويعتبرها من " أقوى آلات الجهاد " (50) ويبين الاختلافات الموجودة حول هذا المقطع فالبعض يرى أن "رباط الخيل الإناث وفسر الإناث لأنها أولى ما يربط " (51) والبعض الآخر يرى أن هذا اللفظ يدل " على الفحول لأن المقصود من رباط الخيل المحاربة عليها ولاشك أن الفحول أقوى على الكر والفر والعدو" (52) ولكي ينتفي هذا التعارض يشير إلى انه يجب " حمل اللفظ على مفهومه الأصلي وهو كونه خيلا مربوطا سواء كان من الفحول أو الإناث " (53).

ويقول أن الله تبارك وتعالى " لما أمر بإعداد هذه الأشياء قال جل من قال قائل " ترهبون به عدو الله وعدوكم " وذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له مستكملين لجميع الأسلحة والآلات خافوهم والمراد أن تكثر آلات الجهاد وأدواتها " (55) وكما يرهب الأعداء الذين نعلم (56) كذلك يرهب الأعداء الذين لا نعلم كاليهود والمنافقين " (57) ثم " قال تعالى : " وما تتفقوا من شيء في سبيل الله " وهو عام في الجهاد وفي سائر وجوه الخيرات " يوف إليكم " أي لا يضيع في الآخرة أجره ويجعل الله عوضه في الدنيا " وأنتم لا تظلمون " أي لا تنقصون من الثواب " (58).

• الفصل الثاني : خصصه لذكر الأحاديث الشريفة المتعلقة بالجهاد ورتبها كما أشار في المقدمة على حروف المعجم وعددها ثلاثمائة حديث (300).

• الفصل الثالث: يتحدث فيه عن فضيلة الجهاد وأهميته فيقول : " واعلم أن الجهاد من أفاضل المكاسب وأمانل الحرف فلا ينبغي للعاقل أن يتركه أو يترك التحدث به فإن من مات ولم يغزو ولم يحدث به نفسه فقد مات ميتة جاهلية، ومعنى التحدث طلب الغزو وإخطاره بالبال " (59) ويختم هذا الفصل بالآية القرآنية الكريمة وهي قوله تعالى: " خنوا حذرکم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا " (60) التي تبين أن هذا " وعد للمؤمنين بالنصر على الكفار بعد الأمر بالحزم ليقوي قلوبهم وليعلموا أن الأمر بالحزم ليس لضعفهم وغلبة عدوهم بل لأن الواجب أن يحافظوا في الأمور على مراسم التيقظ والتدبر فيتوكلوا على الله " (61).

(3) - "صولة الكار وملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار"

- يقع الكتاب في ثلاثين ورقة من الحجم الكبير. خط مغربي واضح مقروء بخزانة الأستاذ المحترم ماء العينين علي مربيه ربه - تاريخ الكتابة ضحوة الأربعاء العاشر من ربيع النبوي عام ستة وأربعين بعد ثلاثمائة وألف (1346هـ/1927م). يشتمل على مقدمة وثلاثة فصول :

\* المقدمة : يشرح فيها أسباب تأليف الكتاب وتسميته فيقول : " يقول عبيد ربه محمد مصطفى مربيه ربه أناله الله بشكره ما يحب شيخه الشيخ ماء العينين غفر الله لهما وللمسلمين أمين الحمد لله القائل : " الحمد لله رب العالمين " (62) والقائل جل من قائل " إِنْ وَلِيَّ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ " (63) والصلاة والسلام على النبي القسسي القائل حاكيا عن ربه في الحديث القسسي : لا تدخلوا مداخل أعدائي ولا تلبسوا ملابس أعدائي ولا تركبوا مراكب أعدائي ولا تطعموا مطاعم أعدائي فتكونوا أعدائي كما هم أعدائي " (64) أما بعد : فقد سألتني من سألته بعض المسافرين أن يظهر له ما حرمت به الإقامة مع الكافرين فأجبتة بالقرآن والحديث والدليل ولو كان النهار لا يحتاج إلى دليل وسميته " صولة الكار وملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار " والله أسأله الكريم أن يجعله خالصا لوجهه الكريم وأن يجعلنا من أوليائه الذين لا يخافون عليهم ولا هم يحزنون المحفوظين الوارثين لأنبيائه المعصومين راجين منه أن يجعل فينا منافع المسلمين وأن يحفظنا من بأس المسلمين والكافرين " (65).

\* الفصل الأول : يدعو فيه إلى التحفظ من الكافرين وأعداء المسلمين وعدم مخالطتهم أو الإقامة معهم " أبد الأبدن وقد حذر الله من ذلك في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم " (66). ويستدل ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تؤكد ذلك كقوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ " (67) ويشير إلى أن هذه الآية " ما أبقت متعلقا إلى

التطرق لهذا التحريم " (68) فهي نص صريح في تحريم موالاة الكافرين. وقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين " (69). وقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون " (70). فكرر هذه الآيات في هذا المعنى وجريها على نسق واحد مؤكد للتحريم ورافع للاحتمال المتطرق إليه فإن المعنى إذا نص عليه وأكد بالتكرار فقد ارتفع الاحتمال لاشك (71). وكقول الرسول "ص" أنا بريء من كل مسلم مقيم بين أظهر المشركين قالوا : يا رسول الله لم قال لا تتراءى ناراهما " (72) وقوله "ص" : " لا تساكنوا المشركين ولا تجامعوهم فمن ساكنهم أو جامعهم فهو منهم " (73) وقوله "ص" : " لا ترافقوهم في الأسفار ولا تساكنوهم في الأمصار واضربوا بينكم وبينهم بسور البعاد " (74). كما يستدل بأقوال بعض الأئمة والعلماء في تحريم الإقامة مع الكفار والمشركين وجميع أعداء المسلمين .

ويختتم هذا الفصل مشيرا إلى أن هذه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والاجتماعات القطعية صريحة وواضحة في تحريم الموالاة الكفرانية ولا تجد في تحريمها " مخالفا من أهل القبلة المتمسكين بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. فهو تحريم مقطوع به من الدين كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وقتل النفس بغير حق وأخواته من الكليات الخمس التي أطبق أرباب الملل و الأديان على تحريمها ومن خالف الآن في ذلك أو رام الخلاف من المقيمين معهم الراكنين إليهم فجوز هذه الإقامة واستخف أمرها واستسهل حكمها فهو مارق من الدين مفارق لجماعة المسلمين ومحجوج بما لامدفع فيه لمسلم ومسبوق بالإجماع الذي لا سبيل إلى مخالفته وخرق سبيله " (75).

• الفصل الثاني : ينكر فيه الأسباب التي تصير بها دار الإسلام دار حرب ويورد اختلاف العلماء والأئمة في ذلك، فمالك مثلاً يرى أنه " بظهور أحكام الكفر في بلدة تصير دار حرب " (76) وهو مذهب الشافعي وأحمد، وقال أبو حنيفة " لو ارتد أهل بلد لم تصر دارهم دار حرب حتى تجتمع فيها ثلاثة أشياء : ظهور أحكام الكفر وأن لا يبقى فيها مسلم ولا نبي بالأمان الأصلي وأن تكون متاخمة لدار الحرب وانفقوا على أنه تغنم أموالهم " (77).

• الفصل الثالث : يتحدث فيه عن الذين يخالطون الأعداء ويتعاملون معهم ويعيشون تحت ولايتهم ويحذر منهم ، ويستدل على ذلك بالآية القرآنية التالية وهي قوله تعالى : لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ" (78) فهذه الآية تشير إلى أن المومنين نهوا عن موالاتة الكافرين " لقرابة أو صداقة وعن الاستعانة بهم لأن المومنين هم الأحقاء بالموالاتة وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاتة الكفرة، ومن يتخذ الكافرين أولياء فليس من ولاية الله في شيء يصح أن يسمى ولاية فتأكد مجانية أعداء الله ومباعدتهم و التحرز عن مخالطتهم ومعاشرتهم والمومن أولى بموالاتة المومن فإذا والى الكافر دل على تداعي ضعف إيمانه فزجر الشارع عن مخالطته بهذا التعليل العظيم حسماً لمادة الفساد " (79).  
يختم هذا الفصل بنص اقتبسه من كتاب "بغية المساعد في أحكام المجاهد" يتعلق بالجهاد وفيه ما يكفي ويشفي في بعض نصائحه زاجراً عن الإصغاء لهم أو الاستماع لآرائهم وأفكارهم. يقول : " فاحذروا أيها المسلمون تغرير أولئك المتسمين بسمة الإسلام وليسوا منه في شيء احذروا أن تسمعوا لهدرهم وخرفهم احذروا ما يفتنونهم من سمومهم احذروا دعوتهم إلى الاستسلام للعدو والخضوع له فإنهم منافقون يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون خضعوا للعدو وباعوا دينهم بدينيهم وصاروا من أعوانهم يقودونهم ليمكنوهم من أراضي إخوانهم أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين فعليهم لعنة الله

والملائكة والناس أجمعين يسعون لهم في تمهيد البلاد وتملك رقاب العباد ليتركوا قتالهم وتكون كلمتهم العليا ومعاذ الله. إن القوم الذين يعاضدون الكفار على المؤمنين ويقاثلونهم لاشك في كفرهم وارتدادهم والعياذ بالله تعالى من قوم يعملون على إذلال الإسلام وأهله وإعزاز الكفر وأهله وأي كفر أكبر من هذا وإن لم يكن هؤلاء مرتدين فمن هم المرتدون؟" (80).

### قراءة في أفكار الشيخ مربيه ربه الجهادية

إن تأليفه في هذا الموضوع يشكل محاولة لإضفاء الطابع الشرعي على مساره الجهادي. ومما يزيد من قيمة ما كتبه هو أنه طرح الجهاد في ظرفية دقيقة عرفت فيها المنطقة تفرقا قريبا وضغطا استعماريًا كبيرًا كأنه يحاول البحث عن سبب الداء الكامن في التراجع الواضح للقدرات الحربية للقبائل، فوجده في عدم الالتزام بقاعدة الجهاد وركونها إلى التفرقة والاختلاف.

يعتمد في مفهومه للجهاد على طريقة الاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الفقهاء والأئمة والعلماء حتى يعطي لكتاباته صبغة شرعية دينية. وقد تناول ذلك بمضامين جيدة لكي يستوعب الظرفية التاريخية التي تبلور فيها.

الجهاد في نظره "حرفة أفضل العباد" (81). و"أفضل الأعمال" (82). التي دعا إليها الإسلام وينطبق على كل الأعمال التي تتم في سبيل الله بما فيها بذل الجهد في الحرب أو السلم. ومن خلال فحصنا لما كتبه هذا الشيخ عن الجهاد يتبين أنه يراد به ما يلي :

— نوع من الوازع الديني الضروري للدفاع عن دار الإسلام. — نوع من الحرب المقدسة ضد أهل الشرك والعدو المتكالب على البلاد. — محاربة ومقاطعة العدو والتحرز منه. — مرادف للقتال. — مقياس لصدق إيمان المسلم.

ما يستوقفنا في هذا التعريف هو إلحاحه وتأكيدده على ضرورة التمسك بالجهاد كواجب على كل مسلم خاصة في تلك الظرفية الدقيقة التي كانت تمر بها المقاومة



المسلحة الوطنية. يقول : " إن الجهاد في هذا الزمن فرض عين وحق على كل مسلم أن يجعله نصب العين ولو كانت عينيته لا تحتاج إلى تبين " (83) وليس الجهاد عنده شعاراً يلوح به وإنما هو ممارسة عملية فعلية حققها وجسدها على أرض الواقع من خلال جهاده ومقاومته للمستعمر الفرنسي وهذا ما جعله ينبه إلى حالات التقاعس والتغاضي عنه مبيناً ما يترتب عن ذلك من مخاطر على جماعة المسلمين. بالإضافة إلى هذا يدعو إلى محاربة العناصر التي تصول وتجول في بلاد الكفر خاصة بعد تزايد ظاهرة الاختلاط بين المسلمين وغير المسلمين ، وهو هنا يعلن بوضوح مخالفته ومعارضته لجميع أشكال التعاون مع العدو الأجنبي ومخالطته أو التعامل معه. وفي هذا الصدد يشيد بالمجاهدين من المسلمين الذين أبانوا عن وعي جهادي من خلال رفضهم مسالمة العدو واستماتتهم في الدفاع عن بلادهم (84).

إجمالاً فالجهاد عند الشيخ ليس تكراراً لما بلوره فقهاء وعلماء الإسلام السابقين ولكنه صدى للوضع التي انتهى إليها المسلمون في بداية هذا القرن حيث ازداد التمسك بتلك الروح الجهادية بازدياد الضغط الأجنبي . وقد حاول استجلاء طبيعة العلاقة التي تربط بين الجهاد كمعطى ضروري لتعميق نقاليد وطرق المقاومة وبين الغلبة والقوة التي يكتسبها المسلمون من ذلك (85).

**أركان ومقومات الجهاد :** إن الجهاد من حيث كونه حرب مقدسة لا بد له من ركنين أساسيين لتهيء المجاهدين حتى يكونوا في مستوى مجاهدة ومقاومة العدو الكافر وهما :

- (1) - القوة المعنوية : وهي : الإيمان الكامل بالله والاستعداد النفسي والروحي.
- (2) - القوة المادية : فالجهاد إلى جانب الوازع الديني الذي يفرضه ويحث عليه فهو يحتاج إلى مجهود وتنظيم محكم كالتأهب والمرابطة والمجاهدة والعتاد والرجالي والإنفاق وكل ما يتقوى به في الحرب.

بالإضافة إلى هذين الركنين الأساسيين هناك مقومات أخرى لابد أن تتوفر في المجاهدين منها : وحدة الصف، عدم التنازع، الصبر على الشدة، الحذر والحيطه الثبات عند لقاء العدو.

**الغايات والأهداف من الجهاد :** يقرر الشيخ مربيه ربه أن الهدف الأسمى من الجهاد هو حماية جماعة المسلمين من براثن الكفر والمحافظة على وجودها وتقوية نفوذها. وتتحدد الغايات الأسمى من الجهاد عنده فيما يلي :

— ردع وإرهاب العدو. — إعلاء كلمة الله . — إعادة الثقة إلى النفوس. — الغلبة والقوة للمسلمين . — أداة للتكثف والوحدة وتجميع الجهود وبدونه تسقط الأمة في الإختلاف والتمزق. — عدم موالاته العدو الكافر المستعمر بأي شكل من الأشكال وحمل المتعاونين معه على التوبة والرجوع. — حماية جماعة المسلمين من تبعات السقوط تحت أحكام العدو لأن في ذلك "إذلال للإسلام وأهله وإعزاز للكفر وأهله" (86).

### خاتمة :

لم تكن هذه الكتابات إلا نموذجا من تراث زاخر خصصه الشيخ مربيه ربه لموضوع الجهاد سواء على المستوى النظري أو الشعري. ومما يزيد هذا الرصيد تنوعا وغنى وأصالة هو مشاركته الفعالة في العمليات العسكرية التي استهدفت الطلائع الأولى للحاميات الفرنسية بمنطقة سوس وإصراره على إفشال مخططات المحتل رغم المساومات والضغوط التي تعرض لها. كما تبرز هذه الكتابات مدى الوعي الذي وصلته الحركات الجهادية في مواجهة التدخل الأجنبي من خلال فهم واستيعاب روادها للأخطار التي كانت تحق بالبلاد.

وإذا كان لابد من إطار لتصنيف مكانة الشيخ مربيه ربه فهو يمثل نموذج العالم المجاهد لأنه جمع بين التنظير الفكري والممارسة العملية. من هنا أصبح من الضروري الالتفات إليه كشخصية وطنية من خلال التعريف به بالرجوع إلى آثاره الضخمة المتنوعة أو اعتمادا على المصادر المعاصرة له وكذا تقارير الأجانب عنه حتى ندرك حقيقة وأبعاد وشمولية حركته الجهادية .

## الموامـث :

- 1 — Abdellah Laroui : « Les origines Sociales et Culturelles du Nationalisme Marocain (1830-1912) » Paris A, 1980 , P : 306.
- 2 — ماء العينين النعمة علي : « الشيخ مربيه ربه الوطني الوجودي زعيم الجهاد والمقاومة في الجنوب المغربي » صحيفة أنوال — 1332 — 11 ماي 1994.
- 3 — محمد الأكراري : « روضة الأفنان في وفيات الأعيان » تحقيق حمدي أنوش — بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا كلية الآداب — الرباط — 1989 — ص : 39-40.
- 4 — محمد المختار السوسي : المعسول ج 4 — ص : 126-127.
- 5 — الكراري : المصدر السابق — ص : 43.
- 6 — Elhiba : Fils de Malainin » in Resnseignements Coloniaux » N° 3 — Mars 1916- P : 66
- 7 — الأكراري : المصدر السابق — ص : 52.
- 8 — المختار السوسي : المعسول ج 8 — ص : 124.
- 9 — المرجع نفسه : ج 4 — ص : 248. تتوفر على نص الاتفاق للنسخة الخاصة .
- 10 — — Dugard (H) : La colonne du Sous 1917 - Paris 1918
- 11 — Justinard L « Notes Sur L'histoire et Litterature berbères » in Hesp 1925 - P : : — 350-354
- 12 — Voino (L) : Sur les traces glorieuses des Pacificateurs du Maroc. Paris 1939, P : 478
- 13 — Ibid , P :476
- 14 — Ibid - P : 478
- 15 — "المعسول" ج 4 — ص : 267-268.
- 16 — الخزانة العامة — الرباط . — الخزانة الحسنية — الرباط — الخزانات الخاصة.
- 17 — توجد معظم هذه المخطوطات في خزانة ابنه الأستاذ المحترم ماء العينين علي مربيه ربه — أكادير.
- 18 — سورة الذاريات ، الآية : 55.
- 19 — "لبانة المجاهدين وبغية الطالبين" الشيخ مربيه ربه مخطوط ، خزانة الأستاذ المحترم ماء العينين علي مربيه ربه ، ص : 1-2.
- 20 — المرجع نفسه ، ص : 2.

- 21 — المرجع نفسه ، ص : 2 .
- 22 — المرجع نفسه ، ص : 2 .
- 23 — المرجع نفسه ، ص : 3 .
- 24 — سورة للنساء : الآية : 97 .
- 25 — لبانة المجاهدين ، ص : 3 .
- 26 — رواه أبا داود والدارمي وأحمد بن حنبل .
- 27 — لبانة المجاهدين ، ص : 3-4 .
- 28 — سورة للتوبة ، الآية : 23 .
- 29 — لبانة المجاهدين ، ص : 15 .
- 30 — سورة للتوبة ، الآية : 24 .
- 31 — لبانة المجاهدين ، ص : 15 .
- 32 — المرجع نفسه ، ص : 15 - 16 .
- 33 — المرجع نفسه ، ص : 16 .
- 34 — المرجع نفسه ، ص : 16 .
- 35 — المرجع نفسه ، ص : 16 .
- 36 — سورة للمجادلة ، الآية : 22 .
- 37 — لبانة المجاهدين ، ص : 17 .
- 38 — لبانة المجاهدين ، ص : 17 .
- 39 — سورة للنساء ، الآية : 95 .
- 40 — رواه الترمذي "باب السير" .
- 41 — رواه ابن ماجة .
- 42 — "الترغيب في بعض ما أعده الله للمجاهدين في سبيل الله" .
- الشيخ مربيه ربه — مخطوط — خزانة الأستاذ علي مربيه ربه ماء العينين ص : 2 - 1
- 43 — سورة الأنفال ، الآية : 60 .
- 44 — الترغيب ، ص : 3 .
- 45 — الترغيب ، ص : 3 .
- 46 — الترغيب ، ص : 3 .
- 47 — الترغيب ، ص : 4 .

- 48 - الترغيب ، ص : 4 .
- 49 - الترميذي باب السير .
- 50 - الترغيب ، ص : 5 .
- 51 - الترغيب ، ص : 6 .
- 52 - الترغيب ، ص : 6 .
- 53 - الترغيب ، ص : 6 .
- 54 - لأنها كانت مركب الحرب في زمن الرسول "ص" وحتى في الزمن الذي كان فيه الكاتب يخوض الجهاد هو وأصحابه فإذا تغير الزمان وجب على المسلمين أن يعدو كل ما يساعدهم في تقوية صفوفهم ضد العدو كالمطائرات والدبابات والسفن الحربية والأسلحة الثقيلة وغير ذلك.
- 55 - الترغيب ، ص : 9 .
- 56 - يقصد العدو الفرنسي .
- 57 - الترغيب ، ص : 9 .
- 58 - المرجع نفسه ، ص : 10 .
- 59 - المرجع نفسه ، ص : 58 .
- 60 - سورة النساء ، الآية : 102 .
- السورة تبتدئ بقوله تعالى "وإذا كنت فيهم إلى مهيأ" .
- 61 - الترغيب ، ص : 59 .
- 62 - سورة الفاتحة ، الآية : 62 .
- 63 - سورة الأعراف ، الآية : 196 .
- 64 - رواه الترمذي "باب السير" .
- 65 - "صولة الكار وملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار" .
- للشيخ مربيه ربه - مخطوط - خزنة الأستاذ المحترم "ماء العينين علي مربيه ربه" - أكادير - ص : 1 .
- 66 - المرجع نفسه ، ص : 1 .
- 67 - سورة المائدة ، الآية : 51 .
- 68 - "صولة للكار" ص : 1 .
- 69 - سورة المائدة ، الآية : 57 .

- 70 — سورة آل عمران ، الآية : 118.
- 71 — " صولة الكار " ص : 5.
- 72 — رواه لبا داود — باب الجهاد ص : 95 / الترمذي — باب السير ص : 41.
- 73 — رواه الترمذي — باب السير ، ص : 41.
- 74 — رواه الترمذي — باب السير .
- 75 — صولة الكار ، ص : 6 - 5
- 76 — صولة للكار ، ص : 7.
- 77 — صولة للكار ، ص : 7.
- 78 — سورة آل عمران ، الآية 28.
- 79 — صولة الكار ، ص : 8.
- 80 — للمرجع نفسه ، ص : 11.
- 81 — لبانة المجاهدين ، ص : 1.
- 82 — لبانة المجاهدين ، ص : 1.
- 83 — للمرجع نفسه ، ص : 2.
- 84 — صولة الكار ، ص : 15.
- 85 — للمرجع نفسه ، ص : 17.
- 86 — للمرجع نفسه ، ص : 18.

## الفكر السلفي والحركة الوطنية في المغرب مطلع القرن العشرين

محمد الفلاح العلوي\*

### تقديم : مرجعيات الفكر السلفي في المغرب

قبل الحديث عن الارتباط الدقيق الذي ميز الحركة الوطنية بالفكر السلفي في بداياتها بعد عقد الحماية لابد من تحديد ملخص لمرجعيات الفكر السلفي في المغرب.

إن ظهور حركات الإصلاح الديني لم يكن حكرا على بلاد المشرق لوحدنا بل إن الغرب الإسلامي بدوره ساهم على امتداد تاريخه الطويل بنماذج إصلاحية نادت بالعودة إلى الأصول الإسلامية الأولى، وقد جاءت السلفية المغربية منذ الثلث الأخير من القرن التاسع عشر متأثرة بعمق بهذه الدعوات الإصلاحية القديمة خصوصا عند زعمائها الأوائل مثل الشيخ محمد بن المدني كنون الذي كان اتجاهه ديني صرف منطلقا ونتيجة داعيا للارتباط بالسنة والأصول في السلوك

\*أستاذ باحث بكلية الآداب - بن مسيك -

والمعاملات، فكان بذلك من الرواد الأوائل للفكر السلفي في مغرب القرن التاسع عشر من داخل جامع القرويين (1) أما من خارجه فقد كان لمجدي العدوتين الرباط وسلا دور أساسي في نقل المؤثرات المشرقية في الموضوع وربطها بما هو داخلي في محاولة للإصلاح الاجتماعي المرتبط بالإصلاح الديني والمفكر في واقع البلاد من معاينة مباشرة في إطار العمل المخزني وقد مثل أحمد بن خالد الناصري بداية هذا الاتجاه أصدق تمثيل، رابطا السلفية بالسياسة وإن بصورة غير مباشر (2).

لقد ساهمت عدة عوامل في تطوير الفكر السلفي في المغرب وجعله يعايش مستجدات أحداث البلاد. يمكن أن نجملها في ما يلي:

- 1 - تأثير الطباعة والصحافة على المجال الثقافي داخل القرويين وخارجها.
  - 2 - السياسة الدينية للسلطين ودعمها للسلفية في معالجة نفس القضايا بنفس المنطلق والوسائل وصولا لنفس الحلول مع اختلاف الدوافع وتكاملها.
  - 3 - تفاعلات التدخل الأجنبي كحافز للدفع بالسلفية لمواجهة والوقوف ضده مع محاولة الاستفادة مما يصاحبه من تحديث .
  - 4 - دور جامع القرويين كمجال لتنافس تياري التقليد والتجديد مما أدى إلى حصول تطورات في البنية الثقافية للجامع حصلت بصورة تدريجية في صراع مع بقايا عناصر الجمود وتتجلى هذه التطورات فيما يلي:
- زيادة أهمية الحديث إلى جانب الفقه.
  - إضعاف تدريجي لموقف الطرفين بفسح المجال لإلقاء دروس السلفية وإعادة مادة التفسير

- محاولات عدة لإصلاح التعليم داخل الجامع وخارجه بدأت مع أبي شعيب الكالي وأخذت بعدا رسميا مع محمد بن الحسن الحجوي وبعدا عمليا نضاليا مع محمد بن العربي العلوي وإنشاء المدارس الحرة.

وهكذا يمكن القول أن السلفية المغربية ليست فقط وليدة تأثير النهضة العربية في المشرق بل لها خصوصياتها المحلية التي تميزها عن السلفية في المشرق رغم



اجتماعهما حول نفس المبادئ العامة. وهذه الخصوصيات ترجع إلى اختلاف المنطلقات رغم وحدة الأصول التي يعود إليها الجميع فالمنطلق في المشرق كان سياسيا، وكان دينيا صرفا بالنسبة للمغرب كما أن تطور هذا التيار في كل من المشرق والمغرب يختلف حسب اختلاف الأوضاع الداخلية في المنطقتين التي أثرت في مسار الفكر السلفي في كليهما ، فهو في المغرب تطور ليصبح الخطاب الفكري الوطني الذي سيقاوم الأجانب من جهة ويقاوم تدهور الأوضاع الداخلية من جهة أخرى، وهو في المشرق تيار فكري إلى جانب تيارات أخرى كل منها حلوت الإصلاح حسب ما رآته مناسبا لذلك.

### **مظاهر علاقة الفكر السلفي بالحركة الوطنية:**

إن ما يميز الفكر السلفي في المغرب أنه صادق واقعا اجتماعيا وسياسيا جعل زعماءه يتبنون هذا الفكر ليس فقط كفكر إصلاح ديني ولكن كخلفية فكرية لعمل سياسي فرض نفسه خصوصا بعد فشل حركة المقاومة الأولى في نهاية العشرينيات وبرز مقاومة من نوع آخر هي : العمل الوطني السياسي وقد تمثل هذا التساوق بين الفكر السلفي والعمل الوطني في عدة مظاهر عملية منها:

1 - إصلاح التعليم ويتضمن :

أ - إصلاح التعليم في القرويين

ب - التعليم الحر

2 - إصلاح المجتمع والتمهيد لعمل سياسي وطني

1 - إصلاح التعليم

شكل التعليم أهم ميدان حضي بعناية السلفيين والنخبة المغربية بشكل عام وقد توزعت جهود هؤلاء في اتجاهين أساسيين أولهما يهتم محاولة إصلاح التعليم التقليدي في جامع القرويين وما يرتبط به من مساجد جامعة كانت تسير في نفس اتجاهه ، والثاني تعلق بخلق تعليم جديد يناقش ويحاول أن يظاهي التعليم الفرنسي

الرسمي وذلك في إطار ما عرف بالتعليم الحر، فما هي أهم الاتجازات في هذين الاتجاهين :

### أ - إصلاح القرويين

لقد كانت القرويين كمؤسسة تعليمية تقليدية تحتضن علماء البلاد محط عناية حذرة من طرف الحماية الفرنسية مما جعلها تولى قضية إصلاح التعليم بالجامعة لأبعاد استعمارية محضة عناية خاصة استغلها بعض السلفيين العاملين بالمخزن مثل محمد بن الحسن الحجوي الذي كلف بهذا الأمر للقيام بإصلاح حقيقي منبثق من الأفكار السلفية التي آمن بها في حدود ما تسمح به المراقبة الفرنسية، لذلك وهكذا ظهر أول مشروع للإصلاح خاص بالتعليم داخل القرويين والجوامع التابعة لها يهتم بإصلاحات مادية وأخرى في أسلوب التعليم، وإحياء بعض العلوم المندثرة : ويمكن إجمال بعض هذه الإصلاحات كالتالي:

- إحداث نظام العالمية وتحديد قائمة العلماء في 154 عالم ومقرئ.

- إحداث نظام للامتحانات.

- إحداث منصب شيخ القرويين وتحديد اختصاصاته.

- إحداث نظام للدروس والمراقبة وتوزيع الطلبة على مستويات معينة.

- إحداث تنظيمات خاصة بالعطل والرخص والمكافأة على التأليف والتقاعد

ونظام العقوبة .

هذا المشروع بما احتوى عليه من تحديد وتقنين للنظام داخل القرويين لم يرق أغلبية العلماء المقلدين، ولهذا عطل البث فيه والحث في الزيادة في ما يمنح للمدرسين من مكافآت وتحويلها إلى رواتب وبقي الأمر على ذلك إلى حدود سنة 1930 حيث صدر ظهير جديد بإدخال النظام للقرويين خلاصته:

- توزيع الزمن الدراسي - تحديد المواد المدرسة - تقييم مراحل التعليم - رفع

رواتب العلماء.

وقد ووجهت هذه المبادرات الإصلاحية في القرويين بمعارضة العلماء التقليديين الذين رأوا فيها إذا ما طبقت إنقاصا من وضعيتهم العلمية وتحقيرا لهم على حساب غيرهم من المجددين الذين قد ينتفعوا من حسنات هذا النظام ، فألبوا بعض الطلبة لرفض هذه الإصلاحات، فانبتق صراع واسع بين المقلدين والمجددين داخل القرويين(3). بالإضافة إلى تلك أضيفت إلى حلقات التدريس دروس خارج إطار الدروس الرسمية خصوا بين العشائين ، يوطرها أقطاب السلفية ويبتون فيها مبادئ الوطنية ومنها حلقات علل الفاسي . ولم تستطع سلطات الحماية الوقوف مباشرة في وجه هذه الحلقات ، فاكتفت بمراقبتها بواسطة جواسيسها المنبئين داخل هذه الدروس(4).

### التعليم الحر

تعتبر ظاهرة التعليم الحر في عمقها رد فعل أساسي على سياسة الحماية في ميدان التعليم للمحافظة على الثقافة العربية الإسلامية وضمان استمرارها أمام وجود التعليم الرسمي الذي تشرف عليه سلطات الحماية (وقد اشترك المغرب في هذه الظاهرة مع كل من الجزائر وتونس التي ظهرت بهما مؤسسات مماثلة وإن بطرق مختلفة سواء فيما يتعلق بالمدارس القرآنية الحديثة بتونس، أو المدارس الحرة بالجزائر التي بلغت إلى حدود 20/1931 مدرسة وقاربت المائة بعد إنشاء جمعية علماء الجزائر المسلمين في أواسط الثلاثينات . وقد كان التعليم الحر بمثابة جواب عملي على سياسة الحماية الفرنسية في ميدان التعليم التي يلخصها التقرير التالي :

" لا ينبغي تعميم التعليم وفرضه بسخاء على كل من هب ونب .... بل يتعين توفيره ووضع رهن إشارة المسلمين في جرعات صغيرة، مكافأة وتشريفا للاستقرارية المحلية، حيث أن من المسلم به في نظر الأمة الغازية، أن شباب المدارس المنتقون من بين أبناء الأعيان ينبغي أن يكونوا منبئا (حقل تكويني) لإعداد موظفي الإدارة المحلية وصغار الأعوان بإدارتها" (5).

وهكذا كانت سنة 1919 بداية التجارب الأولى للمدارس الحرة في كل من فاس والرباط وتطوان ثم تلتها أخرى في العشرينيات في كل من سلا والدار البيضاء ومراكش والجديدة وأسفي والصويرة، وقد كانت سنة 1930 سنة بداية انتشار هذا النوع من التعليم حيث فاق عدد المدارس الحرة 30 مدرسة في مختلف مدن البلاد وقد أشرفت هذه المدارس على تكوين ما يتراوح بين 1500 و 2000 تلميذ أواسط العشرينيات مقابل ت مدرس حوالي 6000 تلميذ في التعليم الفرنسي الرسمي خلال نفس الفترة.

هذه المدارس الحرة كانت مهمتها بالإضافة إلى الجانب التعليمي:

- تعزيز دور اللغة العربية - التركيز على التاريخ المغربي - التركيز على التربية الإسلامية - بث الوعي الوطني المبكر بين المتمدرسين - تبني الفكر السلفي كإيديولوجية تعليمية ومحاولة التجديد في أفق التعليم التقليدي بإدخال بعض المواد العصرية إليه.

وبذلك ساهمت هذه الخطوات في تكوين الجيل الأول لرواد الحركة الوطنية التي سيتطور عملها في الثلاثينات ليزاوج بين الإصلاح الاجتماعي والمطلب السياسي. فكيف كانت انطلاقة العمل السياسي في علاقته بالعلماء؟.

### **إطام المجتمع والتمهيد لعمل سياسي وطني:**

إن علاقة علماء القرويين بالسياسة ناتجة عن التقاليد العريقة التي تربط بينهم وبين المخزن، وتتجلى هذه العلاقة في جانبين أساسيين: اعتبارهم فئة من أهل الحل والربط الذين تتوقف عليهم بيعة السلطان وشرعية تنفيذ السلطة، وبهذه الصفة يساهم العلماء في تعيين السلطان وإضفاء الشرعية على سلطته ولا تتعقد البيعة له من طرف العامة إلا إذا كان الخاصة ومنهم العلماء قد ساهموا في ذلك، ومن هنا جاءت أهمية بيعة مدينة فاس التي تتضمن بيعة علماء جامع القرويين، وبهذا المعنى يكون العلماء في طليعة العمل السياسي منذ أن أصبحت البيعة نظاما للمخزن في المغرب(6).

تبرز كذلك هذه العلاقة في إطار السند الشرعي الذي يبدأ السلطان في البحث عليه فور مبايعته وذلك من خلال الاستشارات المختلفة والمتعددة التي يوجهها للعلماء قصد توضيح رأي الشريعة فيما يعرض للمخزن من مسائل ومشاكل عويصة لها اعتبارها عند السلطان. فهم من أهم الفئات التي يبرر السلطان إزاءها مواقف وقراراته السياسية المختلفة، هذا بالإضافة إلى أن العلماء بدورهم لا يمكنهم فرض نفوذهم إلا بدعم السلطان لهم، فهناك إذن نوع من الترابط والجدلية في علاقة العلماء بالسياسة وتمشيا مع هذا الاتجاه عبر العلماء عن آرائهم إزاء الأحداث المختلفة التي عرفها المغرب في حقبة مختلفة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مساهمتهم في مختلف بيعات السلاطين أو حالات خلع بعضهم (7)، معارضتهم لسياسة تمليك الحراطين في عهد السلطان مولاي اسماعيل، حينما كان بصدد تشكيل جيش البخاري (8).

ومع حلول سنة 1900 سببرز العلماء كمدافعين عن البلاد وموضحين للأخطار التي تحقق بها، وسأحاول أن أوضح هذا الدور من خلال ثلاث نماذج وهي: محمد بن عبد الكبير الكتاني؛ أبو شعيب الدكالي، ومحمد بن العربي العلوي. فبخصوص النموذج الأول محمد بن عبد الكبير الكتاني، فقد شكل هذا الاسم أبرز شخصية في فئة العلماء، ولعب دورا مهما في الأحداث السياسية في بداية القرن ويمكن تلخيص بعض مواقفه كالتالي:

- لقد كان واحدا من العلماء الذين وقعوا على وثيقة الدعوة لمناهضة بوحمارة.
- تعبيره أكثر من مرة على معارضته لأفكار فرنسا لإدخال إصلاحات إلى المغرب تمهيدا لاحتلاله خصوصا بعد حواث وجدة والدار البيضاء.
- محاربه للمحميين ممن تمتعوا بامتيازات أجنبية من أصحاب الحماية الشخصية.
- مقاومته لموقف فرنسا القاضي باقتطاع مناطق مغربية على الحدود الجزائرية بحجة أنها أراضي جزائرية تابعة لفرنسا.

- موقفه عموماً من تدويل القضية المغربية في مؤتمر الجزيرة الخضراء وانتقاده لسياسة المخزن اتجاه هذا المؤتمر (9).

وبغض النظر عن تفاصيل علاقته بالسلطان مولاي عبد الحفيظ مما أدى إلى تصفيته على يده، يبقى أن مواقفه الصادقة تدل على تحركه السياسي أكثر من غيره من العلماء وتدل كذلك على اعتباره من أوائل الممهدين للتيارات الوطنية المغربية.

إن موقف محمد الكتاني من التفسير يختلف عن موقف عموم العلماء في هذه المرحلة، فهو القائل بخصوصه: " فكيف ينبغي لعقل أن يتجنبه ولا يشغل عمره كله به، وإنما بالخوض فيه، يطلع على وجه إعجازه وبه يعلم صدق الرسول دلالة عقلية فيكون أهون على الاستسلام والانقياد لكل ما أتى به" (10).

أما موقفه من السنة والحديث فيستخلص من قوله: " أما علم الحديث فلا نجد قائلاً به، إذا استدلت بحديث لأحد على جزئية من الجزئيات، اتضح أنك أثبت في الدين بما ما لم يأت به أحد وعارضك هو بكلام حكيم من العلماء أو أمام من الأئمة " (11).

- محاولة الكتاني التفكير في أسباب تفوق الغرب والبحث في أصل تلك الأسباب في الإسلام مثلاً في قوله: "وقد علمتم ما وصل إليه الأجانب اليوم من النفوذ في العالم، فانما وصلوا لذلك بأمور ومنها الحرية التي عبر عنها الشرع الكريم بالقسط والعدل والنصح وعدم المحاباة" (12).

لكن بالمقابل لا يجب علينا أن نغفل بعض المعطيات بخصوص الكتاني فهو:

- مترجم التيار المنادي بالجهاد مهما كانت العواقب، دون الدعوة لتأجيل ذلك إلى حين تحقيق أسباب الحصول الانتصار الداخلية بالاستعداد وإصلاح النفس.

- تزعمه كذلك في نفس مرحلة كفاحه السياسية للطريقة الصوفية المنسوبة إليه وإن كان يقول بتأسيسها على أسس الكتاب والسنة إلا أنه لا ينكر عليها الرقص والذكر والحضرات.

● اختلافه مع السلطان مولاي عبد الحفيظ المعروف باتجاهه السلفي في قضايا مختلفة لا علاقة لها بالسياسة كقوله بحياد الأنبياء.

هذه المعطيات المختلفة كلها تجعلنا نتساءل عن الحد الذي يمكننا عنده اعتبار محمد عبد الكبير الكتاني مصلاحا سلفيا باعتبار أن السلفية كحركة تدعو إلى الرجوع للكتاب والسنة ، كانت تحارب الطرق وهو يعتبر زعيما لطريقة دينية وعلى اعتبار مواقفه الأخرى التي تسير التطور الذي سارت فيه السلفية حينما ترتبط بالإصلاح والسياسة.

النموذج الثاني هو أبو شعيب الدكالي الذي ربط بين العمل الفكري المرتبط بالتدريس وإشاعة الحديث والسنة وبين ما كان يعايشه من أحداث سياسية هامة خصوصا قبيل الحماية وبعدها، وبذلك ساهم في إبراز ملامح السلفية الجديدة المرتبطة بالسياسة، أما موقفه المتميز من الجهاد فهو منبثق من موقفه العام من حركة الهيئة، فالدكالي عبر عن أفكاره في الموضوع حينما قابل الهيئة في مراكش الذي استمع إلى حوار بينه وبين القاضي ابن عبد العزيز بحضور أخيه الشيخ مرييه ربه حيث عبر أثناءه عن موقفه الراض للمقاومين الذين يقدمون للأوربيين مبررا لاحتلال الأراضي الإسلامية.

يمكن أن نستنتج من هذا الحوار الأفكار التالية:

- عدم قبول الدكالي الدخول في حركة الهيئة الذي أعلن نفسه سلطانا(13).
- عدم خروجه عن الشرعية الممثلة في الملوك العلويين(14).
- اعتبار موقفه من المقاومين استمرار لموقف الناصري حول مقاومة الأجنبي ولعل لهذا الاعتبار ارتباط بما كان معروفا عن الهيئة من ربطه للجهاد بالإيمان بالخوارق الشيء الذي يتنافى ومقاصد الفكر السلفي الواقعي البعيد عن تصديق الخرافات المتعلقة بالخوارق. فقد حكي الناس أن الهيئة أشاع قبيل تعيينه قائدا للجهاد أنه قادر على إبطال ضرب مدافع الغزاة.

ومن هنا سنستنتج أن الدكالي كمتزعم للتيار السلفي في بداية القرن استطاع أن يعبر عن تلك الارتباط الذي حصل ما بين السلفية كفكر والسياسة كمارسة، حينما اتخذ هذا الموقف من الهيئة وحركته في انسجام مع أفكاره السلفية التي ترى ضرورة الإصلاح الاجتماعي والفكري لنجاح أي إصلاح سياسي، فهو يتنكر للحركة التي تدعو إلى الجهاد بالاعتماد على الإيمان بالخوارق والخرافات الشيء الذي عبر عنه الهيئة وأتباعه.

النموذج الثالث هو الشيخ محمد بن العربي العلوي ويمكن حصر توجهات عمله السلفي فيما يلي:

على المستوى الفكري ارتبط اتجاهه الفكري بجانبين أساسيين: توضيح الإسلام الصحيح واستخلاصه من البدع والخرافات التي ألصقت به وذلك عن طريق:

- الدعوة للاعتماد على الكتاب والسنة.

- التنديد بالطرق وفكرها اليومي الغيبي وممارستها الخاصة.

- محاربة كل فكر غيبي من سحر وشعوذة وتجاوز كتب الفروع إلى كتب الأصول في التدليس.

- الاستمرار في نهج النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مختلف أطوار عمله.

- الجانب الثاني وهو التعريف بالثقافة العربية الإسلامية وإبراز قدرتها على مواكبة العصر وذلك عن طريق:

- التأكيد على أن الإسلام دين حركة وتقدم لا دين جمود وتأخر.

- استلهام ماضي الأمة الإسلامية في عصور قوتها.

- الدعوة إلى الرجوع إلى المقومات الدينية مع التفتح على العصر ومواكبته بالتعرف على الثقافات الأخرى.

- محاولة إصلاح التعليم عن طريق تطوير العلوم التقليدية وإدخال العلوم الحديثة وتعلم اللغات.



- اعتبار التعارض بين الشرق والغرب حقيقة تاريخية عبر مختلف العصور مع اختلاف أشكالها فقط.

أما على صعيد الممارسة والتطبيق فتتعدد أمثلة ونماذج هذا الجانب في حياة بن العربي العلوي ويمكن الوقوف فقط عند بعض النماذج مثلاً إيمانه القوي بضرورة الجهاد والثورة ضد المستعمر، وهذا ما جعله يحاول الانخراط في جيش موحا وحمو الزباني ويحاول الالتحاق بحركة محمد بن عبد الكريم ويراسل كذلك في الأربعينات زعماء الجيش العربي في فلسطين لقبوله كمتطوع كما ساهم كذلك من موقعه المخزني في إصدار مجموعة من التشريعات المانعة لبعض ممارسات الطرق وبالأخص ممارسات الطريقة العيساوية.

أما على مستوى المواقف، فتتعدد مواقفه الشجاعة النابعة من الفكر السلفي وتتوزع في مناسبات متعددة طيلة حياته، وقد أتت به إلى النفي مراراً والتضييق على حريته. ومن أمثلة ذلك :

- أنه كان يبكي في دروسه بالقرويين عند صدور ظهير 16 ماي 1930 (الظهير البربري) معلناً أن الاستعمار قد أعلن الحرب ضد القرويين وعلومها في هذا الظرف وبالتالي ضد الإسلام والعرب.

- تقديمه استقالته من الوزارة سنة 1944 احتجاجاً على تخايل الوزراء وجبنهم وتواطئهم مع الاستعمار اثر تقديم عريضة المطالبة بالاستقلال.

- موقفه أثناء إرغام العلماء على مبايعة محمد بن عرفة وجوابه للقبطان المكلف بذلك: "أنني لن أمضي البيعة وفي استطاعتك ان تفعل ما تشاء وتأكد أنني لن احقد عليك".

إن المتمعن في هذه الأمثلة وفي غيرها فكراً وممارسة ومواقفاً، يمكن أن يخرج بخلاصة أساسية حول سلفية شيخ الإسلام وفي تطورها التدريجي من الإصلاح الديني إلى الإصلاح الاجتماعي إلى الإصلاح السياسي إلى الموقف الثوري مع احتواء الباعث الديني الروحي لها جميعاً سواء في دروس السلفية أو

السخرية من الطرق أو التعريض بنظام الحماية وممارساته وبذلك تحققت فعلا عند بن العربي العلوي صفة الداعية الديني الوطني الذي مزج بين السلفية والوطنية وكان من نتائج هذا المزج تكوين الرعيل الأول من الوطنيين الشباب وتزعمهم للخلايا السياسية وبدايات الاصطدام بالحماية، يقول عنه شارل اندري جوليان مثلاً: " لا أحد يمكن له أن يفصل من جديد بين العقيدة والوطنية حيث أن وطنية هذا السلفي أصبحت رمز التفكير لدى الشبيبة المغربية " (15).

## هوامش

- 1 - محمد الفلاح العلوي :جامع القرويين والفكر السلفي، ص ص 82-101
- 2 - نفسه ، ص ص 104-123
- 3 - نفسه ، ص ص 126-146
- 4 - دور الورطاسي : زكريات الدراسة بالقرويين، وبالخصوص في معرض حديثه عن الشيخ مولاي رشيد الدرقاوي.
- 5 - Plan d'étude des programmes de l'enseignement des indigences ; Bulletin de l'enseignement Public du Maroc ; v 7 n° 24 ;30 octobre 1920 P394.
- 6 - Laroui ; les origines sociales et culturelles du Nationalisme Marocain 1830-1912 ; C C A P 71.
- 7 - مثل خلع السلطان السعدي محمد بن عبد الله المسلوخ ، وقد أثبت الناصري في الاستقصا تفاصيل ذلك في الجزء الخامس ص ص 70-78.
- 8 - محمد المهناوي : الفصل الأخير في معارضة علماء فاس سياسة تمليك الحراطين الملحق الثقافي للاتحاد الاشتراكي، رقم 367، بتاريخ فاتح غشت 1993.
- 9 - الباقركتاني : ترجمة الشيخ الشهيد محمد الكتاني، ص 187.
- 10 - نفسه ص 190.
- 11 - نفسه ص 26.

- 12 - محمد المنوني :مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج 2 ص 374-375.
- 13 - عبد الرحمان الدكالي : ترجمة الشيخ أبي شعيب الدكالي، مقال مرقون على الألة الكتبة نسخة خاصة.
- 14 - عبد الله العروي : احمد الهيبة ، منكرات من التراث المغربي م 5 ص 124.
- 15 - كل المعطيات المتعلقة بمحمد بن العربي العلوي مستمدة من كتاب ، عبد القادر الصحراوي ، شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي : مطبعة دار للنشر المغربية الدار البيضاء 1965.

## تأصيل الهوية الثقافية الوطنية في مدينة وجدة (1907 - 1950) مساهمة في دراسة الجذور والامتدادات .

بدر المقرئ \*

### تقديم:

حري بي التتبيه بدهامة على أن المقصد الأسمى لهذه المساهمة المتواضعة هو مد باع تفعيد الهوية الثقافية الوطنية بوجدة بين سنة 1907 وسنة 1950 من خلال معلمتين رئيسيتين: المعلمة السلفية والمعلمة الوطنية . وأما المقصود بالجنور فهو لفت الأنظار إلى استحصاف ورائق عرى القاعدة السلفية والوطنية من خلال إطار زمني محدد يمثل خطين متوازيين : فأما الخط الأول فيمثل احتلال الجيش الفرنسي لمدينة وجدة في أبريل 1907، وأما الخط الثاني فيمثل اشتعال جنوة العمل السياسي والعسكري الوطني ضد الحماية الفرنسية سنة 1950 . ومن الطبيعي أن نعصد دراسة الجنور بدراسة الامتدادات حتى يكون أخذ موضوع تأصيل الهوية الثقافية الوطنية على عهد الحماية بأصله وفصله . وقد خصصت هذا العرض بالمباحث التالية :

- (1) – المبحث الأول : الأدوات المنهجية والحدود المعرفية .
- (2) – المبحث الثاني : خطاب تحديد الانتماء / نماذج من الحركة السلفية بوجدة .
- (3) – المبحث الثالث : خطاب تحديد الهوية / قناة المدارس الحرة .
- (4) – خاتمة .

### المبحث الأول : الأدوات المنهجية والحدود المعرفية .

لا تستقيم دعائم سبر أغوار الهوية الثقافية الوطنية على عهد الحماية دون توضيح الأدوات والتعريفات الكاشفة. فإذا كنا قد أردنا دراسة الجنور بدراسة الامتدادات فلأن الفضاء السلفي هو الفضاء الأس والرئيس للعمل الوطني الثقافي وبعبارة أخرى فإنه ليس هناك أدنى التباس أو استبهام في اعتبار السلفية سندا للحركة الوطنية. ومن ثم يمكن تفكيك الجنور والامتدادات المؤصلة للهوية الثقافية الوطنية على عهد الحماية من خلال جملة من المسلمات التي أخذناها من كتب. فالباحث لا يكون في أمر مريح إذا استنتج بأن السلفية المغربية كانت أحادية المقصد في تأصيل الهوية الوطنية وأما الحركة الوطنية فكانت ثنائية المقصد . وهكذا فإن الخطاب السلفي كان في المقام الأول خطابا لتحديد الانتماء حتى تكون المسؤوليات والواجبات سهلة المجنب، قريبة المتناول. أما خطاب الحركة الوطنية فكان خطابا لتحديد الهوية . ولذلك فإن الحركة الوطنية بالمغرب تمتاز بخاصية مزدوجة : حركة تحرير وطني تزوج بين المقاومة المسلحة والنضال السياسي من جهة ، وحركة تنوير فكري (1) . وقد وضع علل الفاسي تلك الثنائية في كتابه " النقد الذاتي " بقوله : " ظلت الوطنية المغربية منذ عهد بعيد شيئا غامضا إلا فيما يرجع لمقاومة الأجنبي . ولقد كنا نرى في هذا الغموض سرا من أسرار قوتها ، وقد يكون ذلك صحيحا فيما مضى ، أما اليوم فيجب أن تمتاز الوطنية المغربية ببرنامجه المدقق المفصل وتجمعها من حوله وأن يكون للوطنيين قانتهم الاجتماعيون والاقتصاديون والروحانيون إلى جانب قانتهم السياسيين " (2).

إن استشراف خطاب الانتماء السلفي وخطاب الهوية الوطني والحرص على درك كل واحد منهما يمكننا من استنباط نتيجة مهمة وهي أن تحديد الانتماء جدير بأن يكون مفتوح المواجهة مع المؤسسة الاستعمارية وهي مواجهة ثقافية كلية ، أما تحديد الهوية فيمثل طفرة لافتة للنظر في إعداد العدة لمواجهة الحماية الفرنسية وتقعيد مقولات " الأمة المغربية " أو " القومية المغربية " أو " الروح المغربية " (3) . وفي ضوء ذلك تكون المساهمة في دراسة جـنـور وامتدادات تأصيل الهوية الثقافية الوطنية في مدينة وجدة بين 1907 و 1950 قريبة المقتبس وسهلة الملمس.

### المبحث الثاني : خطاب تحديد الانتماء / نماذج من الحركة السلفية بوجدة .

فضلت انتقاء بعض أعلام الحركة السلفية بوجدة حتى يكون تفكيك الخطاب السلفي سهل الارتياح ، لين المأخذ. ونمونجنا الأول هو سيدي محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي ( ت 1956م) الذي سنكون ضليعين به إذا أثرنا جملة من معالم سيرته. يقول الحجوي في ترجمة نفسه : " مسقط رأسي فاس، بها قرأت وتعلمت وبأدب أهلها تأديت ،وسكنت مكناسة الزيتون سنتين ونيفا ، ثم وجدة ثلاث سنين ... وأما عقيدتي فسنية سلفية. أعتقد عن دليل قرآني برهاني ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الراشدون. مالكي المذهب ما قام دليل .... ربيت في حجو سيدي الوالد والوالدة الصالحة القائنة ، وكان لهما الاعتناء التام بتربيتي وتهنيتي وإصلاح شؤوني ... واستعانت الأم في ذلك بجدي من قبل الأب ... كانت أفعالها وأخلاقها كلها دروسا عملية علمية تهنيفية ... أتلقاها عنها والفكر فارغ من غيرها ... إن تأثير هذه التربية الأولى على حياتي هي التي أوضحت لي أن تربية الأمهات لها دخل كبير في تهيئة الرجال النافعين ، وإعداد الأمم للنهوض، لذلك أرى وجوب تعليمهن وتهنيتهن تعليما يليق بديننا ، ويزين مستقبل أولادنا ويصيرهن عضوا نافعا في هيئتنا الاجتماعية، فلا غنى لنا عن إعانتهن في تربية رجال المستقبل الذين عليهم مدار حياة البلاد ... " (4) . وستاح لسيدي محمد بن

الحسن الحجوي الفرصة المواتية للسمو بمثل تلك الأفكار الغربية على زمنه وأهله وهو الأقوى عليها عندما رقي سنة 1900 من وظيف العدل في صوائر دار المخزون بمكناس على عهد السلطان عبد العزيز إلى وظيف أمين ديوانة مدينة وجدة. وزيد له على ذلك وظيف مفتش الجيش الذي كان مرابطا هناك لصيانة الحضرة الوجدية من هجوم أبي حمارة سنة 1901 ، فكان بهذه الصفة نائبا عن وزير المالية في أمور الجيش المالية، وعن وزير الحرب فيما يرجع إلى الأسلحة والذخائر، ثم أضيف إليه وظيف نائب الملك في الحدود، وفي فصل دعاوى الإيالتين هناك مع تكليفه بتنظيم جيش لحراسة الحدود المغربية (5). ولم تكن لهذه الخطط والوظائف السياسية أن تمنع الحجوي من القيام بالواجبات العلمية أتم قيام. فقد اضطلع بنشر العلم وتوضيح تصوراته السلفية منذ الوهلة الأولى لإقامته بوجدة. ولا خلاف في أن إقامة جلة من العلماء السلفيين بوجدة من المهاجرين من المراكز العلمية الرئيسية بالجزائر بعيد احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 ، كان له بالغ الأثر في الدعوة السلفية للحجوي بوجدة. وقد سطع نور وضياء خطاب تحديد الانتماء بوجدة في بداية القرن العشرين في الجامع الأعظم الذي يرجع تاريخ بناءه إلى العصر المريني .

لقد حاز الحجوي قصب السبق بمدينة وجدة في إقراء "المرشد المعين" و"تحفة" ابن عاصم الأندلسي و"الربيع المجيب" برسالة الماريني (6) . وفي طيات تلك الدروس لمع سناء دعوته " إلى إزالة غشاوة الجهل بالدين الحنيف عن العقول حتى يقف الناس على معنى الدين الحنيفي، وينبذوا كل الأوهام التي خلطت به من أعدائه. فكل نهضة لاتؤسس على مبادئ الدين الصحيح والأخلاق الفاضلة تكون خلوا من الفضيلة، وخطرا عاما على البلاد..." (7) .

وقد لقي الحجوي سؤله لعوامل ذاتية وموضوعية جمة وأهمها أن معنويات المغاربة أهل وجدة كانت منهارا لوجود الاستعمار الفرنسي على العتبات ومعاناتهم من فتنة أبي حمارة وضعف الإدارة المركزية. ووجدت دعوته السلفية صدى لها

في وجدة لأنها كانت بمثابة أداة لتحسين الشخصية المغربية أمام الأمواج العاتية التي تهدد كيانه ووجوده.

وإلى الحجوي كان مفضى الإلحاح على ضرورة امتلاك علماء وجدة للفقاه لإيمانه العميق بأن الأمة الإسلامية لا حياة لها بدون الفقه ولا رابطة ولا جامعة تجمعها سوى رابطة الفقه وعقائد الإسلام. فمهما وجد أهل الفقه واتبعوا كانت الأمة إسلامية، ومهما انعدم الفقه والفقهاء لم يبق للأمة اسم الإسلام (8). ولطالما رددت الشفاه بمدينة وجدة ربط الحجوي بين خلاص الأمة الإسلامية وتلك المبادئ حفظها للجامعة الإسلامية. ومن تلاميذ الحجوي بوجدة الذين بنوا وتقدموا في حمل لواء دعوته السلفية أنكر على سبيل المثال أبا زيد عبد الرحمن بن المير خطيب وجدة وجنيدها. وقد كان ملازماً للحجوي لا يفارقه مع فضله وسنه العالية وعلمه وتوفي رحمه الله سنة 1930 (9). والتلميذ الثاني هو أبو عبد الله محمد الحنفي بن محمد الناصري، توفي سنة 1905 (10).

وكانت الاستدامة على أمر الدعوة السلفية مع جلة من علماء وجدة من أقران الحجوي. وفي مقدمتهم سيدي أبو بكر بن زكري الفاسي الوجدي وسيدي الحاج العربي بن الحبيب بن المصطفى سيناصر المعسكري الوجدي. فقد تصدى هذا الثلاثي وإشراب لرقى الفقه بوجدة بتأصيل مستتبعاته وخاصة اللغة العربية ومبادئ الدين من توحيد وفقه وأخلاق. فكان تأسيس المعهد الإسلامي الملحق بالجامع الأعظم بوجدة بعيد سنة 1907 تاريخ احتلال المدينة. واختير الشيخ العلامة سيدي أبو بكر بن زكري الفاسي الوجدي - الذي توفي حوالي سنة 1932 - مديراً له (11). وكان لهم الأكبر لأبي بكر ابن زكري نشر وعي تهنيني تربوي تعليمي للحفاظ على مقومات الشخصية الإسلامية والذي طالما ردد قول الشاعر :

واسقه ماء الورد مع عسل النحل

فإن رديه الأصل يرجم للأصل (12)

خذ الشوك واغرسه على الدر يا فتى

فوالله ما تجني إلا الشوك خالماً



ومن أقران الحجوي الحاملين لواء السلفية بوجدة الشيخ العلامة سيدي الحاج العربي بن الحبيب بن المصطفى سيناصر الحسيني المعسكري الوجدي الذي توفي سنة 1931 أو 1932 (13) .

وإذا كان دين الحجوي هو المناداة بإصلاح التعليم للارتقاء إلى مستوى بنساء الشخصية الإسلامية القادرة على مواجهة التحديات، فلأن مثله الأسمى هو إصلاح الأزهر. وهنا تثار المنزلة الرفيعة لدعوة الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا عند علماء وجدة وأصدائها الحسنة التي كانت سببا في إبراك السلفية آمالها بصورة جليلة. فقد كانت هناك متابعة دقيقة لتوالي الشيخ محمد عبده ولمجلة " المنار ". وقد ذاع صيت سيدي الحاج العربي المعسكري الوجدي بنشرها بين العلماء وطلاب المعرفة. وقد بلغت الدعوة السلفية العنان حتى نهاية الثلاثينات مع جلة أخرى من العلماء المتشبعين بخطاب تحديد الانتماء من أمثال : الشيخ العلامة سيدي محمد المازوني (ت 1932) ، والشيخ العلامة سيدي الحاج أحمد بن الحبيب الحسيني سيناصر المعسكري الوجدي (ت 1932) ، والشيخ العلامة سيدي بنسعيد الخالدي الوجدي (ت 1976) ، والشيخ العلامة سيدي محمد النكادي الوجدي (ت 1932) والشيخ العلامة سيدي عبد القادر بن الكندوز المستغانمي الوجدي (ت حوالي 1936) ، والشيخ العلامة سيدي إسماعيل الإدريسي القيطوني وشيخ الشيوخ سيدي عبد الرحمن الشفشاوني وغيرهم .

وحتى لا نكون في أمر مريج فإنه يحسن بنا التنبية على أن خطاب تحديد الانتماء كان يختلف أحيانا عن خطاب تحديد الهوية اختلافا جنريا ولذلك نقول بأن الخطاب السلفي كان عاما غير مرتبط غالبا بالإطار الموضوعي للمغرب آنذاك أما الخطاب الوطني فهو خاص لإحاطته بكل آليات الواقع المغربي في ظل الحماية الفرنسية. فلا غرابة إذا كان الحجوي يثني على LYAUTEY لشغفه بإحياء مآثر الإسلام بمكان رفيع لائق بماله من سعة المدارك ونزاهة الأفكار الإصلاحية (14) حسب زعمه .

### المبحث الثالث : خطاب تحديد الهوية / قناة المدارس الحرة.

قوى خطاب تحديد الانتماء خطاب تحديد الهوية وأعلى نكره لأن مرجعية الخطاب الوطني تقوم بداهة على لبنة الخطاب السلفي وهو ما حدا ببعض الدارسين لاعتبار خطاب تحديد الهوية سلفية جديدة (15) . وقد رسا طود خطاب تحديد الهوية بوجدة منذ 1930، وحقيق بنا في هذا المقام التأكيد على أن مما قوم أود تلك الخطاب تأثر الوطنيين بالنضال السياسي في الجزائر وقد كانت وجدة على مر قرن ونصف من الاستعمار الفرنسي للجزائر، قاعدة خلفية للشعب الجزائري. وقد رسخ الإخاء المغربي الجزائري أركان الخطاب الوطني بصورة لاقتة للأنظار في مدينة وجدة. وليس غريبا البتة التنبية على تشجيعات الشيخ البشير الإبراهيمي عندما كان مديرا لدار الحديث بتلمسان لتأسيس المدارس والمؤسسات التعليمية الوطنية لمواجهة الأخطار المحدقة بالهوية الوطنية (16) . وليس غريبا كذلك الإشارة إلى أن رواد العمل الوطني بوجدة كانوا جزائريين ، وكانت لهم مساهمات جليلة في توطيد قواعد رواق خطاب تأصيل الهوية الثقافية الوطنية بوجدة منذ منتصف الثلاثينات . وهناك إجماع على أن أهم معلمة ثقافية لتأصيل الهوية الثقافية بمدينة وجدة هي مدرسة العروبة التي اقترح الأستاذ علال الفاسي تأسيسها قرب الجامع الأعظم سنة 1934، وكلف الأستاذ عبد السلام الوزاني بإدارتها (17).

واشتدت أعناق العمل الوطني التعليمي بوجدة سنة 1937 بتأسيس مدرسة بزنفة الخياطين بإدارة الحاج محمد مكار ثم عبد القادر العرابي في منزل حبسه التاجر محمد بوغانم وأصبحت المدرسة تحمل اسم مدرسة القرآن الكريم (18).

وتصعد سنة 1946 بوجدة بنيان مدرسة زيري بن عطية التي فاح عطرها بإدارة أحد المعسكريين الأفذاذ وهو سيدي المصطفى المشرفي (ت 1959) (19). وهناك مؤسسات تعليمية أخرى ساهمت في تأصيل الهوية الثقافية الوطنية بوجدة على عهد الحماية مثل مدرسة الجندي نسبة إلى مؤسسها سيدي محمد (فتحاً) بن محمد بن غالي الفاسي أطل الله عمره .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن تلك المدارس الوطنية كونت فرقا كشفية سوية تقوم بتدريب شبه عسكرية في ضواحي وجدة. والهدف المقصود بذلك هو عجم عود الشاب المغربي . ولم يكن لنعائم العمل التعليمي أن تترسخ لولا تجريد الوطنيين الوافدين من الجزائر وخاصة من تلمسان وندرومة ومسـتغانم ووهران ومعسكر والوافدين من فاس خاصة وأهل وجدة العناية فسي تمويلها ومساعدتها وتوجيهها أو تأطيرها تربويا.

### خاتمة .

إن إيسار المساهمة في دراسة جذور وامتدادات تأصيل الهوية الثقافية بمدينة وجدة في فترة خطيرة من تاريخ المغرب ، لا يوثق إلا باعتبار خطاب تحديد الهوية تخصيصا وتدقيقا وتطويرا موضوعيا للخطاب السلفي الذي يهتم بتحديد الانتماء . وتكاد مدينة وجدة تنفرد – بموقعها الاستراتيجي وتواصل أهلها مع الشعب الجزائري – بكون برى وقوى خطاب تحديد الانتماء وتحديد الهوية تتأكد وتستحکم محليا ووطنيا وكذلك جهويا .

### الموامش :

- (1) – " في النهضة والتراكم" ص : 99 / دار توبقال للنشر – البيضاء 1986 .
- (2) – المرجع نفسه ، ص : 100.
- (3) – المرجع نفسه ، ص : 106.
- (4) – "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي" / محمد بن الحسن الحجوي / مكتبة دار التراث – القاهرة ( نون تاريخ ) : ج 4 / 379 - 378 - 377
- (5) – المصدر نفسه : ج 4 / 385 - 384
- (6) – المصدر نفسه : ج 4 / 387.
- (7) – المصدر نفسه : ج 4 / 388.
- (8) – المصدر نفسه : ج 1 / 14.
- (9) – "مختصر العروة الوثقى" / الحجوي / مطبعة الثقافة – سلا / 1357هـ – / 1938م /

- (10) - المصدر نفسه : ص 16.
- (11) - " بين ظلال الأصالة " / قدور الورطاسي الحسني / مطبعة الأمنية - الرباط / 1409هـ - 1989م / ص : 67.
- (12) - المرجع نفسه : 66.
- (13) - المرجع نفسه : 86.
- (14) - "الفكر السامي" : ج 4 / 199.
- (15) - "في النهضة والتراكم" : ص 119.
- (16) - "معالم من تاريخ وجدة" / قدور الورطاسي / مطبعة الرسالة - الرباط / 1392هـ - 1972م ، ص 65.
- (17) - "معالم من تاريخ وجدة" / الورطاسي : ص 68 - 67 - 66 وأنظر : تاريخ وجدة وأنكاد" / إسماعيلي عبدالحميد العلوي / 1408هـ - 1988م ، ج 2 ، ص 23-24 .
- (18) - " تاريخ وجدة وأنكاد " / إسماعيلي عبدالحميد العلوي ، ص : 25.
- (19) - " ترجمة المجاهد سيدي المصطفى المشرفي " / قدور الورطاسي : رسالة مرقونة في بضع وعشرين صفحة في خزانة خاصة .

## انعكاس المقاومة في الشعر المغربي

- المقاومة في الشعر المغربي الحديث
- الشعر المغربي والمقاومة إبان الحماية
- المقاومة في الشعر الملحون

## المقاومة في الشعر المغربي الحديث

• إبراهيم السولامي

وجدت نفسي في حيرة وأنا أسهم في هذه الندوة بموضوع أدبي ، لأن موقع الأديب في ندوة عصبها الحي هو التاريخ بكل مميزات التاريخ من حقائق وأحداث وأسماء رجال وتحولات اقتصادية واجتماعية وحروب، هو موقع يبعث على التساؤل ، أين يقع سجع الحمام من قرقرعات الحديد ؟ وأين سيوضع الخيال المجنح من الوثائق المدروسة والعهود والمواثيق المدموغة بحجة العقل البارد والمنطق المحسوب ؟.

لكننا ، نحن الأديباء المولعون بالبحث عن منافذ النجاة، والجري وراء الأساليب المنقذة بالتستر وراء المنهج تارة ، وطبيعة المناسبة تارة ، ونوعية الجمهور المنتبغ تارة، نحن الأديباء إذن لا نعدم التتقيب عن مسالك الخلاص التي تؤدي هدفها بطرق الموضوع المطلوب وتعميقه بالأسئلة المتشابكة المثيرة للجدل وفتح الآفاق . وإني أعتبر هذا العرض حول انعكاس المقاومة المغربية على الأدب

والشعر منه بخاصة ، محاولة لإثارة جملة من الملاحظات المستخلصة بعد طول مران وتدبر في موضوع كنت اتخذته لبحث جامعي قدمته بجامعة الجزائر منذ أكثر من عشرين سنة . ولن يكون هذا العرض مرتكزا على خصائص فن الأدب إلا في عموميتها لأن مكان حديث أدبي محض هو البحث المكتوب للمختصين لذلك فلن أثير " فنيات " الأدب إن صح التعبير ، وسأكتفي بالوقوف عند ملاحظات رئيسية أملا في أن تكمل الصورة المستقاة من عروض زملائي أساتذة التاريخ . وهي تكملة لا تعني مطلقا دونية الأدب في المقاومة والحفاظ على كيان الأمة أرضا وحضارة وإنسانا . ولعل أول سؤال يستدعي الاستجابة والتحديد هو : ما الذي نقصده بالمقاومة في الكتابات الأدبية ؟ أكانت هذه الكتابات نثرا أم كانت شعرا وهو ما نرومه في هذا العرض ؟ .

المقاومة في الكتابات الأدبية ذات معنى شاسع ، ومظاهر متعددة، وإن كانت في جوهرها تتفق في الدفاع عن أسس الأمة بغية صيانتها من الانحلال والتشتت وذلك بالتأكيد على الوحدة السياسية ، والخصوصية الثقافية ، والتميز اللغوي والتاريخ الحضاري . لذلك صاحبت الكتابة الأدبية تاريخ المغرب الحديث منذ بداية القرن إلى يومنا هذا حيث تتخذ المقاومة الأدبية صورة المنافع عن الوحدة الترابية في الجنوب والشمال .

وبديهي أننا لو أردنا الوقوف عند كل الكتابات الأدبية عن المقاومة المغربية منذ بداية القرن حتى الآن لطلال بنا الحديث . وإن كان تراكم الكتابات وكثرتها لا تعني أنها جميعا ذات قيمة أدبية راقية .

وكما نكرت في مستهل هذا العرض فسأقتصر على ملامح هذه الكتابات والشعرية منها خاصة عسى أن يعمق النقاش ما بها من ثغرات . أول ملامح هذه الكتابات الأدبية عن المقاومة المغربية أنها غزيرة في النثر وفي الشعر جميعا . فهي مئات المقالات والخطب ، وهي عشرات القصص والروايات خاصة في ما كتب عن المقاومة بعد استقلال المغرب .

والخصوبة نفسها نجدها في الأشعار وقد تمثلت في القصائد والمسرحيات والأناشيد، بل إن الشاعر محمد بنشقرن كتب قصيدة طويلة عن حركة تحرير البطل عبد الكريم الخطابي سماها ملحمة، وإن لم تتوفر على شروط الملاحم كما عرفت عند اليونان والرومان أقصد الإلياذة والأوديسة لهوميروس ، والإلياذة لفرجيل ... وفي كتابي " الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية " توجد هذه القصيدة ضمن الملاحق.

الملح الثاني هو أن هذه الكتابات صورت المقاومة في مراحلها المتنوعة ، إذ قاومت عن طريق الدعوة الإصلاحية السلفية الداعية للحفاظ على كيان الأمة المتمثل في لغتها ودينها ، وأخلاقها ووحدتها العائلية ، وفي انفتاحها على التعليم المتطور والأخذ بأسباب الحضارة العلمية الغازية دون النوبان التام فيها وتضييع الهوية الوطنية .

كما قاومت عن طريق تصوير الأحداث الوطنية كقضية بوفكران والظهير البربري ومظاهرات البيضاء وفاس والرباط ، وزيارة المغفور له محمد الخامس لطنجة ، وانتفاضة آيت عطة في بوكافر، وانتفاضة آيت باعمران الخ... ولكنها تجاوزت هذا النوع من المقاومة إلى تصوير الثورات التحريرية الكبرى وهي : حركة أحمد الهيبة، وحركة حمو الزياتي ، وحركة محمد عبد الكريم الخطابي ، وحركة جيش التحرير التي قادت إلى استقلال المغرب. بل إن الأديباء اهتبلوا كل المناسبات للمقاومة حتى التي تبدو بعيدة عن الصراع مع الأجنبي، مثل أعياد المولد فقد كان الشعراء يستحضرون سيرة الرسول عليه السلام ، وكفاحه من أجل تأسيس الدولة ونصرة الدين ليخلصوا إلى واقع الوطن وما يغوص فيه من تخلف بعيدا عن أيام الإسلام الزاهرة وبعيدا عن القولة الماثورة : ليس للكافرين على المؤمنين سبيلا.



وقد يفرع الشعراء إلى الطبيعة فيصورون الليل الشبيه بليل الوطن ويبشرون بالصباح الذي لن يغيب وإن طال الأمد ، ملمحين للحرية المنشودة . هذه الأشعار الرمزية تكثر حين يدلهم الواقع ويسود القمع والتكيل بالأحرار .

الملح الثالث هو أن أصحاب هذه الكتابات لم يكونوا رسامين للأحداث دائما، فكثير منهم كانوا مناضلين سجنوا وعذبوا ونفوا ، ومنهم من استشهد في سجنه كالشاعر محمد القري عام 1937 ، وهؤلاء كثيرون منهم : عبد القادر حسن وعلال الفاسي والمختار السوسي ، ومحمد الحلوي ، ومحمد الوبيع الأسفي الخ ...

والملاح الرابع هو أن الكتابات الأبية محور المقاومة لا تكتمل إلا بالإطلاع عليها لا في الفصحى وحدها ، بل في الأمازيغية والريفية وكذلك في اللغة الوسطى وأقصد بها لغة الملحون . وقد بدأت إمطة اللثام عن كتابات أبية أمازيغية في الأغاني والمقطوعات الشعرية التي نقلت إلى اللغة العربية من قبل أساتذة دارسين في الجامعات وخارج الجامعات إذ قدمت رسائل جامعية وأطروحات عن المقاومة في الصحراء المغربية من قبل الأستانين أحمد مفدي ومحمد الظريف وقدمت رسالة عن المناضل الشاعر الطيب العلوي لمحمد المنصوري وأطروحة عن الجهاد في الشعر المغربي للأستاذ عبد الحق المريني عضو التشريرات الملكية

الملح الخامس هو أن هذه الكتابات عن المقاومة المغربية كانت أحيانا بأقلام غير مغربية، فقد ناصر المقاومة المغربية واستلم حركتها المجيدة أدباء من المشرق منهم : علي محمود طه ، وأبو شادي من مصر ، وإبراهيم طوقان من فلسطين ، ومعروف الرصافي من العراق . وقد كان نشيد إبراهيم طوقان الفلسطيني عن حرب الريف شائعا في الأربعينيات وبعدها ومطلعه :

والتحام السيوف  
والمنايا تطوف  
فيه أركى السلام  
الأمير الهمام

في ثنايا العجاج  
بينما الجوداج  
يتهادى نسيم  
نحو عبد الكريم

نحن فيه أسود

ريفنا كالعرين

ريفنا نحميه

ولئن كانت هذه الملامح تبرز خصوصية الكتابات الأدبية والشعرية عن المقاومة المغربية ، كما تجلي شساعة الموضوع وغناه ، وهو ما يشكل عائقا هاما في رسم صورة واقعية ، فإن عوائق أخرى تتبثق من خصوصية الأدب نفسه يمكن أن تحدد أهم سماتها في ما يلي :

أولا : الحديث عن المقاومة تاريخيا مثير لأنه قصص واقعية نابضة تلذ للأسماع فهي تستهويننا بما فيها من بطولات وأمجاد وإعزاز يدفع إلى الأمل في المستقبل أما الحديث عن المقاومة أدبيا فنو طبيعة خاصة لأنه تصوير إيداعي يجمع بين الحقيقي والمتخيل من ناحية وبين الواقعي الثابت والجمالي المنمق الممتع . فالكتابات الأدبية تفتح الكائن والمحتمل وتتسج الآفاق والنتائج كما تراها وتحس بها وإن لم تكن موافقة للحقائق التاريخية. ولذلك طرح السؤال الهام منذ بداية المقاومة ضد الأجنبي الذي بسط نفوذه على المغرب مثل عيد من الدول العربية: هل يمكن أن تضم الكتابات الأدبية إلى التوثيق العام ، أم أن روحه الإنسانية وجمعها بين الواقع والمحتمل يحيلها إلى احتمالات لا تخرج عن الرعشات الوجدانية الدائرة في إطار الفن المؤثر تأثيره الخاص بعيدا عن الدقة والمنطق الهاديء؟.

ولعلكم تلاحظون في يسر شديد أنني تعمدت الاستغناء عن النصوص الشعرية التي رسمت لنا روائع التضحيات وأنات المعاناة في السجون السحيقة والمنافي النائية، إما في صحراء المغرب أو في الأطلس القاسي ببرونته وشظف العيش فيه ، وإما في مجاهل إفريقيا كأشعار علال الفاسي في الكابون ، وأشعار عبد القادر حسن والوديع الأسفي والمختار السوسي ، وإيريس العلمي ومحمد الحلوي، وسواهم كثير ، في المنافي والسجون. تعمدت الاستغناء عن النصوص لأن قراءتها تحتاج إلى وقت لخلق مناخ الفترة التي كتبت فيها بما تحمله من زخم

وطني دافق وعناية بالهدف النبيل الذي كتبت من أجله معتبرة التتميق والبحث عن الجدة بحاجة إلى حرية تسعف في الالتفات إلى المذاهب الجديدة في فهم الشعر وتطويره ، وهو غاية لم تكن الظروف الثقافية ظروفًا ملائمة لطرحها كما كانت الظروف في المشرق. لكن هذه الحقيقة لا تمنعنا من إيداء الملاحظات التالية على ما وصلنا من شعر مغربي مقاوم في القرن العشرين .

أول هذه الملاحظات أن الشعر الذي صور الحركات التحررية الكبرى حركة حمو الزياتي ، وحركة عبد الكريم الخطابي ، وحركة أحمد الهيبة ، اختلف في أهميته من حركة لأخرى ، فحركة الزياتي وحركة الخطابي لم تتوفر إلا على نزر قليل من الأشعار، بل إن ما كتب من شعر مشرقى عن حركة الخطابي هو أهم ما قيل في هذه الحركة الكبيرة من الشعر. لكن حركة أحمد الهيبة ، على العكس ، فقد قبض الله لهذه الحركة شاعرا سوسيا كبيرا هو الطاهر الإفرائي آمن بحركة الهيبة وبصاحبها الفارس الشاعر فأمل فيها تخليص المغرب من الأجنبي لذلك انضم للحركة وصاحبها في كل المعارك ، حتى إذا رجعت إلى تلرودانت دون أن تحقق أهدافها عاد معها، وقد صور كل مراحل هذه الحركة في آمالها ونضالها وفي خيبتها ومرارتها .

إن شعر الإفرائي في حركة الهيبة وإسهامه فيها من البدء إلى النهاية يذكرنا بصحبة المتبّي لسيف الدولة وهو يحارب الروم دفاعا عن الأمة الإسلامية ومناعتها في وقت تألبت عليها فيه مطامع الأجنبي وكيد الخونة في داخل الأمة كما هو حال المغرب أيام الهيبة . والفضل في الإبقاء على شعر الإفرائي في حركة الهيبة بأثمه يعود إلى العلامة محمد المختار السوسي في كتابه الموسوعي "المعسول". وشعر الإفرائي في حركة الهيبة الذي كان هو الآخر شاعرا ومن عائلة زاخرة بالشعراء يفصح عن توجهات هذه الحركة التي كانت تمد بمطامحها لتجاوز تحرير المغرب إلى تحرير العالم العربي والإسلامي وإحياء مجده الأثيل.

وقد حاول بعض شعراء المغرب في عهد الاستقلال أن يستلهموا الفترة التي رزح فيها المغرب تحت نير الأجنبي فكتبوا قصائد عن فدائية علال بن عبد الله ورفاقه الشهداء مثلما فعل الشاعر إدريس العلمي، أو أبو بكر اللمتوني عن ابن عرفة الذي ولاه الاستعمار ملكا فرفضه الشعب وسعى إلى اغتياله مثل باقي الخونة فقد كتب اللمتوني مسرحية شعرية عنوانها " بقيت وحدي " عن ابن عرفة الذي بقي وحده ومات وحده بعيدا عن وطن خانه فلفظه. لكن كتاب الرواية كانوا أحسن حظا فقد أبدعوا مثل عبد الكريم غلاب في " دفنا الماضي " و" لمعلم علي " وأحمد زياد في " بامو " عن البطل محمد الحنصالي ... وغيرهما مما يخرج عن نطاق موضوعنا المحصور في إطار الشعر.

ولا ننسى أن الشعراء المغاربة المقاومين واجهوا المستعمرين ومن كان في ركابهم من المماليك الذين كان فيهم الشعراء الضالعون في مدح المستعمر والإشادة بما قام به .

من هذه الصورة التي حاولنا تحديد ملامحها العامة ، ندرك أن الشعر المقلوم الملتزم لم يتخل عن رفع صوته رغم تدني الصحافة وإمكانياتها ، ورغم الأمية المتفشية، ورغم الرقابة المفروضة بصرامة على ما يكتب إلى الناس طمسا للحقيقة وإيعادا لتعميق الوعي وشحن الروح المتوثبة للحرية.

لكن المعروف بداهة في الدراسات الفنية عموما أن الموضوع النبيل كمقاومة الأجنبي لا يخلق بالضرورة فنا رفيعا . والشعر المغربي المقاوم لم يسلم من هذه الحقيقة فقد كان بعضه مباشرا ربما أثار المشاعر في زمانه ولكنه اليوم لا يثير في أنفسنا الشعور القديم لابتعادنا عن العصر الذي قيل فيه بل إن الشعر الوطني كله كالشعر الذي نتحدث عنه الآن ، أو الشعر الفلسطيني اليوم، يضع أمامنا سؤالا رئيسيا هو :

هل هو شعر خالد أو هو تعبير وجداني جماعي سينتهي بانتهاه القضية

التي أنشأته؟

الجواب بسيط هو أن الشعر خلوده لا يكمن في موضوعه وإنما في فنية التعبير وعمق الإحساس والموهبة الفذة، وهي خصائص تحبل بها أشعار وتفتقدها أشعار في زماننا وفي كل زمان. ومثلما تحتفظ أشعار المقاومة ببريقها وتأثيرها أحياناً وإن كانت عن حدث بعينه فإن بعضها يظل مؤثراً لأنه يتجاوز الحدث الواحد إلى غناء حب الوطن عند كل إنسان ، مثل قول علال الفاسي :

لذة العيش حياة الوطن	وفداه من صروف الزمن
هو بغياي التي أطلبها	وهو لي كل فخار أبتني
أنا لو لم أكن من أبنائه	كنت أهوى أن أراه سكني
أنا لم أخلق لنفسي إنما	أنا مخلوق لأجل الوطن
فإذا مت عليه فأنا	مطمئن لرضاه المثلثمن
فاغسلوا بالماء منه بدني	واجعلوا نسج بنيه كفني
واقفوني في ثراه وضعوا	فوق قبري منه زهر السوسن
واكتبوا فوق ضريحي بدمي	ها هنا قبر شهيد الوطن

أشعار المقاومة إذن كانت كتابات ملتزمة بقضية أساسية هي التحرير من نير الاستعمار. وهي كتابات تضاف إلى أشكال المقاومة الفعلية لتحقيق الهدف. لكن أثر هذه الكتابات في أبناء الأمة لم يكن إلا واجهة من الكفاح، ربما لم يبلغ ما بلغه تأثير المنشورات والأغاني والعمل السياسي في الخلايا والجمعيات والمنظمات. لكن المقاومة المغربية في مجالها التاريخي ظلت معينة لا ينضب للمبدعين والدارسين بعد الاستقلال لأن روايات ومسرحيات شعرية ونثرية استلهمت شخصيات وأحداث المقاومة المغربية في كتاباتها النثرية والشعرية كما ذكرنا سابقاً وستظل المقاومة ملهمة اللاحقين من شعراء المغرب لأنها صفحات وضاعة من التضحية والفداء ونكران الذات ، ولأنها الثمن النفيس الذي قدمه الآباء لنعيش في أمة حرة لا تسلم مصيرها إلا لأبنائها الشعاعين بالمسؤولية وعبء الرسالة النبيلة

## الشعر المغربي والمقاومة إبان الحماية التعبير والموضوع

العربي الحمداوي\*

لقد كان القول الشعري عند المغاربة يدخل في إطار تحقيق الذات العلمية للعالم ، أو وجها من وجوها المتعددة ، لذلك لم يكن هما معرفيا من الهموم اليومية التي تشغل الذاكرة المعرفية لصاحبه ، ومن هنا لم يكن قائل الشعر يخرج عن نسق القصيدة العربية القديمة المتمثل في عمود الشعر شكلا وأغراضا ، وبذلك كان يعتبر حسن المحاكاة مقصده ، والبراءة في التقليد دينه . وتأتي الحماية الاستعمارية على المغرب ، وتشعر الذات المعرفية أن ذلك الدخيل يهدد كيانها حاضرا ومستقبلا ، وتحدث الرجة والذهول والاستغراب ، وتتفجر الوجدانات من أجل محاولة استيعاب ما حصل وتدارك ما ضاع ، ولم تجد أمامها إلا واقعا جديدا يفتقد فيه الأمن والأمان ، وتبدأ في محاسبة الخطوات وامتلاك السبيل للخروج من هذا المأزق الجديد الذي تخطى بثقله كل المآزق السابقة مثل

\* أستاذ باحث بكلية الآداب / المحمدية .

ضياح الأندلس وانعكاس ذلك على النفسية المغربية واحتلال الثغور التي حررت بفضل يقظة المغاربة ومقاومتهم ، ولكن هذه المرة ، لا مجال للتأسي ، ولا موقع للانكماش و الانتظارية، إذ أن الأمة مهددة من الداخل بتمزيق الأوصال ، وتفتيت الكيان، وضياح الهوية. هذا على صعيد الذات من الداخل ، أما في محيط العروبة فقد بدأت الهوية الوطنية تجدد ثقافتها المعرفي عبر ما يغلى به الشرق العربي بعد استقلال أقطاره ، أو استعداد بعضها للاستقلال من الاحتلال التركي والفرنسي والانجليزي . وأخذت معالم النهضة الجديدة تترى مع بروز الفكر السلفي التتويري الذي سوف تمتد إشعاعاته إلى المغرب من خلال أبي شعيب الدكالي ومحمد بن العربي العلوي وعلال الفاسي وعبد الله كنون ... وكان هذا الاتجاه التتويري بما يتميز به من تسامح وعقلانية وفهم عميق لمشكلات العصر أمام تقدم الغرب ومكتسباته التكنولوجية وتخلف بلاد الإسلام ، أثر في إثارة أسئلة معرفية وحضارية سوف تحث الناس على مجابهة الاستعمار ومقاومة آثاره . وكانت القصيدة المغربية فضاء لاستجابة أصحابها لعكس هذا الواقع الجديد ، والدعوة في رؤية شعرية إلى جعل هذا الجنس الأبي سلاحا في خدمة القضية الوطنية . وهكذا يلاحظ أن الشعر المغربي لحقبة الحماية قد خضع في شكله لنظرية عمود الشعر حيث لم يتجاوز أنساقها الموسيقية والدالية ولكنه صبغها بصبغة الحقبة من خلال قيمة الخطابة التي تستحوذ على جل القول فيه ، ولكن شروطا آنية اقتضت هيمنة هذه الخطابة في نسيج القصيدة لعل لها اتصالا وثيقا بمقصدية الشاعر التي تدعو إلى التحريض والانتفاض . فلكي يقع الأثر الفني موقعا حسنا في وجدان المتلقي كان لابد من هيمنة الخطابة الإقناعية القائم أسلوبها على استعمال الجملة الإنشائية بمختلف أنواعها الاستفهامية والأمرية و الندائية والنهيية. دون أن ننسى حضور غنائية مفجرة لقيم تاريخية وحضارية عاشها المغاربة في ارتباط مع الأرض في مفهومها الجغرافي وبعدها الحضاري في نسيج

القصيدة ، مما جعل النشيد يبرز بكثافة في التعبير الشعري غناء جماعيا يدعو فيه الشاعر إلى المحافظة على الهوية والتغني بأمجادها. حتى ترتبط بالوجدان أشد ما يكون الارتباط - وبطبيعة الحال - في أسلوب شفاف في وحداته المعجمية وفي إسناداته اللغوية، وفي إيقاعه العروضي الخفيف. وكان الشعراء يتسابقون في هذا القول الشعري حتى يلبوا لهفة المتلقي إلى هذا النوع من الإنشاء الغنائي . وأخذ الشاعر يتقن في أساليبه الإقناعية التحريفية في القصيدة من مقابلته الحاضر الاستعماري البئيس بالماضي المجيد الذي كانت فيه الصولة والغلبة للأجداد بجدهم واجتهادهم وفهمهم لشروط امتلاك القوة والمناعة في زمانهم مثلما يشير إلى ذلك الشاعر محمد المختار السوسي إذ يقول :

حتى متى شعبي يعبد الجهل      كان لم يكن قطب السيادة من قبل

كان لم يكن مديرا لتلكم      المماليك يحضى ما يشاء ويحتل

كان لم يكن بين الشعوب محكما      إذا قال يحنى الرأس من رأسه يعلو(1)

نلاحظ أن محمدا المختار السوسي يعمل على بسط الواقع في مرارته وسلبيته بعدما نكر بالماضي الذي تحققت فيه شروط التحكم والقوة ليجعل المتلقي يعيش في وجدانه بين لحظتين في ثنائية تلازمية متضادة تجعل الشعور بالذنب والخروج منه لا يتحقق إلا بنفي أسبابه وأسبابه يتحقق نفيها بالمقاومة التي تتعدد أشكالها كموضوع مهيم في القصيدة المغربية إبان الحماية ، وهكذا يهيء الشاعر المتلقي للخروج من هذا الزمن السلبي بزمن إيجابي قائم في أساسه على الحركة والتمرد والصمود حيث يقول :

رويدك أيها الدهر الخؤون      فأنا من يموت ولا يخون

لنا عزم رصين هل يبالي      بريح قاصف طود رصين

فكذ ما تشاء فسوف يأتي      إليك غدا بنا الخير اليقين (2)

فالمقاومة والصمود هما المخرجان الأساسان من ثقل الزمن السلبي ومن أساليب التعبير الإقناعية التحريفية كذلك التعريض باليهود الذين كانوا في الذاكرة الشعبية



يتصفون بالجبن والخنوع. وإذا كان حالهم هذا وبنوا وطننا لهم باحتلالهم أرض فلسطين وإقامتهم عليها وطننا فكيف بالمغاربة يخسرون وطنهم باحتلاله يقول عبدالسلام البقالي :

وطني يأكل مالي في الوجود      مجدنا الضائع أنى سيعود ؟  
كل قوم أرجعوا عزتهم      وبنوا أوطانهم حتى اليهود(3)

كل هذه الأساليب التعبيرية التحريضية تدخل في اعتبارها المتلقي الذي تعمل القصيدة على جعله يرتقي إلى مستوى المقاومة لهذه اللحظات السلبية من تاريخنا المعاصر ، ويمكن القول - من خلال تتبعنا للقصيدة المغربية إبان الحماية - إن المقاومة تهيمن في كثير من صورها على نسيجها المدلولي في تقاطعها مع مواضيع الوطن والأرض والحرية . فهي تكاد تمثل نسيجا موضوعاتيا متلاحما وحاضرا بكثافة في جميع الأغراض الشعرية : في الرثاء الذي كان ينصب على رجالات المغرب وقادته الوطنيين حيث أنها تطفئ على نكر محامد المرثي الذاتية ، فكل محامده مرتبطة بما قام وضحي وأنجز للوطن ومن أجل الأمة وعليه فإن قيم المدح التقليدية لم يعد نمونها هو المهيمن ، وفي الغزل نجد المعشوقة هي الأرض بما لها من تاريخ ، وبما يتهددها من ضياع ، وعلى مستوى شكل القصيدة نجد تلك المقدمات الطللية التي كانت من قوالب القصيدة التقليدية قد انمحت لأن الوقت ليس وقت نكر الأتعاب التي يلاقيها العاشق أو المادح في الطريق إلى المعشوقة أو الممدوح ووصف الصحراء ووحوشها وكتبانها ومنعرجاتها ، وإنما نجد القصيدة تدخل مباشرة وفي جميع الأغراض - تقريبا - إلى الموضوع المقصود. ولعل هذا ما جعل للقصيدة المغربية أن تستشرف الأزمنة التحديثية، وتتخلل قيمها الجمالية التقليدية المتوقعة في المحاكاة والتقليد. فهي بدأت تتأثر بالواقع وبراهنية الأسئلة الحضارية والثقافية مما جعل لها الانبثاق والحضور الإيجابي في الذاكرة المغربية لهذه الحقبة .

ويتلون موضوع المقاومة ، من مقاومة الجهل وأسباب التخلف والدعوة إلى التعلم إلى مقاومة الشعوذة ومحاربة أصحابها إلى المقاومة المسلحة المباشرة لإلزام الاستعمار بمغادرة البلاد وتحقيق السيادة الوطنية وتثبيت المقدسات الشرعية وهكذا نجد الشاعر محمد ابن إبراهيم وهو المشهور بعبثيته في الحياة يستيقظ ضميره ويقرن شعبه المتخلف بشعوب متقدمة ويعتبر أن الخلاص يكمن في التعلم ومحاربة الجهل إذ يقول :

لكنه هم به القلب مفعم	اكتم ما بي لو يدوم التكتم
قد استيقظت طراً وأنتم نوم	بني وطني أن الشعوب وأهلها
سماعا شكواه وأمله انتم	هو الوطن المحبوب يرجو من أهله
وهذا زمان أن فيه التعلم	مضى زمن الجهل النميم زمانه
وفيهام مع الحيتان عاموا وعموا	فبالعلم شادوا في البحار مساكننا
وقد اسرجوا متن الرياح وألجموا	وبالعلم سارت في السماء ركابهم
بجد فإن لم تطلبوا العلم تتدموا(4)	أتاكم زمان يطلب العلم منكم

نلاحظ أن شاعر الحمراء يدعو إلى ارتياد مجاهل العلم والتعلق به لأنه هو السبيل الوحيد لاكتساب المناعة أمام شعوب هيمنت بفكرها العلمي على مفاتيح التقدم والحضارة. ونجد شاعرا آخر يتساءل تساؤلا إنكاريا عما حدا بقومه إلى أن لا ينهضوا والناس كلهم بالعلم قد تقدموا، وهي دعوة إلى مقاومة الجهل والشعوذة والتخلف ، وفي الصورة وصف لما كان عليه حال المغاربة من الوجهة الفكرية وما كانت عليه نفسيتهم من إيثار التواكلية وإبعاد العقل في التفكير ، والقناعة بما هو في عرفهم حقيقة لا مجال لتغييرها يقول عبد الكريم سكيرج :

والناس كلهم بالعلم قد عملوا	ما بال قومي لم ينهض بهم عمل
تحصيلها وهم عن نفعها غفلوا	تقاعدوا عن فنون نال غيرهم
كم سبحة وهم بسردها اشتغلوا	لكن رأيتهم وفي نحورهم
وذا بزواوية أخرى له حول	هذا له خلوة وذا بجلوته

ما في الزوايا خبايا بينهم وجدت  
تكاثرت في نواحي القطر وانتشرت  
من كل ضامن أسرار لتابعه  
لا، لا أوضح ما سنوا وما افترضوا  
فليتهم شيذوا مدارساً بدلا  
فالعلم أجمل وصف الشخص في زمن

بل في الزوايا رزايا عند من غفلوا  
على اختلاف شيوخ عندهم وصلوا  
وكل فتح وأنوار لها انتحلوا  
من بعدما اتضحت بالمصطفى السبل  
من الزوايا وقالوا علموا وسلوا  
به تبصر نون قومي السدول (5)

هذه صورة لما كانت عليه الحياة الفكرية في لحظة حاسمة من تاريخنا المعاصر وهي تدعو إلى الإشفاق والتأمل أمام هول الاستعمار ونتائجه. وفي هذه الصورة صورة للمقاومة في حساب الذات مع ذاتها وفي حساب الذات مع الآخرين الذين يهدوننا بأسلحة زمانهم المرتكزة على العلم والعقلانية والتكنولوجيا الحديثة ومن مقاومة التخلف بمقاومة الجهل وإحلال العلم مكانه ومقاومة الشعوذة بإحلال العقلنة مكانها إلى المقاومة المسلحة المباشرة للاستعمار وفي هذا الصدد يقول الأستاذ الشاعر المرحوم عبد الله كنون إثر حوارات الدار البيضاء في 8 أبريل 1947. وما أكثر الحوارات التي كان للشعر فيها حضور وجداني ولغوي متميز وثق بطريقته الغنائية لها :

أما في حادث البيضاء وعظ  
أما في حادث البيضاء زجر  
ألم يبلغ صدهاء كل أرض  
ألم تنظر فظائعه الجوالى  
ترى الأم الحنون على صواب  
كان عبيدها لم تجن شيئا  
ولم تبقر بطونا من نساء  
ولا جاءت بتمثيل فظيع  
مئات من ضعاف الخلق يجنى

لمن يرجو من الأغراب رفدا  
لداعية لهم ما شام رشدا  
فمن منهم تعطف أو تتدى  
فما صنت عن الإجرام صدا  
كان جيوشها لهم تلت إذا  
ولم تحصد نفوس العزل حصدا  
حوامل ثم تقتل بعد ولدا  
تنوب له النفوس أسى ووجدا  
عليهم نون ما ننب ويعدى (6)

إذا كان الأمر إذن بهذه البشاعة في حوارات الدار البيضاء ، وكانت  
الذاكرة الشعرية أرخت له بهذه الصور الاستفهامية مستتكرة محرضة مدينة فما  
على المتلقي إلا أن يحدث رد فعله، لذلك سوف نجد الشاعر في المقطع الآتي  
وفي نبرة خطابية قائمة على استعمال جملة الأمر يستنهض قومه  
للمقاومة المسلحة :

بني قومي أفيقوا من سبات  
وهذا خصمكم يرمي لأمر  
عليكم باتحاد في كفاح  
وإن الله ناصركم عليه  
فإن الحادثات تجد جدا  
فلا يأخذكم فردا فردا  
لمن لكم بقوته تحدى  
فشدوا يا بني الأحرار شدا (7)

يتبدى - كما هو الحال في الأزمات التي تعترض الأمم أن نوي الفكر فيها  
يستنهضون الضمائر اعتمادا على ثوابت معينة كالدعوة إلى الوحدة والتكافل  
وتكاثف الجهود. على أن هذه الوحدة يدعمها الإحساس بالصمود البشري في  
المغرب المقترن بالصمود في بعض الفضاءات الجغرافية أمام عوادي الزمن  
ونوائبه ويدعمها تلاحم الأجناس المكونة لنسيج الشعب المغربي على الرغم من  
اختلاف العنصر وتباين اللهجات ، وبذلك تصل الوحدة الوطنية إلى أقصى  
درجات تلاحمها من أجل الدفاع عن الهوية والحفاظ على الوطن . يقول الشاعر  
أحمد عبد السلام البقالي :

على قمم الريف والأطلس  
سأرفع منتصرا قبسي  
أنا بربري أنا عربي  
صهرت من التبر والذهب  
وأرض المغاربة الخالدين  
فإني أنا شبل ذاك العرين  
وأنا دلسي أنا مغربي  
ومن خير أم من خير أب (8)

إذا كان الأمر كذلك في الصمود والمقاومة وانصهار الأجناس ، فما على  
المرء إلا أن يلبي داعي الوطن وهكذا يتغنى المرحوم علال الفاسي بالوطن  
ويجعله البؤرة المستوعبة لكل أشكال الفعل والتضحية يقول الشاعر علال الفاسي:

لبيك يا وطني بكل جوارحي  
لا السجن يحبسني عليك ولا الأذى  
فكفى بصوتك في الضمير خطيبا  
يأبى علي سبيك المحبوبا  
جعلت مكانك في الجهاد رحيبا (9)

تبدو العلاقة بين الشاعر والمخاطب علاقة حميمة تواصلية حيث يغدو الوطن هو البؤرة الأساس ، لذلك فإن ما يقود خطى القول الشعري يتمثل في ثنائية: أنا / أنت ، وبذلك كان التعبير عن هذه العلاقة تعبيراً مباشراً لا مجال للمتكلم فيه أن يقولبه في قالب فني يرتفع فيه مستوى الجمالية إلى أقصاه ، وبذلك يبدو الوطن صوتاً حاضراً في الضمير يوجه ويرشد نحو الإيجابي من جلائل الأعمال ولن يكون هذا الإيجابي إلا متمثلاً في المقاومة والدفاع عن الأرض بمختلف السبل . وفي غنائية أخرى بارزة وفورية وجدانية عارمة يدعو مصطفى المعداوي صراحة إلى حمل السلاح ومقاومة الاستعمار بالرشاش يقول :

يا إخوتي فلنحمل السلاح نمضي للجهاد  
ما بيننا إلا أخ يفدى بلاده بالفؤاد ...  
ولنمتطي سفن العزائم نقتفي أثر المنادي  
ولنسكن الجبل العتيد ونرتمي بين النجاد  
بسلاحنا بالعزم نقضم حصنهم حصن الأعداي  
إنا أعدنا مجننا يا ويل أعداء البلاد (10)

تتبدى الدعوة إلى المقاومة من خلال توجه الأنا إلى الإخوة المتلقين المباشرين عبر المنادي واستعمال فعل المضارع المقرون بلام الأمر المتكررة ويبرز ضغط هذه الدعوة من خلال تقديم القربان الوجداني الداخلي من أجل أن تستعيد الذات تحريرها وهويتها . وجزاؤها في ذلك جزاء المجاهد الذي يجعل لحظة المجد الغائبة تستعاد لتتفي لحظة النل الحاضرة . هكذا إن كانت القصيدة المغربية حارة صادقة في معانيها وفي جعل الذات واللغة والعالم الخارجي تتلاحم تلاحماً جديداً ، خالقة بذلك تعالقات يميز التوتر والغنائية والخطابة . مما جعل

لآليات التخيل أن تبقى مرتبطة بالمحسوس والمباشر ، متعلقة بالدفاع وتوتر الوجدان ، وتبثير القول الشعري حول قلق الحقبة الجماعية الناتج عن اليأس المتفجر في حنايا الذات الجماعية . المنبثق عن آثار الصدمة الحضارية الجديدة التي رهنت مناطق التفكير المغربي لزمان ليس يسيرا . فكانت بحق بداية تعبيد الطريق نحو تحديث الإبداع المغربي في إحدى مناطقه : القصيدة.

### الموامش :

- (1) - محمد المختار السوسي نقلا عن محمد بن العباس القباج ، الأدب العربي في المغرب الأقصى ، الجزء الثاني طبعة وزارة الشؤون الثقافية - المغرب . 1979 ، ص : 64.
- (2) - محمد المختار السوسي ، دراسة لشخصيته وشعره ، محمد خليل ، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر ، الدار البيضاء 1985 ، ص : 307.
- (3) - أحمد عبد السلام البقالي ، أيامنا الخضراء ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1976 ، ص 35.
- (4) - محمد بن إبراهيم نقلا عن ، الخلاصة أحمد ، شاعر الحمراء في تاريخ الأدب المعاصر ، الطبعة الأولى 1987 ص : 141.
- (5) - عبد الكريم سكيرج نقلا عن : عبد الله كنون ، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث الطبعة الثالثة ، دار الثقافة ، الدار البيضاء 1981 ، ص : 152.
- (6) - عبد الله كنون ، لوحات شعرية ، تطوان ، 1966 ، ص : 52 - 53.
- (7) - نفسه ، ص : 53.
- (8) - أحمد عبد السلام البقالي ، أيامنا الخضراء ص : 38.
- (9) - علاء الفاسي ، الديوان "روض الملك" القسم الأول من الجزء الثاني إعداد وتحقيق عبد الرحمن العربي الحريشي ، مطبعة الرسالة ، الرباط 1987 ، ص : 30.
- (10) - مصطفى المعداوي ، الديوان ، أعده وقدم له ، أحمد المجاطي ، محمد أيوب السلاوي محمد إبراهيم الجمل دار الكتاب ، البيضاء . بدون تاريخ ، ص : 20.

## المقاومة في الشعر الملحون

عبد الله شقرون \*

يسعدني أن يكون هذا العرض على شكل قصيدة الشعر الملحون ، مجزءا إلى أقسام متتابعة. ولعل الأفضل من أي تحليل ، والأفصح من أي تعليق هو أن نحاول الوقوف عن كثب، على بعض النماذج الشعرية ، مع تحديد ظرفيتها والإشارة إلى بعض مقاصدها.

### القسم الأول :

يقول أحد مشاهير شعراء الملحون في قصيدة حول استنهاض الهمم أنفة ومقاومة وجهادا:

أساهي خذ أخبار • وافهم تعبير القول وليشارا  
نوصيك يا غفيل احتال لامر لاجهاد ولعدا جارو

- حَارَتْنَا لَنَا لَفْكَارٌ • من ذا الأمر غفولنا سكارا  
 وَأَخْنَا غَافِلِينَ وَلَعْدُو مَشْغُولٌ كَيْحَ صِنِّ فَجْدَارُو  
 بِالْجَهْدِ مَعَ الْكِدَارِ • وَأَنْبَى يُسَوِّقُ لِقُلُوبِنَا مُرَارَا  
 وَالْقَوْمِ غَابِطَةً فَالدُّنْيَا هُوَ لِي إِيْمَانٌ بِالْغِصَّةِ حَارُو  
 الرَّومِي مَثَلُ النَّارِ • قَالُوا نَاسَ التَّشْبِيهِ وَالْعَبَارَا ،  
 إِذَا مَا طَفِئَتْهَا فَسَاعَهُ تَزِيدُ ، هَذَا تَحْكَارُو  
 لَيْسَ بِحَالُو غَدَارٌ • طَامَعٌ فَمَدُونُ الْغَرْبِ بِتَمَارَا  
 لَهْلَا يُوْصَلُو ، وَلَا يُؤْفِي لِيهِ ظَنُّنْ ، هُوَ وَأَنْظَارُو

ويصور هذا الشاعر الوعي المأساة التي أصابت السكان المغاربة يوم أن غزا العدو المستعمر مدينتهم وأحوالها، واستولى عليها ظلما واعتداء. ومن خلال الاستماع إلى وصفه يخيل للواحد منا وكأنه يشاهد في التلفزيون مأساة إخواننا وأخوانتنا أهل البوسنا والهرسك المسلمين المقهورين . فقد قال هذا الشاعر الفذ وهو الحاج إدريس الحنش المتوفى شيخا مسنا سنة 1910، في قصيدته هذه المشهورة باسم " التطوانية " ، منكرا فيها باحتلال مدينة تطوان من طرف الاستعمار الإسباني سنة 1860 ومنكرا بما دهمي إذ ذاك قومنا من الهول ، نتيجة الغفلة والإهمال والتفاس:

- خَرَجُوا فَالليلِ إِبْكَارٌ • وَالصَّبِيَانِ أَوْ نِسْوَانِ بِلْجَهَارَا  
 فَالْبَابُ كَيَنُوحُو عَلَى المَدِينَةِ أَوْ كُلِّ جَارٍ فَزَقَّ جَارُو  
 كَمِ مِنْ شِيَابِ إِبْكَارٍ • وَعَايِزُ صَارُو فَالْخَلَا حَيَارِي  
 وَأَشْحَالُ مَنْ مَرِيضٌ يَبْكِي عَنْهَا ، أَشْفَقَ بِالدَّمْعِ أَبْصَارُو  
 يَا حَسْرَةً عَنِ دِيَارٍ • وَأَجْوَامِعُ بَادُوا بَعْدَ لَعْمَارَا  
 وَمَسَايِدُ لِلْقَرَايِ بِالْوَاخِ مَسْطَرِينِ جَاوُ أَوْ أَفْجَارُو



وتأتي بطبيعة الحال ، وكما هو منتظر في قصيدة شعرية من هذه القيمة الأدبية والوطنية المميزة الدعوة ، أولا ، إلى الجهاد والمقاومة وحمل السلاح لتحرير حاضرة الحواضر ، تطوان والدعوة ، ثانيا ، إلى إيقاظ الهمم ، والدعوة ثالثا ، إلى الاستقامة الدينية الصادقة :

مَا يَسْتَنْهَلُ غَرِبْنَا هَذَا الْخَتْلَانَ      مَعَ كَثْرَةِ لَجُنُودِ وَالْمَالِ وَلِئْبَيْنِ  
خَالَفْنَا قَوْلَ بِهِ أَمْرِنَا الدِّيَانَ      وَاعْظَبْنَا فَلْنَهْتُوفِ عَنِ الْأَمْرِ لَمَبِينِ  
اللَّهُ يَجُودُ بِالنَّصْرِ الْعَلَامِ الدِّيَانَ

### القسم الثاني :

وقبل ظهور تلك القصيدة من الشعر الملحون خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، عرف الأدب المغربي الشعبي لونا آخر من ذلك الشعر في الجهاد والمقاومة في منتهى القرن الثامن عشر ، أثناء الحملة الفرنسية التي شنّها نابليون بونابارت على مصر (1799 - 1798)، وكان الشاعر المغربي الكبير محمد بن علي الشريف ولد أرزِين - الذي عاش من سنة 1742 إلى سنة 1822 - قد صاغ قصيدة قيمة في الجهاد والمقاومة واصفا فيها مشاركة جماعة من المجاهدين المغاربة في معركة الغورية ، وكان أفراد تلك الجماعة - ولعلمهم من الحجاج - قد سافروا إلى مصر مجاهدين في سبيل الله إلى جانب إخوانهم المناضلين المصريين ضد تلك الحملة الاستعمارية المبكرة . وقد قال هذا الشاعر في قصيدته :

سُبْحَانَ مَنْ فَرَضَ عَلَيْنَا الْجِهَادَ فَرَضَ وَأَجِيبُ  
وَخَيْرُ كُلِّ مَوْتٍ فِي الْجِهَادِ  
وَكُلُّ خَيْرٍ يُغْنِيكُمْ  
فِي الْمَبْدَأِ وَفِي الْآخِرِ

بِالْجِهَادِ يَتَفَوَّقُ الْإِسْلَامُ عَلَى النَّصَارَى

فَازُوا أَهْلَ الْجِهَادِ فِي مِصْرَ وَأَهْوَانَ كُلِّ صَغْبِ

وتمتاز هذه القصيدة من الشعر الملحون المغربي والمسماة " المصرية " بـ  
 "حربة" ، أي " بلازمة " ، تتردد خلال مقاطعها وتقول :

بَشَارَ الْمَشَارِقُ جَانَا حَتَّى لَلْمَغَارِبِ ،  
 بَشَّرَ الْإِسْلَامَ : مَصْرَ وَلَاتَ لِلْإِسْلَامِ !  
 لِنَا وَلِكِ يَا مَصْرَ  
 واجب البشاره اللي ما كيفها بشاره

وتعتبر قصيدة الشعر الملحون هذه إشادة بالمقاومين المسلمين ، المصريين  
 والمغاربة، الذين تماسكت بينهم لحمة القتال والنضال جنبا إلى جنب منذ نحو قرنين  
 اثنين من الزمن ، وقبل معركة الجولان بسوريا ومعركة سينا بمصر .

### القسم الثالث :

كخلفية تاريخية وأدبية جادة لنضال المغاربة ومقاومتهم للعدوان الاستعماري  
 في القرن العشرين ، تبقى مرة أخرى مع جهاد أجدادنا وصمودهم في القرن التاسع  
 عشر وبالضبط حينما هجمت السفن الحربية الفرنسية على مدينة سلا يوم 26  
 أكتوبر 1851 وقد حدثت تلك المعركة البحرية الأرضية ، وكانت رجة خطيرة  
 بالبلاد ، كما هي مفصلة في بعض المراجع التاريخية. وكان هناك حينئذ شاعر من  
 أبناء سلا اسمه محمد بن لحسن لا نعرف اليوم من إنتاجه إلا القصيدة التي سجل  
 فيها مقاومة المقاومين وجهاد المجاهدين في ذلك اليوم المشهود دفاعا عن استقلال  
 وطنهم وسيادة أهلهم . وإلى الآن يردد السلاويون المولعون بفن الملحون اللازمة  
 المتكررة لتلك القصيدة ، وهي :

أبن حَسُون ، أفَارِس العنَاية ، سلطان سلا  
 أنت وسيدي بن عاشر  
 حاشا والله بلادكم لا دخلوها كُفَار

وهذه القصيدة بليغة في معانيها ، لكنها يسيرة في مبانيها ، وتبدو في مجملها عبارة عن حكاية منظومة حول المقاومة الشديدة التي لقيها الأسطول الفرنسي المعتدي من قبل مجاهدي مدينة سلا في تلك المعركة .  
ويبدأ الشاعر محمد بن لحسن كلامه بالتوجه إلى الله داعياً قائلاً :

يا مَوْلَايَ حَرَمَ النَّبِيِّ وَحَرَمَ أَصْحَابِهِ تَخَمِي الْإِسْلَامَ وَأَهْزِمِ الْكُافِرَ  
غَلَبْنَا يَا رَبِّي عَلَيْهِ وَأَهْزِمَ جَيْشَ الْكُفَرِ

ثم يأخذ في وصف عدوان تلك الأسطول الفرنسي وما قام به من رمي المدينة وأهلها وأحيائها بالقنابل الفتاكة ، من البحر ، وما قاومه به المجاهدون السلاويون ، إلى درجة أنهم ضربوا علمه، وحطموا بعض ألواح في تلك النهار الذي كان ناراً ودماراً ... ومما جاء في تلك الخريذة :

وَالْقَاوَةَ أَهْلَ الْإِيمَانِ بِالْمَدَافِعِ وَالْكُورِ حَتَّى ذَهَبُوا الْكَثْرِيهِ الدَّاسِرِ  
طَاحَ عَلَامُوهُ وَتَشْتَتُوا الْوَاوِحُ مَغْمِي الْأَبْصَارِ  
وَالْكُورُ بَغِيظٌ كَثِيرٌ لَاحُوا  
وَبَنَقِي فَالْدَرْبِ مَنْسِيبِ مَقْنَسُومِ  
وَمَذَافَعُنَا فَرَعُوا السُّوَاوِحُ  
هَذَا شَفَايَتُوا بَيْنَ كُنُوسِ الرُّومِ

وقد كان أثر المقاومة ضد الاستعمار والعدوان بارزاً في محيط الشاعر محمد بن لحسن تلك المقاومة التي خاضها المسلمون كذلك في مصر - كما أومينا - وما إليها من البقاع الشرقية وفي الجزائر ، ولذلك فإن هذا الشاعر يقاسم فرحة أهل سلا - سلوان - جهاد الصامدين هناك ، ويقول :

أفرحنا وسعدنا في مدينة سلوان على الجهاد ما كان فناصر  
في مدون الشرق وناس الجزائر تعطي الأخبار

ومما تزدهي به هذه القصيدة " السلوانية " أنها استعراض يكاد يكون كاملا  
لأهل الفضل والصلاح والتقوى وأولياء الله المدفونين في مدينة سلا ، وفي طليعتهم  
كان أولئك المجاهدون الأبرار الذين سجل لهم الجهاد المقدس المشرق من المواقف  
والبيهج من الصفحات في مقاومة أعداء المغرب ، وفي الدفاع عن حوزة الإسلام .

صلاح سلا لأسياذ نمجد                      هما حجابنا ويقهروا الطغيان  
بهم نفخر ونصول كيف صالوا واحظاوا سلا بالمراته تتشاخر  
محزومين للجهاد ما يقعدوا في كل نهار

### القسم الرابع :

وإذ ننتقل إلى المقاومة في الشعر الملحون خلال القرن العشرين تصادفنا  
في الطليعة أحداث جسام فجرتها اعتداءات الاستعمار الفرنسي سنة 1907 على  
مدينة وجدة ونواحيها من جهة ، وعلى الدار البيضاء ومنطقة الشاوية ، من جهة  
أخرى ، الأمر الذي ألهم مشاعر الشعراء في ميدان الملحون ، ومن بينهم كان  
الشاعر هاشم السعداني مؤلف قصيدة " دخول وجدة " ، والشاعر عبد الهادي بناني  
مؤلف قصيدة " الدرر البهية ، في مدح رجال الشاوية " ، وأولهما توفي سنة 1933 ،  
بينما كان ثانيهما قد انتقل إلى عفو الله قبله ، في سنة 1925 ، وهما معا من فاس ،  
ومن كبار شعراء الملحون فيها .

إن هاتين التحفتين تتناولان فعلا المقاومة ضد اعتداءات المستعمر على  
أراضينا وأهلينا في وجدة وما جاورها ، وفي الدار البيضاء وأحوالها ، وفي أرض

الشاوية والمعروف في حوايات التاريخ المغربي أن سقوط مدينة وجدة في قبضة الاحتلال الفرنسي سنة 1907 قد أدمى قلوب المغاربة أجمعين ، شرقا وغربا شمالا وجنوبا لاسيما والتمهيد لذلك الاحتلال كان متواصلا منذ أمد بعيد وخاصة منذ سنة 1902، حيث كان المستعمر قد تمكن من الاستيلاء على مساحات شاسعة من الواحات المغربية الشرقية، وما تلا ذلك من العداء الشعبي ضد وجود الأجنبي الغاصب على أرض الوطن ، هذا الأجنبي الذي بات يخلق شتى الأسباب والمسببات تارة بمطالبة سلطات المخزن بالاعتذار عن حدوث أي حادث أنى كان وكيفما كان وتارة بمطالبته المخزن بتعويض فعلي ولو كان ذلك الحادث المصطنع الموحى بهذه المطالبة قد وقع بعيدا عن وجدة ، كما حدث في الحوز ونواحي مراكش مثلا أو في طنجة ونواحيها ... إلى درجة أن الوقاحة الاستعمارية كانت أحيانا تطالب بعزل قائد أو باشا مغربي لم يرق لها في عينها ... والأمثلة كثيرة في هذا الصدد.

وأنتم محيطون بحادث طنجة - إذ ذاك - عندما قتل أحد الفرنسيين هناك فنودي على الأسطول الحربي الفرنسي ، كما أنكم تعلمون جيدا الذريعة التي اتخذها المستعمرون من حادث قتل الطبيب الجاسوس موشان في مراكش يوم 19 مارس 1907 فحينما دفعت السلطات الاستعمارية في الجزائر بجيشها من مدينة مغنية إلى وجدة ، وقوامه كان سبعة آلاف جندي مدججين بالسلاح والعتاد ، فقاموا بالتحرك إلى احتلال وجدة، وكان هذا الاحتلال المرير يوم 29 مارس نون مقاومة ما . ورسالة عامل المدينة إذ ذاك أحمد بن كروم التي أوردها صديقنا محمد المنوني في الجزء الثاني من كتابه " مظاهر يقظة المغرب الحديث " يرجع إليها من شاء فإنها تؤكد أن أولئك المعتدين قالوا لذلك العامل المغربي : " إن لهم على المخزن دعوة في شأن فرنسوي قتل بمراكش " .

ولنا أن نتساءل : لماذا لم تكن في وجدة قوة مغربية لرد الفعل الغاشم والقيام بالمواجهة ؟ - هنا يقول المؤرخون إن أولئك المستعمرين كانوا حينئذ قد شغلوا المخزن بمشكل طنجة والدفاع عنها حيث قاد وزير الحربية المغربية محمد الكبلص

قوة عسكرية هناك قوامها ثلاثة آلاف من المشاة وأربعمائة من الفرسان ... واشتد غضب الشعب ضد احتلال وجدة، فكانت قومة جماعية وانتفاضة عارمة ، وبالتالي كانت مقاومة نفسانية عبرت عنها قصيدة الشعر الملحون التي يقول فيها ناظمها هاشم السعداني :

يا الاسلام ابكيوا على دخول وجدة • نون حرب غنمها الغدوونال المراد

وهذه هي اللازمة - أو الحربة - التي ترد بعد كل قسم من الأقسام الخمسة عشر التي تتكون منها القصيدة. وأنا أنقي منها هنا بعض الأبيات على سبيل المثال والتدليل ، يقول الشاعر :

كَيْفَ يَرْضَى بِالذُّلِّ الَّذِي اللَّهُ عَزَّو  
بَعَزَ بَيْنَ الْأَسْلَامِ عَلَى الْأَيَّامِ مَغزُوزُ  
مُوتَ الْعَنَائِيَّةَ فَنَهَارُ الْمَلْقَى وَبِرْزُ  
خَيْرِ مَنْ عِشَ الذَّلْ فَكُلْ خَيْرَ مَبْرُوزِ  
الْتِنَالِ هَلْ الْفَضْلُ خَيْرٌ مَا يَكْنُوزُ  
كُلُّ مَنْ مَاتَ عَلَى عَزِّ ثَنَاهُ مَبْرُوزُ  
مَا بَقَاتُ فَعِيشِ الذَّنْبِيَا لِيَوْمِ لَذَا  
عِنْدَ مَنْ يَبْنُو وَيَمَأُو فِقْلَبُ لَفْنَادُ  
مَنْصَرِفِيْنَ النُّوقَاتِ فَعَسَى الْيَوْمُ غَدَا  
يَغِيْبُ نَجْمُ النُّخَسِ وَيَنْبِيْ فَلَإِ لَسَعَادُ

ويتوجه الشاعر هاشم السعداني إلى السامعين من الشعب المغربي ناصحا إياهم بالمقاومة والقتال ، ومبشرا المجاهدين بالعز الأبدى الذي لا يعادله عز، فلا

حلاوة في الدنيا تشبه شهد العسل المتمثل في إهراق دم العدو الغاشم ، فهو مدام  
العز المكين :

مَا بَقِيَ إِلَّا الْعَزَ أَيَا جَمِيعَ لَسَلَامٍ      شَمَرُوا لِلْجِهَادِ أَتَعَمَّكُمْ حَرَمٌ  
كُلُّ مَنْ مَاتَ عَلَى عَزٍ لَسَلَامٍ يُرْحَمُ      تَابِعَاهُ الْحُورُ تَخَطَّفُو فِكُلَّ صَنَمٍ  
مَنْ كَمَلَ مَخْسُوبُوْ وَلَقِيَ كَيْوَسَ لِحَمَامٍ      عَاشَ عَيْشَ الْأَبَدِ قَطِيبٌ كُلُّ نَعْمٍ وَمَنْ بَقِيَ  
يَتَبَخَّرُ فِي الْعَزِ بَيْنَ لَعْدَا      رَاسِمُوْ مَكْتُوبٌ فَرَقَ لَبْثُورٌ لَسَعَا  
مَا بَحَالَ كَمِيدَ الْعَثْيَانِ وَأَدَّ شَهْدَا      وَلَا بَحَالَ مَدْضَامُ الْعَدُوِّ ضَيْقٌ وَأَنْكَادٌ

وهذه القصيدة مديدة النفس ، زاخرة بالصور ، متدفقة المشاعر حسا وطنيا صادقا. وفي الوقت الذي لم تكن موجودة وسائل الإعلام والاتصال الكبرى انتشرت أبياتها انتشارا سريعا بين الناس ، وانتقلت مثل قنابل المدفع النفاذ ، من فاس إلى وجدة، ومن فاس إلى الدار البيضاء ومراكش وتافيلالت ، وريدها الشيوخ والمنشدون في شتى المحافل الشعبية، ومجتمعات العلماء وسلطات المخزن حتى قيل إن طلبة القرويين كانوا يتمثلون ببعض أقسامها ، ويات أهل الحرف والحناطى في فاس وسلا ومراكش على الخصوص يتغنون ، في ألم ولوعة وتأس ، بما اشتملت عليه من " العروبيات " التي تسبق كل قسم من أقسامها الخمسة عشر ومنها هذا "العروبي" الذي يسبق قسمها الثامن ، وهو :

مَنْ بَعْدَ مَا طَفَى وَجَارَ لَعْدُوْ وَتَقْوَى      انْتَشَى فَمَغَزَلٌ لِنُيُوثِ الشَّوِيَا  
نَكْسَرُ بَنْدُوْ وَطَاحُ وَتَمَزَقُ وَطَوَى      وَلَقَاتُ مَحَالٌ صِيلَتُو كُلُّ بَلِيَا  
نَسَقُوا كَيْوَسَ مَلِيَهْ مِنْ لَمْنِيَا

وهذا كلام واضح للمتعودين على كلام الملحون ، وإنما تؤكد هنا نثرا بقصد الربط بين هذه القصيدة والقصيدة الأخرى حول الشاوية . إن تلك الكلام أو تلك "العروبي" يثبت أن العدو حمله طغيانه على مزيد الغرور بقوته ، فغامر بالاعتداء على الشاوية ، فرمى بنفسه إلى مشواة ( أو شواية ) للأسود الشجعان الذين جرعوه كؤوسا مليئة موتا زؤاما ( " يسقوا كيوس مليه من لمنيا " ) .

### القسم الخامس

والملاحظ في قصيدة الشاوية - " الدرر البهية في مدح رجال الشاوية " - أنها قد جاءت بمثابة نص تاريخي منظوم في المقاومة ضد الاستعمار ، والإشادة بالمجاهدين الذين وقفوا في وجه الاستعمار ، فاستهانوا بالموت في سبيل الدفاع عن حريتهم ووحدة ترابهم ، وشرف أهلهم . وفي ذلك يقول الشاعر عبد الهادي بناني صاحب تلك القصيدة :

ياهل الشاوية صولو بعز واصرار بالجهاد فلجود خنازر النصارا

وتعتبر مقاومة أهل الشاوية للاستعمار كما تعتبر أحداث الدار البيضاء - سنة 1907 من جملة الوقائع الساخنة في التاريخ المغربي خلال القرن العشرين ، لاسيما وقد حدثت ، هي أيضا مثل دخول وجدة ، سنة واحدة على انفضاض أعمال مؤتمر الجزيرة الخضراء الدولي بشأن قضايا المغرب المتعددة ، ومنها تراكم الديون وإصلاح الجبايات وما إلى ذلك .

والأحداث الكبرى هي دائما وليدة أحداث أصغر منها شأنها وحجما ، ولذلك فإن الأحداث الدامية التي شهدتها الدار البيضاء أيام 5 و 6 و 7 أغسطس 1907 والانتفاضة الصارمة التي عرفتها هذه المدينة حينئذ كانت ، كما لا يخفى وكما تعلمون ، نتيجة للمطالب الفرنسية الرامية إلى إذلال المخزن وابتزاز المغاربة من خلال الحصول على مداخل الجمارك بمقتضى عقد الجزيرة الخضراء وكذا من خلال ما كان يكلفه ، مظهرا أو مخبرا ، بناء الميناء



الجديد والسكة الحديدية هناك ... ثم زاد في الطين بلة استدعاء المفوض الفرنسي البارجة الحربية " كاليبلي " من طنجة إلى الدار البيضاء ، وخروج سفينتين حربيتين من ميناء طولون في فرنسا إلى الدار البيضاء ، قرار من الحكومة الفرنسية بدعوى حماية جاليتها في الدار البيضاء، وكان ما كان من الاعتداء الغاشم على تلك المدينة المغربية ومن احتلالها وقتل الأبرياء المغاربة فيها تنفيذاً لمخطط مبيت ، فكانت انتفاضة قبائل الشاوية ورجالها المجاهدين وصلحاء المغرب الأبرار. وهنا يقول الشاعر في قصيدته عن العدو المعتدي :

لبن ما زد للراس فساعتو يولي	بدا يحارب لحرامي كل يوم قتال
طاحت اسوارو بقي فالقضا متلى	اغربت شمسو بعد الطلوع ونضال
جاح ، وبقي فهموم محايينو مقلي	كل يوم يجيب محله هبيل لهبال
جمع قاوي ما ينتهي ولا يلو حد	اجمعت للروم وقالوا انكثروا لعداد
عاد لحكام نقولو فيدنا تسكد	نحوزو قصبة مديونة يطيب لمراد
حوزوها واصبح اوطانها منكذ	جاو بالحيلات ونخلو لها الفساد
خرجوه بحيلات الأ نوى الكارا	زاد فالحين لقصبة برشيد بطار
بالجهاد فلجود خنازر النصارا	ياهل للشاوية صولو بعز واصرار

ويستمر الشاعر عبد الوهاب بناني في وصف تلك المقاومة الفعلية دون تحفظ ولا تردد ولا سيما وهو كان محيطاً بدقائقها ، وكأنما كان صحافياً يعيش في مصدر الأخبار ، فقد كان من جلساء مولاي عبد الحفيظ ، سواء عندما كان هذا الشريف خليفة للسلطان في مراكش أو بعدما أصبح سلطاناً على إثر تتحية أخيه مولاي عبد العزيز ، في زحمة تلك الأحداث المتوالية ... كان هذا الشاعر لا تأخذه في نكر الحقيقة لومة لائم ، مستعملاً أشد التعابير وأقساها اعتباراً لظروف الحرب فهو يقول مثلاً عن المجاهدين وفعلهم القتالي في الأعداء :

سَارَتْ السَّقْوَمُ تُكَزِّرُ فَلَكَلابَ تَكَزِيرِ  
جَاتَ مِنْهُمْ فَذُنَابُ الخَيْلِ كَمْ مَنْ يَسِيرِ  
دَرَمُوا زَادُوا السَّطَّاتِ يَا الحُضَارُ  
زَادَ عَمْرُ السَّكْتَانِي سَرِيعَ غَبَارِ  
يَا هَلِ الشَّاويهِ صَوْلُو بَعِزْ وَاصْنَرَارُ  
مَا نَفَعَهُمْ لَا عَدُ وَعُدَّهُ وَلَا مَنَدَافِعِ  
شُوفِ نَجْمِ الدِّينِ فَبُرْجِ السَّعُودِ طَالَعِ  
بَعْدَ مَا قَاسْتَهُمْ مِنْ قَبْلِهَا خَسَارَا  
حَوَزُ البَنْدِيرَةِ بِأَمِيرِ والشُّطَارَا  
بِالْجَهَادِ فَلَجْحُودِ خَنَازِرِ النَّصَارَا

ومن يطالع قصيدة "الدرر البهية، في مدح رجال الشاوية" عن المقاومة المغربية في مطلع القرن العشرين قد يدرك من خلالها ما قد لا يدركه من مطالعته بعض المراجع التاريخية ، وكما أن الشاعر ذكر فيها اسم قائد المقاومين المغاربة عمر السكتاني ، فكذا ذكر ، لكن بالتبور واللعنة ، الجنرال درود Drude والقائد الذي خلفه الجنرال داماد بصفتهما كانا على رأس المعتدين ... ويصف ما خلفه الأعداء في الساحة عند انهزامهم من " كرارس د القرطاس" ، ومن المدافع والمهارز بل وحتى من " الشمارر" ، أي من القبعات القتالية والحربية ... وأشار فيها كذلك إلى أن الجنود المعتدين الذين فروا بأنفسهم بعيدا ... إلى الرباط مثلا، وصلوا إليها حفاة عراة ويقول : " كم من كافر دخل للرباط عريان ". وعندما يشير إلى فرحة "البروص" ، أي الألمان ، بانهزام جيش "الفرنصيص" ، يشير إلى جريدة أسبوعية يبدو من كلامه أنها كانت بقلم صاحبها تكيل بمكيال العداء للمغرب والمغاربة في تلك الأثناء ، فيقول :

أشْحَالُ مَا خَوْفَنَا الكَوَازِطِي فَجُرْتَالِ  
كَلَامُو مَرْنُودُ عَلَيْهِ ، وَبِهِ مَارْضِينَا  
كُلِّ جَمْعِهِ يَأْتِي بِجَرِيدَتُو الخَوَانِ  
بِشْيِ خَبَائِرِ شَلَارِينَا وَلَا دَرِينَا

ويشير هذا الشاعر الوطني كذلك إلى مأساة وجدة قائلا:

واش ما عار عليكم ياكفوز لفيير  
امشيات وجده فحماكم حازها الكافر

ويتوسع بصفة شعرية وبكيفية نكية في هذا الصدد ، ويختم كلامه مشيدا  
إشادة مؤثرة بالشاوية المجاهدة وأهلها المقاومين الشجعان ، مثميا خير الثناء على  
همة السلطان مولاي عبد الحفيظ .

### القسم السادس:

وأخيرا أشير اختزالا إلى المقاومة في الشعر الملحون سواء قبيل نفي جلالة  
الملك محمد الخامس رحمه الله وإيعاده عن عرشه وشعبه أو بعد ذلك النفي . فلقد  
تبارى شعراء الملحون في هذا الشأن كما تباروا في نصرة الوطنيين والإشادة  
بالعمل من أجل تحقيق الحرية والاستقلال ، وقد أسفر إنتاجهم عن ثروة كبيرة من  
القصائد في هذا المجال الذي تجلى فيه عدد كبير من الشعراء أمثال الحاج محمد  
بن عمر الملحوني ، صاحب الخرائد العديدة في الوطنية ، ومحمد العيساوي  
الفلوس ، صاحب قصيدة " النجمة " ، والحسن اليعقوبي صاحب قصيدة " معركة  
الاستقلال " ، وإبريس العلوي ، صاحب قصيدة " المنفى " ، وأحمد الطرابلسي مؤلف  
قصيدة " عشرين غشت " ، وإبريس المباركي ، صاحب العديد من الغزليات  
والوطنيات والحاج محمد العوفير رئيس مجموعة شيوخ الملحون في الإذاعة  
الوطنية بالرباط خلال الخمسينات والستينات على الأخص ، وعبد القادر الجراري  
صاحب قصيدة " الداعي " التي يشير في أحد أقسامها إلى ويلات فرنسا مع الوطنيين  
ولا سيما بمناسبة حركة مقاومة الظهير البربري ، ومن ذلك قوله :

يا من أعى كهلو بثقال اد لحمل  
فالحين أرميه جاب ربي حمالو

والغالبية الغالبة من هؤلاء قد عرفتهم جيدا وعاشرت بعضهم في العمل المهني بالإذاعة ، ومن هؤلاء الشعراء الذين كتبوا وألفوا في الوطنيات ببراعة وصدق لا ننسى أبدا منظر فن الملحن البارح أحمد سهوم، فإن له القصائد البديعة في مختلف المواضيع، ومنها موضوع المقاومة والكفاح.

ونظرا لوفرة مادة الشعر الملحن حول المقاومة الوطنية ولاسيما انطلاقا من الخمسينات ، وفيما فجرته إيجابيا تلك المواقف الصامدة لجلالة المغفور له الملك محمد الخامس والأسرة الملكية الشريفة، وما حققه تلاحم العرش والشعب، فإن هذا الموضوع القيم جدير لوحدته بندوة علمية تجمع نوي الاختصاص الدارسين والشعراء المبدعين لاسيما والإذاعة الوطنية تحتفظ حتى الآن بثروة من القصائد المغناة والمؤداة إنشادا وإطرابا في هذا المجال .

ومن بين بدائع الشعر الملحن في ميدان المقاومة بالكلمة البليغة والمعنى الدقيق، والإشارة التي تغني عن " العبارة " ، تلك القصيدة الرمزية التي سارت الركبان بتربيدها أيام النضال التحريري : إنها قصيدة " النجمة " للشاعر العيساوي الفلوس، شاعر فاس وقطب فن الملحن فيها خلال الأزمنة الحديثة. وقد تهالك على شرح هذه القصيدة وتحليلها بعض أدبائنا الأبرار ، لأنها تحفة في الأدب الرمزي الشعبي :

كـيـهـدـر وـيـزـيـم  
خـبـرـنـا يـالـهـمـام  
وـاـمـجـرت النـوم  
تـحـت جـناـحـك لـقـحـيم  
يـا صـاحـب لـحـكـام؟  
لـا تـبـقـى مـهـمـوم  
سـمـا هـا لـمـعـظـيـم  
أـو لـمـا فـابـحـور رـسـام  
كـانـت قـبـل الـيـوم

والليل أقوى حزنو من الجفني  
قالو لونا سوا أش بك  
قال لهم "النجمة" اخفات عني  
قالوا لو جمع للنجوم  
وتقول النجمة اخفات لك  
وري لنا اسمها، ونعتها  
قال : " الحريفة " بلا خفا  
فشمس أرض الكون  
قالوا فهذا الإيوان (1) قاطنه

أي إن "الحرية" المبحوث عنها كانت قبل اليوم موجودة .

وهنا يسترسل الشاعر العيساوي الفلوس في سرد المعركة القائمة بين الليل ( ويسميه " الدجا " و " البهيم " ) ، والنهار ( ويسميه " الضي " ) ، ويصور المعركة في هذا المجال بين الفريقين ، وما حفلت به من الجنود، والرماح، والسيوف، والخيل المسرجة ... وفي خضم تلك الوصف الدقيق يأتي هذا القول الصريح :

واخْرَجَ سُلْطَانَ الضِّيِّ للوَعْيِ      نادى : " يا لَبِيْهِم  
 من راد الحُرِّيَّةَ يَكُونُ      فارس حربي زَطامًا  
 وأنا مول النجمة اليوم، ولا بَعْدَ اليوم

ومعلوم أن رمز الليل إشارة دائما إلى الظلام ، ومدلول الظلام في نهاية المطاف هو " الظلم " ، و " الباطل " . فالمعركة والحالة هذه هي بين الحق والباطل. وتترى الصور والأخيلة والرموز في هذه القصة الشعرية أو هذا الشعر القصصي، ويقول سلطان النهار - امام الضي ، مقرعا سلطان الدجا :

وانطَقَ سَلْطَانَ الضِّيِّ لِلدَجَا      قال لو يا لَبِيْهِم  
 قال : الحُرِّيَّةَ اغْتَرَامُهَا      في قلبي مَرَسُوم  
 قال امام الضي للدجا      ياك الكذاب انمِمْ  
 نَجْمَ الحُرِّيَّةَ فَاَرْضُنَا      هذي ألف عام

وينتصر الحق على الباطل ، فيقول أتباعه وأنصاره بلسان الواقع دون ترميز:

نحن حماة الشعب دون شك خدام وخدم  
نحن لشبال شهود عندنا فالتاريخ العام  
ليس نبخلو بروحنا اعلى ذا الشعب المضيوم  
قال امام الضي للرعية بلسان احليم  
أندربكم فماعت لوغى ما تخشاوا الام  
لتم المخلصين امن الصبا ماأنا جاحدكم  
لكن خوذوا اوصيتي نهضوا للتعليم  
تبعوا راي الزعيم صاحب الفكر ،الهمام  
هذي روي وارواحكم هاذ العارف ياقوم

إن القول فسيح وشاسع الأطراف في هذا المجال ... وكيفما كان شأن هذه  
الجلسة التي جمعتنا ، فإني شاكر لكم تفضلكم بالقدوم إليها ، وتفضلكم بحسن  
الاستماع ، والسلام عليكم ورحمة الله .

\*\*\*\*\*

1 - هناك من يروي هذا الشطر هكذا : " قالوا فالقيروان قاطنة " .

أمل مجلتكم

اقرأوها

ساندوها

اشتركوا فيها

## من ملفاتنا المقبلة

- \* الأحزاب والتنظيمات السياسية بالمغرب 2
- \* التعليم والمسألة التعليمية عبر تاريخ المغرب
- نظيمة المخزن وأدوارها عبر تاريخ المغرب
- \* من محطات تحولات الفكر والثقافة عبر تاريخ المغرب



## صدر من منشورات أمل ويصدر قريبا

- **جامع القرويين والفكر السلفي**
- **بيان يناير 1944 بين مطلبية : الاستقلال والديموقراطية**
- **الحركة النقابية في المغرب**
- **الرحلة الزاهرة**
- **موجز تاريخ سلا**
- \*\* **يصدر قريبا**
- **التاريخ القديم لأفريقيا الشمالية**
- \* **المقاومة والاستقلال خلال القرن العشرين**

## انعكاس المقاومة في القصة والرواية

- المقاومة الوطنية من خلال الأعمال الأدبية
- صورة الذات
- تاريخ الحركة الوطنية في القصة المغربية القصيرة

## المقاومة الوطنية من خلال الأعمال الأدبية

– رواية " بامو " نمونجا –

محمد ازهري \*

استهلال :

إن المرء ليسعد أيما سعادة وهو يجلس في هذه الجلسة العلمية إلى جانب الأستاذ الجليل إبراهيم السولامي. فقد تتلمذنا عليه أيام الطلب بكلية الآداب بفاس سواء من خلال الدروس والمحاضرات ، أو من خلال مشاركته في مناقشة الرسائل الجامعية . كما تتلمذنا عليه ، وما نزال ، من خلال ما طبع من دراساته وأبحاثه.

واعترافا منا بجميل صنيعة نستهل هذا العرض بنص مقتطف من كتابه "الشعر الوطني في المغرب" قال فيه الشاعر عبد المالك البلغيثي ، في أعقاب صدور الظهير البربري :

إِن سَجِنْتُمْ عَن بَقَاعِ رَبَّاتِنْتُمْ مَنِيَّةَ  
أَوْ مُنِفْتُمْ مِن حُقُوقِ هِيَ بِالْمَجْدِ حُرِيَّةَ

\* أستاذ باحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – بني ملال .

أَوْ ضُرِبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
 قَلَّائِلٌ خَيْرٌ لَّكُمْ شَيْئاً  
 لَيْسَ خَيْرٌ مِنَ الْمَرْءِ عَارِياً  
 بَلْ هُنَّاءٌ بَعْدَ نِكَاحِي  
 كُلُّ عَيْشٍ نُونٌ عِزٌّ  
 هِيَ إِنْهَاضُ الْبَرِيَّةِ  
 حَرَكَتُهُمْ وَطَنِيَّةِ  
 فِي شُعُوبٍ مَدَيِّرَةِ  
 لِأَرْوَاقِهَا مُخْتَفِرَةِ  
 هُوَ وَاللَّهُ مَنِيَّةِ (1)

إن هذا المبدأ الأخير هو الذي حرك المقاومين المغاربة في كل الوطن فاسترخصوا أرواحهم ودماءهم من أجل حرية المغرب واستقلاله . وفي أفق الاعتراف بالجميل لتلك التلة من الوطنيين الأحرار ، يجمال بالباحثين أن ينكبوا على التعريف بتلك الشخصيات الفذة ، ويسلطوا مزيداً من الأضواء على جوانب من حياتها وكفاحاتها . وما عقد هذه الندوة حول : "المقاومة والاستقلال خلال القرن العشرين الرموز والدلالات إلا لبنة في نلكم الصرح الشامخ الذي نأمل أن يتم بناؤه في يوم من الأيام.

إن موضوع مداخلتي هو : " المقاومة الوطنية من خلال الأعمال الأدبية رواية " بامو " نمونجا " . ومن خلال هذا العنوان يتضح عنصران اثنان :  
 أ - العنصر الأول : الحدث : وهو المقاومة الوطنية باعتبارها حدثاً تاريخياً.  
 ب - العنصر الثاني : الأعمال الأدبية : أي الزاوية التي سيتم من خلالها التعامل مع ذلك الحدث . وقد تم التركيز على رواية "بامو" لأننا نفترض أن عدداً كبيراً من الحضور قد قرأها . ومن تعذرت عليها القراءة نظن أنه شاهدها على شكل فيلم من إخراج إدريس المديني سنة 1983 . تقاسم أدوار البطولة فيه كل من : محمد حسن الجندي وبديعة ريان ومحمد الحبشي والعربي الدغمي وثرثيا جبران ....  
 إن الحديث عن العنصرين معا سيجرنا إلى الحديث عن العلاقة بين "التاريخ" و"الأدب".

الأدب

التاريخ

يمكننا تركيب اللفظتين تركيباً إضافياً أو وصفياً ، فنحصل على ما يلي :

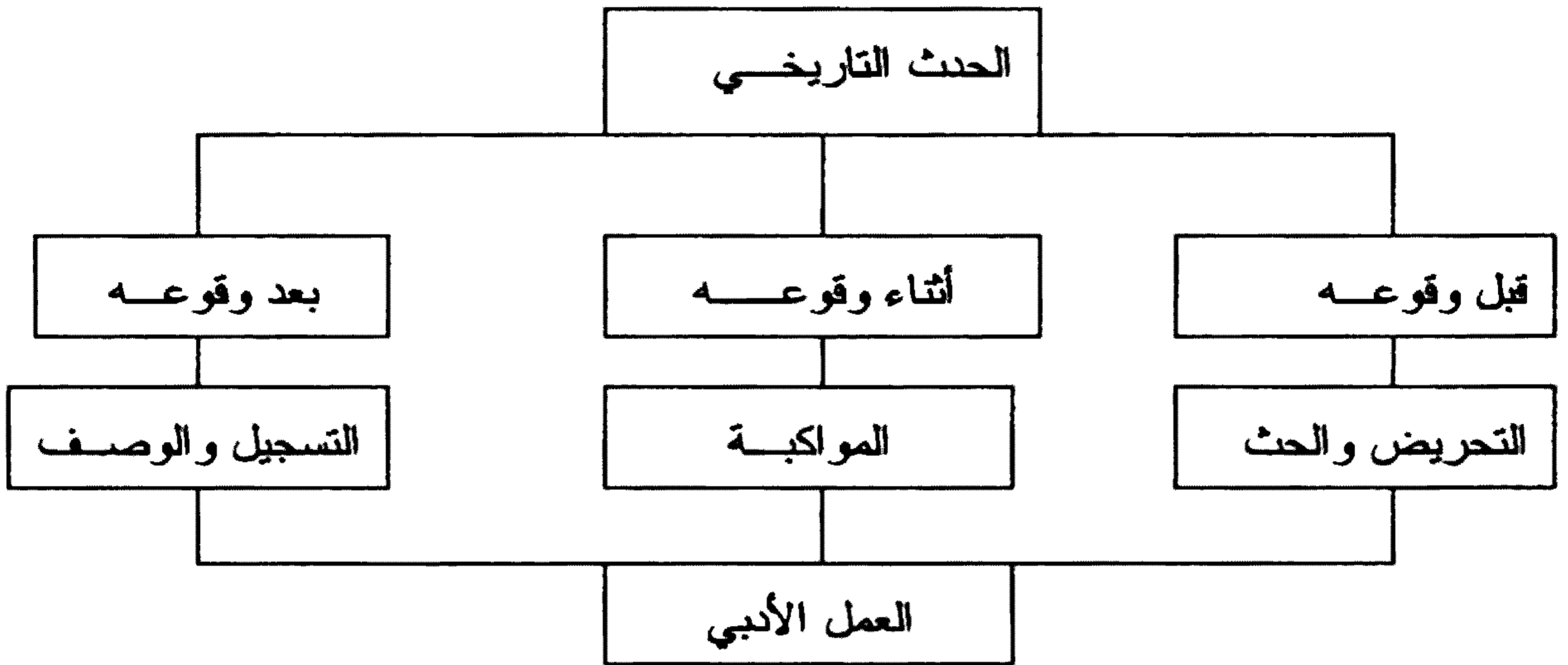
- 1 - تاريخ الأدب \_\_\_\_\_ التاريخ الأدبي  
2 - أدب التاريخ \_\_\_\_\_ الأدب التاريخي

وإذا كان بالإمكان الحديث عن تاريخ الأدب - بدليل وجود عدة مؤلفات تؤرخ للأدب عامة ، أو لأحد فنونه، عبر مختلف العصور (2) - فهل يمكننا الحديث ، في نفس الوقت ، عن أدب تاريخي ؟.

إن المتمعن في العمال الأدبية المختلفة ، قديمها وحديثها ، يلمس أن أصحابها قد نقلوا ، عبر تلك الأعمال ، الكثير من الأحداث والوقائع التاريخية وهي ظاهرة تفسر كون العلاقة بين الأدب والتاريخ قديمة قدم الأدب نفسه ، ومن ثم يتأكد " بوضوح مدى إقبال المبدعين على التاريخ للإحاطة ببعض القضايا والمواقف ، والاستفادة من أبعادها الإنسانية " (3) .

والأديب الذي يتعامل مع الأحداث التاريخية في أدبه ، إما أن يكون معاصرا لتلك الأحداث ، أو أن تكون الأحداث وقعت قبل عصره إما بزمن قريب ، أو متوسط، أو بعيد فإذا كان معاصرا للأحداث فإن المادة تكون متوفرة لديه بحكم المعيشة، إلا أن طريقة تناول هي التي تختلف من أديب إلى آخر. أما إذا كان غير معاصر للأحداث ، فإن عمله الأدبي سينصب على أحد المواضيع التي تعود إلى الماضي . وهذا يحتم عليه الإلمام الكامل بالأحداث التي سيكتب فيها " لأنه بعيد من جديد بناء حقبة لم يعرف أطوارها شخصيا . ومن ثم فإن هذه العملية تتطلب منه امتلاك معلومات تاريخية ، وعبقرية خاصة ، كما تتطلب منه بذل مجهود مضاعف مادام سيتعرض لأشخاص لم يعاصرهم ، وأنه سيعمل على خلقهم بالارتكاز على المعطيات التي توفرها القراءة، والتي ستتحول لدى تدخل خياله" (4).

إن الأديب الذي يصور أحداثا تاريخية كذلك المتعلقة بالكفاح الوطني من أجل التحرر، يمكن رسم العلاقة بينهما على الشكل التالي .



وقد وضع الأستاذ عبد الكريم غلاب هذه العلاقة أكثر فبين أن العمل الأدبي الذي يتناول حدثاً تاريخياً ما، قبل وقوعه "يساهم في بعث الشعور الوطني، وفي تعميق الفكرة الثورية في نفوس المكافحين" (5). أما في الحالة الثانية، أي أثناء وقوع الحدث، فإن الأديب "يصاحب حركة التحرير الوطني يراقب ويسجل ويقوم اعوجاجها ويشد من عضد المكافحين ويلهب حماسهم أثناء المعركة" (6) وفي الحالة الثالثة الخاصة بالحدث بعد وقوعه "يأتي الأديب عقب الحركة التحريرية، فيقوم بدور التسجيل والوصف وتمجيد الأبطال وتخليد المواقف" (7).

لقد كان ضرورياً أن نقدم لعرضنا بهذا الكلام عن علاقة التاريخ بالأديب لأننا سنجد صدى مقاومة أحمد الحنصالي في بعض الأعمال الأدبية. وسنركز على عمل أدبي واحد هو رواية "بامو" (8) لأحمد زياد، لأنه العمل الذي عالج ذلك الحدث بكثير من التفصيل.

تدور أحداث هذه الرواية في الفترة الممتدة من أواخر الثلاثينيات، إلى أواسط الخمسينيات، أي قبيل الحصول على الاستقلال بقليل. فهي بذلك تحاول إعادة بناء مرحلة من تاريخ المغرب إبان الاستعمار، مع التركيز على بؤرة الحدث في

الرواية ، أي المقاومة التي أبدتها المقاوم أحمد الحنصالي في وجه المستعمر الفرنسي ، في فضاء منطقة تادلا.

وللوصول إلى هذا الحدث الرئيسي الذي عليه مدار الرواية ، فقد مهد له الأستاذ زياد بسلسلة من الأحداث ساهمت فيها مجموعة من الشخصيات ، يمكن تلخيصها على الشكل التالي :

يدخل الكاتب مباشرة لتقديم عمله برسم معالم المكان الرئيسي - ووزغت - الذي ستدور فيه الأحداث. وهو مكان مهمش يعيش أصحابه في فقر مدقع، من جراء ما نتج عن سلب المستعمر لأراضيهم . والمهنة الرئيسية التي ركز عليها الكاتب في هذه المنطقة هي الحدادة. وهي مهنة كان يعيش منها مجموعة من الناس، بمن فيهم بعض أبطال هذه الرواية : باسو زوج بامو ، وعقا زوج رحمة الله .

صور لنا الكاتب جمال بامو الخارق الذي جعلها تحظى بإعجاب كل الرجال مما سبب لباسو الكثير من المتاعب النفسية. وقد بلغ ذلك الذروة القصوى عندما اعتقل رامونا - قائد المنطقة الفرنسي - ثلاثة رموز الوطنية هم : باسو ، وعقا وسي موسى - فقيه القرية - ليقتضوا عقوبة السجن بالعانر. وذلك ليخلو له الجو فيقدم لبامو شتى الإغراءات. وأمام رفضها الرضوخ لرغباته، يضطر رامونا إلى سجنها بإحدى الغرف بإقامته بالقصيبة .

وعند خروج باسو من السجن يبدأ في البحث عن خطة لإنقاذ زوجته. وسيلتقي في القصيبة بالحنصالي باعتباره خال بامو. وقد جاء لمساعدة باسو على تحرير زوجته، وذلك بتشجيع من سي موح، كبير حراس رامونا. وسينجحون في تهريب بامو إلى زاوية الشيخ أولا ، ثم إلى ووزغت ثانيا .

وفي الوقت الذي بقي فيه باسو وبامو بووزغت ، يصعد الحنصالي إلى الجبل، وهناك تبدأ مقاومته .

هذا بإيجاز شديد ، مضمون الرواية ، فلنركز الآن على عنصر المقاومة فيها. قبل ظهور الحنصالي مهد الكاتب للمقاومة بالمنطقة بعدة مظاهر تبرز المراحل التي مرت منها، منذ أن كانت في بداياتها ، إلى أن تبلورت في شكلها النهائي المسلح على يد البطل الحنصالي . ويمكننا تتبع تلك المظاهر، من خلال الرواية ، على الشكل التالي :

1 - التهامس بخطة طاليك ، ثم التحدث عنها جهرا ، فبعد حديث الكاتب عن أعمال طاليك في منطقة بني ملال ، وعن الجو الرهيب الذي سيطر على المنطقة تحدث عن بؤابر المقاومة ، فقال : " إلا أن روح المقاومة الأصيلة في الشعب المغربي سرعان ما أخذت تتعش حيال ما أخذ يهدد الشخصية المغربية من أساليب تفتيتها وإفسادها ماديا وخلقيا، حيث بدأ التهامس بخطة طاليك ينتقل من هنا إلى هناك إلى هناك من نواحي بني ملال ، وانقلب هذا التهامس إلى أحاديث في الأسواق وفي المنازل أو في الخيام " (9).

2 - الشروع في تأسيس الخلايا الوطنية في مدينة بني ملال والناحية (10).

3 - ترسخ الإيمان بالحرية وبضرورة استعادة الأراضي المغتصبة (11) .

4 - الامتناع عن أداء الضرائب .

5 - استجابة المنطقة لقرار الحركة الوطنية القاضي بأن يكون يوم 30 مارس يوم صيام كل عام ، وهو تاريخ يصادف اليوم الذي فرضت فيه الحماية سنة 1912. وقد تجلى ذلك بوضوح من خلال الحوار التالي الذي دار بين باسو وعقا : سأل باسو: "وماذا يجدي الصيام يا عقا مع هؤلاء القوم ؟" فأجابه عقا : " إنها البداية باباسو فالمقاومة بالصيام ستصبح مقاومة بالكلام ، والمقاومة بالكلام قد تولد شيئا آخر أكثر من الكلام . إن ملايين الناس لا يمكنها أن تبقى لمدة طويلة تقوم بدور الخدم في هذه الضيعة الكبيرة التي هي المغرب كله ! أو فهمت يا باسو ؟" (12) .

6 - تمرد بعض قواد المخزن على المستعمر : من ذلك مثلا ما فعله قائد آيت عطا الذي لم ينفذ رغبات المستعمر، فكان أن أنذر ، ثم عزل ثم سجن .



- 7 - توعية الناس بأخطار المستعمر من قبل رجال الحركة الوطنية ممثلة في ووزغت في الفقيه سي موسى .
- 8 - تأسيس عشر خلايا وطنية بووزغت . وقد كان . بسو ضمن الخلية الرابعة .
- 9 - حضور المسؤول الوطني على الناحية من البيضاء لووزغت للاجتماع سرا بالخلايا .
- 10 - امتناع الفقيه سي موسى من قبول منصب عدل شرعي ، مقابل إمداد المراقب الفرنسي بأخبار المقاومة.
- 11 - تأجج المقاومة بالمنطقة بعد تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال يوم 11 يناير 1944.
- 12 - القيام بمظاهرة احتجاجية يتزعمها الفقيه سي موسى من المسجد إلى "البيرو"
- 13 - توعية الحنصالي لباسو ليكون رجلا مناضلا، بدل الاستسلام بعد خطف بلمو
- 14 - حمل الحنصالي للسلاح وشروعه في تنفيذ عملياته بالجبل .
- 15 - الانفجار الذي حدث في نجبر سنة 1952 ، بعد دعوة الوطنيين إلى القيام بإضراب تضامني مع تونس ، على إثر مقتل النقابي فرحات حشاد .
- 16 - تظاهر حوالي عشرين ألف مواطن من مدينة بني ملال وتطويقهم لمقر الحاكم الفرنسي .
- هذه هي أهم المحطات النضالية التي أبرز من خلالها الكاتب مظاهر المقاومة في رواية بامو . فكيف واجهها المستعمر ؟.
- يمكننا تصنيف مظاهر قمع المقاومة بمنطقة تادلة - في الرواية - كما يلي:
- 1 - استبداد طالبك وأعوانه .
  - 2 - الإفساد المادي والخلقي (إياحة الخمور وترويجها ، تشجيع الدعارة...).
  - 3 - الاعتماد على الأجهزة السرية لترصد المقاومة .
  - 4 - الإكثار من الضرائب على المواطنين لسجنهم فيما بعد بدعوى الامتناع عن الأداء .

5 - نفي المقاومين إما في أماكن داخل الإقليم نفسه ، أو في أماكن نائية مثل إيمليشيل .

6 - استدعاء المراقب الفرنسي للفقير سي موسى إلى مكتبه ومحاولة إغرائه بمنصب عدل شرعي مقابل أن يكون جاسوسا على الوطنيين .

7 - فرض الحصار حول المواد الأساسية ، وخنق وسائل العيش بتعطيل السوق الأسبوعي بويزغت .

8 - استعمار العرض إلى جانب استعمار الأرض ، كما هو الشأن في حجز وحصار بامو من قبل الحاكم رامونا في بيته .

9 - مطاردة العناصر الوطنية ومضايقتها في فترة الخمسينيات .

ولعل بؤرة المقاومة في رواية " بامو " هي العمليات الجريئة التي نفذها أحمد الحنصالي . فكيف تعامل معها أحمد زياد ؟

إذا كانت الرواية مطبوعة في 178 صفحة ، فإن الحنصالي لم يظهر إلا في الصفحة رقم 121، أي في الثلث الأخير من الرواية. وقد قدمه الكاتب بقوله : "وفي يوم من الأيام وصل إلى القصيبة رجل ضعيف البنية ، حليق الرأس ، نو عينين حادتين ، لا يلبس غير قميص بالرغم عن أن الفصل ما يزال فصل الربيع ، بينما ينتعل ما يكاد يشبه الخفين، فتوجه لتوه عند حلاق كان معروفا هناك بقوة حساسيته في الشم والاستطلاع حيث قدم له نفسه على أنه محمد الحنصالي . إنه موفد من قبل صديقه السيد بوجمعة من زاوية الشيخ " (13). ومنذ ظهور الحنصالي في الرواية بدأ يخطط لتحرير بامو، وذلك بمساعدة الحلاق الذي دله على سي موح كبير أعوان الحاكم العسكري. وسرعان ما سيظهر باسو كذلك في القصيبة، حيث جاء بدوره لتقصي الأخبار عن زوجته. وقد أصبح نحيلًا شاحبًا من فرط حزنه على مصير بامو. وحينما التقى بالحنصالي ، عمل هذا الأخير على توعيته والرفع من روحه المعنوية. من ذلك مثلا قوله : " ليكن في علمك يا باسو أن البكاء والشroud والتهان لاتجدي، ولاتستطيع بالتاكيد أن تفيد بامو، فالأمر يحتاج

إلى وسائل الرجال فماذا تعلمت في انسجن إذا لم تكن قد تعلمت دروسه الابتدائية التي يعد الصبر والبأس والرجولة في طبيعتها. إنني أعلم ، وبحكم التجارب أن المحن تصنع الرجال الذين لا يكون يا باسو، ولا ينهارون. فإذا كنت تحب بامو وتحاول إنقاذها فابحث لك عن وسيلة أخرى غير البكاء، وإنني لعلى يقين من أن زوجتك بامو، وهي المرأة التي أعرفها جيدا ، لا تبكي في محنتها " (14) .

واضح جدا ، من خلال هذا النص ، أن الكاتب بدأ يهيئنا للتعرف على طبيعة مقاومة الحنصالي . فالرجل المغربي الأبى لا يرضى بالذل والسهوان، ومن ثم وجب عليه ألا يكون مستسلما [ البكائ - الشرود - التيهان... ] بل عليه أن يجد الوسيلة الناجعة الكفيلة برد الأمور إلى نصابها. ولذلك نجد الحنصالي يضيف: "هيا ابحت لنفسك عن وسيلة أخرى يا باسو غير البكاء ، فالبكاء من شيم النساء ، أما الرجال فلهم وسائلهم الخاصة بهم في ساعة العسرة " (15) . فما هي هذه الوسائل الخاصة في نظر الحنصالي ؟.

إنها المقاومة المسلحة التي اقتتع بجدواها . وهو وإن لم يعبر عنها في أحاديثه صراحة ، فقد كنى عنها بلفظة تدل عليها ، وهي " المعقول " ، حيث تكررت مرات عديدة في كلامه، منها :

1 - في الحوار الذي دار بينه وبين كل من باسو وسي موح ، حينما كانوا يخططون لتحرير بامو . قال الكاتب: " أما الحنصالي فلم يتكلم إلا مرات معدودات وكان مجمل رأيه أن " هؤلاء القوم " يحتاجون إلى " المعقول " على حد تعبيره. ولم يزد على ذلك شيئا " (16).

2 - في حديثه مع صديقه محمد سميحة : " هؤلاء القوم لا ينفع معهم سوى المعقول يا سميحة .

— وماهو المعقول في نظرك يا الحنصالي ؟

— المعقول هو المعقول ياسميحة .

— أنا لم أفهمك يا الحنصالي .

— يمكن لك أن تفهمني فيما بعد " (17) .

إن سميحة، وهو الصديق المقرب من الحنصالي ، لم يفهم بعد المقصود بالمعقول لذلك سيضطر الحنصالي إلى تكرار تلك اللفظة في كل فرصة تتاح له ، ومنها :

3 — فرصة لقائه ، من جديد بسميحة، بزاوية الشيخ ، بعد عودته من ويزغت التي كان قد ذهب إليها برفقة ابنة أخته بامو وزوجها، بعد تمكنهم من تحريرها من معتقلها بالقصيبة. " فكان محمد سميحة يقابل تبرم صديقه وتدمره بعبارات مواسية ثم يواصل حديثه مستطردا المسألة " الانفتاح السياسي " الذي يقول عنه سميحة في هذه المرة ولأول مرة للحنصالي ، إنه انفتاح يبدو وكأنه لن يعمر طويلا، ويستغل الحنصالي هذه الفرصة ليعيد الكرة ويؤكد وجهة نظره التي تتضمنها كلمته المأثورة " هؤلاء القوم لا ينفع معهم سوء المعقول " (18) .

إن هذه اللازمة أصبحت لا تفارق أحاديث الحنصالي، ولذلك فهو لم يكن مقتنعا بما سمي ب " الانفتاح السياسي " الذي علق عليه الكثيرون آمالهم ، ومنهم سميحة، أو " الرجل النية " كما كان يسميه الحنصالي. وهكذا كان كلما التقى بصديقه سميحة وآخرين من المهتمين بتتبع تطور الأحداث إلا وكان في مختلف التعليقات يمثل الجانب المتطرف ، حيث يصر إصرارا على التمسك بشعاره الدائم : "إن القوم لا ينفع معهم سوى المعقول " كانت هذه الجملة هي القافية، وهي اللازمة لكل حديث وكل تعليق ولكل استنتاج، سواء أكان ذلك صادرا عنه أم صادرا عن غيره " (19) .

إن تردد هذه العبارة مرات عديدة يجعلنا نتساءل : كيف صور أحمد زياد هذا "المعقول" في الرواية ؟.

إذا تصفحنا " بامو " فإننا لا نجد هذا " المعقول " يتجسد إلا في الصفحات الأخيرة وبالضبط من ص 167 إلى ص 177 . وهو حيز لا يشكل إلا % 6,17 من الرواية ككل ، ومع ذلك فقد كثف فيه الكاتب العديد من الأحداث التي تتحدث عن مقاومة الحنصالي منذ بدايتها إلى نهايتها .

ويمكننا تلمس تلك المقاومة عبر مجموعة من العناصر ، سنتتبعها على الشكل

التالي:

1 - بداية المقاومة :

تبدأ مقاومة الحنصالي منذ الإعلان عن اختفائه عن معارفه. ففي يوم من الأيام " افتقد أصدقاء الحنصالي صاحبهم الذي كان قد اختفى منذ ثلاثة أيام - بحثوا عنه في كل مكان في زاوية الشيخ ، ثم افترضوا أنه ربما يكون قد اتجه نحو ووزغت لعيادة ابنة أخته ... " (20) ، لكن الشاب احمامو - مساعد المعلم عفا الحداد - كذب ظنهم لأنه عاد لتوه من ووزغت . ويأتيهم الخبر اليقين على لسان أحد المخازنية "حيث أخبر سميحة وأصدقاءه بأن الحنصالي قد صعد إلى الجبل ، ويقال إنه قتل ثلاثة من الأوربيين " (21). هاهو ذا الحديث النظري عن "المعقول" يترجم إلى أفعال. وهاهو ذا سميحة يتنكر " في جملة ما تذكره أنه كان قد سأل الحنصالي عن نوع هذا المعقول ، فأجابه بأنك ستراه في الوقت المناسب وهاهو بالفعل يراه " (21) .

2 - اختيار مكان العمليات :

في أي معركة من المعارك يحتاج المقاتل دوماً إلى التحصن بمكان منيع يقيه ضربات العدو. وبالنسبة للحنصالي فقد وردت أربع إشارات للمكان الذي اختاره لتنفيذ عملياته ، وهي على الشكل التالي :

أ - الإشارة الأولى: وردت في قول المخزني : " إن الحنصالي قد صعد إلى الجبل " (22) ، وكذا في قول الكاتب : " ومهما يكن من أمره فإن الرجل قد صعد إلى الجبل " (23) .

فهذه إشارة عامة مطلقة لا تكاد تحدد لنا ، بكل دقة، ذلك المكان ولا مميزاته إلا أن الإشارات الثلاث الأخر تبرز استراتيجية المكان ، ومناعة اقتحامه وارتفاعه الذي يخول المراقبة الجيدة للميدان .

ب - وهكذا نجد في الإشارة الثانية أن الحنصالي " كان معتصما في موقع استراتيجي كان يعرف جيدا بمناعته وبالشعاب المؤدية إليه " (24).

ج - ونجد في الإشارة الثالثة أنه " اتخذ لنفسه موقعا كان في غاية ما يكون من التحصين الطبيعي الذي لاخط ماجينوا ولاخط سيفريد ، وأخيرا لاخط بارليف يوازيه (25).

د - ونرى في الإشارة الرابعة أخيرا أنه كان " يتمتع بهدوء وطمأنينة تامين فوق "مرصده" الطي كان يشرف منه على واجهة القتال . ويرى بعينه المجردتين الواسعتين ... مالا يمكن أن يرى إلا بالمنظار الاصطناعي الذي يكبر حجم الأشياء " (26) .

3 - سلاحه :

إذا كان لابد للمقاتل من سلاح ، فما كان سلاح الحنصالي ؟.

" إن سلاحه لم يكن يتعدى بندقية وطلقات محدودات " (27). وقد نكر نفس السلاح مرة أخرى، قبل هذه حين كان الكاتب بصدد المقارنة بين سلاح المستعمر وبين سلاح الحنصالي ، حيث قال : " وكان الجيش الفرنسي بقيادة جنرال له في وضع مخجل جدا لأنه لم يستطع بجنوده المدججين بمختلف الأسلحة البرية والجوية الفوز على رجل واحد لا يملك سوى بندقية واحدة وعدة طلقات " (28). وفي فقرة سابقة نجد تحديدا لعدد طلقات ، وكذا لمصدر البندقية ، يقول الكاتب " ولم يكن سلاحه يزيد على بندقية كان قد هربها لما كان عونا من أعوان " - البيرو " ، مع خرطوش من الطلقات لم يكن في مجموعته يزيد على العشرين طلقة " (29). هذا عن السلاح المادي ، أما السلاح المعنوي فيتجلى في تشبع الحنصالي بالإيمان الصادق بالله وكذا بعدالة القضية التي استرخص نفسه من أجلها . ويتضح ذلك في عبارة وردت في تقييم الفقيه سي موسى لعمل الحنصالي. أكد عليها الكاتب بقوله : "... وتكون اللازمة في أحاديث الفقيه سي موسى وتعليقاته هي قوله : إنه

الإيمان ، إنه الإيمان ياسي فلان. ينطق بها بنبرات رتيبة وخاشعة في الوقت نفسه(30).

#### 4 - تنفيذ العمليات :

لا نكاد نخرج بصورة واضحة عن عدد العمليات المسلحة التي نفذها الحنصالي، ولا عن العدد الحقيقي لضحاياه ، ولا عن المدة التي استغرقتها مقاومتها فأول إشارة وردت على لسان أحد المخازنية تقول: " إنه قتل ثلاثة من الأوربيين"(31). وآخرها جاء فيه: "وخلقت طائرات الهيلكوبتير المسلحة حول موقع الحنصالي ، فاصطاد واحدة منها بطلقة لا شريك لها ، وسقط ربانها بين الأشجار فرمقه الحنصالي وصبوب نحوه طلقة أخرى ترنح على إثرها ونام في اطمئنان"(32). فعلى هذا يكون عدد خسائر المستعمر في الأرواح والعتاد هو أربعة قتلى وتدمير طائرة هيلكوبتير. إلا أن هذا العدد يبقى مرشحا للتصاعد بدليل وجود إشارتين أخريين ، تفيدان لارتفاع الخسائر. جاء في إحداها : " ومن موقعه هذا شرع يمارس قناصته. وكان كلما شاهد من فوق موقعه عبر الطريق المعبد صيدا إلا وتخيل فيه أشخاصا من المراقبين والمعمرين الذين كان يعرفهم ويعرف بعض زوجاتهم اللائي لم يكن أقل من أزواجهن عنصريّة وتعسفا واستبدادا"(33). وورد في الإشارة الأخرى ما يلي : " وما رمى الحنصالي بطلقة من طلقاته إلا وأصابت مرماها،وفي الصميم . فكان ولا بد من أن يرتفع عدد الضحايا "(34). نعم كان مرجحا أن يتزايد عدد القتلى لأن صاحبنا أقسم "على نفسه ألا يضيع واحدة منها (35) بدون غنيمة"(36).

#### 5 - ردود الأفعال :

إن مقاومة بهذا الشكل لم يسبق لها مثيل في المغرب ، فكان لا بد أن تشير مجموعة من ردود الأفعال ، محليا ، ووطنيا ، ودوليا. وذلك سواء إبان وقوعها أو بعد نهايتها . ويمكننا تتبع ردود الأفعال تلك كما يلي:

أ - ردود فعل المستعمر ومن والاه : لم يكن هينا على المستعمر هضم ما فعله رجل بمفرده. فبمجرد ما شاع أمر الحنصالي قررت السلطات الاستعمارية اتخاذ جملة من التدابير بغية القضاء عليه . فكانت مجموعة من ردود الفعل التي سارت على وتيرة تصاعدية على الشكل التالي :

• ذلك أن أول رد فعل كان هو الإعلان عن " حالة استنفار في مختلف دوائر ناحية بني ملال ، وأخرج رجال المخازنية والأعوان من دورهم وانتزعوا من بين أولادهم " (37) .

• ثم تلا ذلك رد فعل ثان تجلى في إرسال القوة للبحث عن الحنصالي، وذلك ما عبر عنه المخزني الذي أخبر سميحة وأصدقائه بصعود صديقهم إلى الجبل فقال: " وتتوجه في هذا الوقت بالذات قوات ضخمة من مختلف الأشكال والأحجام لمطارنته " (38) .

• أما رد الفعل الثالث فهو البحث عن المزيد من التعزيزات الأمنية ، سواء من المدن المجاورة ، أو من الرباط العاصمة ، في أفق السيطرة على الوضع، " ولهذا السبب قررت السلطات الاستعمارية أن تحاصر كل الطرقات وتمنع السير فيها حتى لايزداد عدد الضحايا. واستجبت سلطة الناحية لبني ملال بسلطة مدينة تادلة لتمدها بالعون من الرجال والسلاح وصدرت الأوامر من الإدارة المركزية بالرباط بتجنيد كل الإمكانيات لمواجهة الموقف وإلقاء القبض على الحنصالي حيا أو ميتا " (39).

• وأمام استبسال البطل الحنصالي ، لم تجد كل تلك الترتيبات ، فاضطر المستعمر إلى إسناد مهمة القبض عليه إلى لواء كامل من الجيش الفرنسي ، إذ " لم يكن بد والحالة هذه من أن يعهد إلى جيش الاحتلال بهذه المهمة. وكذلك كان حينما أخذ القائد الأعلى لهذا الجيش زمام الأمور بنفسه ، وأصدر أوامره بأن يتوجه جيش قوامه لواء كامل يتولى أمر قيادته القائد العام نفسه " (40). فكان هذارد الفعل الرابع . وقد كان هذا اللواء مدججا بأعتد الأسلحة آنذاك ، بما فيها السلاح الجوي بحيث " حلفت طائرات الهيلكوبتير المسلحة حول موقع الحنصالي " (41). وبما أن



كل هذه العمليات لم تؤت أكلها ، وبما أن السلطات الاستعمارية أصبحت تتلقى ضغوطا من المعمرين ، فقد كان من الضروري ألا يستمر الوضع على ما هو عليه. ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه الحنصالي " يمارس هوايته في القناصة ... كان الحنق يزداد في أوساط المعمرين على السلطة التي لم تستطع القضاء بجيشها وعدتها " (42) عليه . كما " تعالت أصوات الاحتجاج والاستتكار من الأوساط الاستعمارية تطالب بالإسراع في القضاء على ذلك "القتال" كما كانوا يسمونه " (43) \* كل هذا أدى إلى رد الفعل الخامس، وهو توجيه نداء إلى الحنصالي ليستسلم . وهو قرار اتخذ بعد سلسلة من المشاورات . فقد " توالى الاجتماعات في مقر القيادة العامة بمقر الحاكم، وتقرر توجيه نداء إلى الحنصالي يطالبه بالاستسلام، وإلا فإن المقبلات ستك الموقع الذي يتحصن فيه ، ويذكه معه " (44) . لكنهم لم ينفنوا تهديداتهم مع ذلك .

\* وأمام فشلهم السريع في القبض على الحنصالي حيا أو ميتا ، لجأوا إلى رد فعل سادس ، تجلى في جملة الاعتقالات الواسعة التي مست سكان المنطقة ، مع متابعتها من سجن وتعذيب ونهب ... وهو ما عبر عنه الكاتب بقوله : " وفي هذا الوقت بالذات أيضا كانت تجري في جميع دوائر ناحية بني ملال عمليات حصاد بشري إن صح التعبير ، وهي عبارة عن عمليات اعتقال واسعة الأرجاء ، تمارس بمقتضى الأرشيفات القديمة لكل أولئك الذين سبق لهم أن اعتقلوا ، أو سجنوا ، أو حامت حولهم الشبهات ، وذلك بالإضافة إلى ما كان يصاحب هذه الحملة من نهب وسلب لأمتعة المواطنين " (45) .

\* وتوجت كل هذه الأمور برد فعل عنيف جدا ، ألا وهو الحملة ضد السلطان الذي اتهم بتأييده المطلق للمقاومة الوطنية. جاء في إحدى فقرات الرواية : " أن الوصمة التي كان الحنصالي قد وضعها بطلقاته العديدة على جبين الجيش الاستعماري لم تستسغها الدوائر الاستعمارية ، لا في المغرب ولا خارجه في فرنسا نفسها، فشنت حملات هيستيرية على السلطان الذي اتهم بتواطئه المصير مع

الوطنيين . وأخذت وسائل الإعلام ترداد أسطورة "رأس الأفعى ونبها" وذلك على حد تعبير صحيفة "لورور" اليمينية الصهيونية " (46) .

هذا عن ردود الفعل الاستعمارية ، فماذا عن ردود الفعل المحلية والوطنية؟

ب - ردود الفعل المحلية والوطنية

\* بالنسبة لردود الفعل المحلية لم تسعفنا الرواية بصدها إلا بإشارة واحدة جاء فيها : " وكانت ناحية بني ملال وما جاورها لها الحظ الأوفر من خلفيات ثورة الحنصالي في صور شتى من صور الانتقام " (47) .

\* وبالنسبة لردود الفعل الوطنية ، فقد تجلت في تأييد ما قام به الحنصالي ، وكذا التأكد من جدوى العمل المسلح باعتباره أنجع أسلوب للمقاومة. وقد اتضح ذلك في كلام للفقير سي موسى قال فيه : " الواقع أن ثورة الحنصالي وشعاره: " لاينفع سوى المعقول " قد غيرت مفهوم الكفاح تغييرا جذريا ما في ذلك من شك ، وليس في ذلك أننى من ريب. ذلك أنه بعد تلك الانطلاقة أخذ بعض المناضلين ينسحبون من العمل السياسي الجهري ليدخلوا إلى "دهاليز" التنظيم السري ، ثم أخذ عدد هذا البعض يزداد ويتوسع ويتوسع عبر كافة أنحاء المغرب " (48) .

مثل الفقير سي موسى لأولئك المناضلين بالسيد محمد الزرقطوني ، ورجح أنه " قد كان أعلن انسحابه من الميدان السياسي العلني ، بعد حركة الحنصالي مباشرة ليجمع الخلية الأولى من حركة المقاومة، بينما كان آخرون في مدن مختلفة قد ولجوا نفس الميدان ، وأخذوا يمارسون نفس العمل ، لأنهم كانوا قد اقتنعوا الاقتناع كله بأن الكفاح السياسي قد استنفذ دوره وإمكانياته، وإن لغة الحوار السياسي قد تجاوزتها الوقائع والأحداث " (49) .

6 - نهاية مقاومة الحنصالي ... بداية المقاومة من أجل الاستقلال :

جاء في الرواية أن مقاومة الحنصالي انتهت باستسلامه، بسبب نفاذ ما كان معه من ذخيرة : " فبعد حين أسلمت بامو روحها إلى ربها بعد الزوال . وما أن همت السيدة رحمة الله بالخروج لتعلن الخبر إلى الجيران حتى جاء من يخبرها

باعتقال زوجها عقا وباستسلام محمد الحنصالي، بعد أن نفذ زاده من الرصاص. لقد استسلم هو أيضا في نفس اللحظات التي استسلمت فيها بامو ، مع فوارق الحالتين في ذلك الاستسلام " (50) .

ولم تكن نهاية مقاومة الحنصالي إلا بداية الطريق في درب المقاومة بكل التراب الوطني . فما " كان استسلام الحنصالي الاضطرابي ليضع حدا للمد التحرري كما كان يظن الاستعمار أو يتوهم ، بل إن ثورة الحنصالي لم تكن في الواقع سوى عمل من عوامل امتداد ذلك التحرر وبأسلوب آخر من أساليب النضال، وهو الأسلوب الذي كان الحنصالي نفسه يطلق عليه أسلوب المعقول " (51) ولهذا وجدنا الفقيه سي موسى ، في آخر الرواية : " يعتبر أن بداية حركة المقاومة المسلحة الحديثة ليست تاريخيا هي سنة 1952 ، وإنما تاريخها يرجع إلى قبل هذه السنة ، أي إلى اليوم الذي صعد فيه الحنصالي لمرصده هنالك في ناحية بني ملال ليأخذ زمام المبادرة والتحكم في تسيير عملياته " (52) .

هكذا ، إذن ، تناول أحمد زياد مقاومة أحمد الحنصالي في رواية بامو . فهل يمكننا اعتبارها رواية تاريخية ؟

إن هذا العمل يزخر بمادة تاريخية هائلة ، تأتي مقاومة الحنصالي في مقدمتها . كما تتخللها إشارات إلى أحداث تاريخية أخرى وقعت فعلا ، منها مثلا :

- حدث تقديم وثيقة الاستقلال في 11 يناير 1944 .
- وحدث زيارة محمد الخامس لطنجة سنة 1947 .
- وحدث الإضراب التضامني مع تونس على إثر اغتيال الزعيم النقابي فرحات حشاد في جينبر 1952 .

فهذه الأحداث وغيرها قدمت في هذا العمل بحسب طبيعة الأسلوب الروائي الذي اقتضى من الكاتب صياغتها في شكل قصة عاطفية متخيلة بين باسو الحداد وزوجته بامو ، وعلاقتها معا بشخصيات متخيلة كعقا وزوجته رحمة الله ، وبلقي

الشخصيات المنتمية إلى ووزغت ، وبشخصيات تاريخية حقيقية كأحمد الحنصالي ومحمد سميحة والحاكم رامونا وغيرهم ....

ويقول جورج لوكاش عن الرواية التاريخية بأن ما يهم فيها " ليس إعادة سرد الأحداث التاريخية الكبيرة ، بل الإيقاظ الشعري للناس الذين برزوا في تلك الأحداث . وما يهم هو أن نعيش مرة أخرى الدوافع الاجتماعية والإنسانية التي أدت بهم إلى أن يفكروا ويشعروا ويتصرفوا كما فعلوا ذلك في الواقع التاريخي " (53) .

إذا سلمنا مع لوكاش بأن الرواية التاريخية تجعلنا نعيش ، من جديد مختلف الدوافع التي أدت بشخصيات الرواية إلى القيام بنفس الأوار التي قاموا بها في الواقع التاريخي تماما ، فهل نلمس ذلك في رواية بامو ؟ وبعبارة أخرى نقول : إلى أي حد ظل وفيا للحقائق التاريخية ؟

إن مقارنة بسيطة بين ما وصلنا من كتابات تاريخية عن الحنصالي وثورته على الرغم من قلتها وتناقضها أحيانا (54) ، يبين ما ورد في رواية بامو يقفنا على عدة اختلافات، في عدة أمور منها :

أ - الاسم : في الوقت الذي تجمع فيه مختلف الكتابات على أن اسم مقاومنا هو أحمد الحنصالي (بن موحى بن حمو...) ، ينكر زياد أن اسمه هو محمد الحنصالي ، وذلك ثمان مرات ، أولها في الإهداء (55). واكتفى بنكر لفظ "الحنصالي" 46 مرة .

ب - الأصل : إذا كانت الكتابات تشير إلى أن مقاومنا ينحدر من إحدى القبائل المجاورة للزاوية الحنصالية، فإن زياد جعله من إحدى القبائل المجاورة لزاوية الشيخ (56).

ج - كيفية الحصول على السلاح : تذكر بعض الكتابات أن الحنصالي حصل على البندقية والرصاصات يوم 9 ماي 1951، بعدما قتل المخزني الذي كان مسلحا

بها ، في حين يذكر زياد أن ذلك السلاح كان قد هربه الحنصالي لما كان عوناً من أعوان البيرو (57).

د - نهاية الثورة : تكاد تتفق معظم الكتابات على أن نهاية ثورة الحنصالي تمت يوم 23 يوليو 1951 ، في مركز تاكزيرت، بعد أن تم التبليغ عن مكان وجوده في حين جعله زياد يستسلم بسبب نفاذ ذخيرته (58).

يتضح من خلال هذه المقارنة أن الحقيقة التاريخية شيء، وطريقة تناولها شيء آخر. ولعل هذا هو ما دفع الأستاذ حميد لحميداني إلى القول : " إن التاريخ بالنسبة للوعي البشري هو دائماً تصور، وهذا التصور لا يمكن أن يكون مطابقاً تمام المطابقة للحقيقة التاريخية ، لأن ذلك يعني الوصول إلى المعرفة الكلية ، كما أنه لا يمكن أن يكون فاقداً لأية صلة له بالتاريخ - باعتباره موجوداً مستقلاً - مهما كانت النظرة إلى هذا التاريخ مغرقة في التجريد وغارقة في الميتافيزيقا" (59) واستنتج في النهاية أن الرواية " لا بد أن يكون لها ارتباط بأحد التصورات للتاريخ بمعنى أنها لا ترتبط بالتاريخ ذاته ، ولكنها ترتبط بأحد التصورات الموجودة عنه" (60).

إن ما اطلعنا عليه يبرز لنا طرائق تناول المختلفة بين المؤرخ والأديب. لكن مع ذلك لا يجل بالأديب - كيفما كان - أن يغير بعض الحقائق التاريخية خاصة إذا كان الهدف ، هو التمجيد وتصوير بعض البطولات والملاحم. لأن ذلك قد يزيد في التشويش على المتلقي ، ويجعله دائم البحث عن الحقيقة التاريخية . ولأمر ما قال تودوروف ، وهو يتحدث عن علاقة التاريخ بالفن القصصي "إن التاريخ هو شيء تجريدي، لأنه دائماً مدرك ومروي من طرف شخص ما إنه لاوجود له في ذاته" (61).

**الموامئ :**

- 1 - الشعر الوطني في المغرب . إبراهيم السولامي . ص : 107
- 2 - نذكر على سبيل المثال لا الحصر :
- تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان .
- تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف ( العصر الجاهلي - العصر الإسلامي - العصر العباسي الأول - العصر العباسي الثاني ... )
- تاريخ الأدب العربي في المغرب لحنا الفاخوري .
- تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري لمحمد نجيب البهيتي .
- 3 - هنا المسرح العربي ... هنا بعض تجلياته . حسن المنيعي ص . 33
- 4 - نفسه ، ص : 33
- 5 - في الثقافة والأدب عبد الكريم غلاب ص : 84
- 6 - نفسه . ص : 84 - 85
- 7 - نفسه ، ص : 85
- 8 - طبعة مطبعة دار الكتاب . البيضاء . بتاريخ : 24 يونيو . 1974
- 9 - بامو . ص : 19
- 10 - نفسه . ص : 21
- 11 - نفسه . ص : 38
- 12 - نفسه . ص . 41
- 13 - نفسه . ص : 121
- 14 - نفسه . ص : 133
- 15 - نفسه . ص : 134
- 16 - نفسه . ص : 151
- 17 - نفسه . ص : 160
- 18 - نفسه . ص : 162
- 19 - نفسه . ص : 163
- 20 - نفسه . ص : 167
- 21 - نفسه . ص : 168
- 22 - نفسه . ص : 168

- 23 — نفسه . ص : 168.
- 24 — نفسه . ص : 169.
- 25 — نفسه . ص : 169.
- 26 — نفسه . ص : 171.
- 27 — نفسه . ص : 177.
- 28 — نفسه . ص : 171.
- 29 — نفسه . ص : 169.
- 30 — نفسه . ص : 177.
- 31 — نفسه . ص : 168.
- 32 — نفسه . ص : 170.
- 33 — نفسه . ص : 169.
- 34 — نفسه . ص : 169.
- 35 — الضمير هنا يعود على الطلقات .
- 36 — بامو . ص : 169.
- 37 — نفسه . ص : 168.
- 38 — نفسه . ص : 168.
- 39 — نفسه . ص : 169.
- 40 — نفسه . ص : 170.
- 41 — نفسه . ص : 170.
- 42 — نفسه . ص : 170.
- 43 — نفسه . ص : 171.
- 44 — نفسه . ص : 171.
- 45 — نفسه . ص : 172.
- 46 — نفسه . ص : 174.
- 47 — نفسه . ص : 174 - 173
- 48 — نفسه . ص : 177.
- 49 — نفسه . ص : 177.
- 50 — نفسه . ص : 173.

- 51 — نفسه . ص : 173.
- 52 — نفسه . ص : 177.
- 53 — الرواية التاريخية جورج لوكاش . ص : 46.
- 54 — أنظر العروض الأخرى المقدمة في هذه الأيام الدراسية .
- 55 — والباقي في الصفحات التالية : ص : 121 ( مرتان ) ، ص : 122 ( مرتان ) ، ص : 123 ، ص : 124 ، وص : 173.
- 56 — بامو . ص : 122.
- 57 — نفسه . ص : 169.
- 58 — نفسه . ص : 173.
- 59 — من أجل تحليل "سوسيو- بنائي" للرواية . حميد حميداني . ص : 24.
- 60 — نفسه . ص : 25.
- 61 — « Les catégories du récit ». in - L'analyse structurale du récit. —  
Communications,8.POINT.198  
P: 133 نقلا عن حميداني . ص : 23.



## صورة الذات ( بحث في التفاعل داخل التعبير السردي )

شعيب حليفي \*

في سنة 1908 عثر البيروفي ريتشارد بييتشمان Pietschmann وهو يبحث في أرشيف دانيش الملكية بكونينهاكن على مخطوط غريب مؤرخ ب كوزكو Cuzco سنة 1613 ، أربعين عاما بعد السقوط الأخير لامبراطورية الأنكا في يد الإسبان.

هذا المخطوط هو رسالة كتبت بمزيج من لغة الكويتشوا Quechua واللغة الإسبانية، موجهة من شخص مجهول إلى فليب الثالث ، ملك فرنسا ، وما أذهل بييتشمان هو طول الرسالة ، 1200 صفحة ، منها 800 صفحة مكتوبة و 400 الباقية بها رسومات شارحة .

عنوان هذا المخطوط هو : " السجل الجديد ، العدالة ، الحكومة الجيدة " .

---

\* - أستاذ باحث بكلية الآداب بن مسيك - الدار البيضاء

ويتضمن نظرة للعالم وإعادة تدوين تاريخ المسيحية، ووصف دقيق لحياة السكان الأصليين لأمريكا، الهنود الحمر وقادتهم (1).

هذا المؤلف المجهول لم يعرف أبداً أن تصوراته التي ملأ بها كل هذه الصفحات ستصبح مادة خصبة للدرس والمقارنة والتحليل، فمسألة الصراع الحضاري والثقافي هما شكلان متلازمان، ذلك أن ثقافة البلد المستعمر تشكل العنصر المهيمن في ثقافة البلد المستعمر، بل إن التحويلات التي تطال اللغة والتفكير هي جزء من تحويل أعمق يوجه الثقافة / الكتابة والشفوي إلى بؤرة مركزة. فأحمد الحجري (أفوقاي) ق 17م خص كتابه «ناصر الدين على القوم الكافرين» (2) للحجاج والدفاع عن دار الإسلام مقابل دار الكفر، بلغة مورييسكية تطبعها ألفاظ مغربية دارجة وكلمات إسبانية وتعابير وسياقات مسيحية ويهودية. فالآخر، المستعمر، غالباً، ما يفرض مواضعه، لا يترك للكاتب المستعمر إلا الموقف.

هكذا ارتبطت الكتابة بما يهيمن عليها، في إطار ما تسميه ماري لويس برايت بالتداخل الثقافي، هذا الارتباط يجيء نتيجة الإحساس بالمفارقة، وحين دخول الكاتب في مقارنة وضعه مع الآخر، آنذاك تلتفت الكتابة إلى السجلات والأثر لرسم صورة الذات وعلامة الأجنبي فيها.

كيف تجلت صورة الذات المغربية في التعبير السردي لحظة صدامها أو انعقادها؟ بمعنى، ماهو الموقف (إيديولوجي فني، معرفي) الذي صاغته الأشكال السردية تجاه الأنا والآخر؟.

إن البحث في علاقة "الانعكاس" هو أمر ثانوي، لأن الجوهر في المسألة هو كيفية التقبل وكيفية الصياغة والتعبير ومدى وضوح الموقف وقوة أبعاده.

في لحظة ضعف المغرب اقتصادياً وسياسياً - خلال القرون السابقة - والإحساس الذي استشعرته النخبة المخزنية، كانت النصوص السردية سجلاً متنوعاً بأشكال الدهشات، تجلى في رحلات سفارية إلى أوروبا، وبالمقابل يمكن

تمحيص الأحكام القيمية ، ونظرة الآخر وكيفية تقبلنا من خلال النصوص التي كتبها بعض المبعوثين الغربيين - تمهيدا للاحتلال \* ثم النصوص التي دونها الضباط المرافقون للحملات ... جميعها تحتوي على صورة المغربي من منظور الآخر وخلفياته التي كان يراها عليها .

— كيف عبرت الكتابة عن حدث الانعتاق ؟

سؤال يفترض أسئلة قبلية عن تجليات المقاومة والتواجد الاستعماري في السرد المغربي ، وهل وجدت بالفعل ، أشكال سردية قادرة على امتصاص وتمثيل هذا التجلي والتعبير عنه بما يوازيه تخطيطا ودينامية وعنفا ؟.

بالتأكيد ، سيحضر التنوع في الإبداع خصوصا وأن المسألة ليست بالصيغة الآلية التي تربط بين تفاعلات الواقع والكتابة من جهة، ثم إن الحدث ليس مشهدا عابرا يمكن أن نتحدث عن تقاطعات رؤيوية ، ولكنه سيرورة مركبة من عوامل شتى ذات ترسبات وإفرازات، وبالطبع فبعد انعتاق المغرب ورحيل الاستعمار عنه تحررت النصوص أيضا واستعبدت من طرف أفكار أخرى جديدة ، ستتحول في بعض المناحي إلى كوابيس ... حيث تشكلت نصوص حاملة لأحلام متجنزة في أوهام الاستقلال، لم تكتب مباشرة لأن الحدث كان أكبر من الكلمات ، والتعبير يضيق عن عنف اللحظة وما تحبل به من مفاجآت ودهشات. كانت الذات تذب وسط النوات... وسط انشغال العام بالكلي وبالمستقبل .

لكن لماذا انكسرت الأحلام المتبخرة واقتلعت نبتة الأحلام من أحواضها ؟

هل جاء الانعتاق السياسي لتأزيم الوعي أم تحريره ؟

— سأتناول ثلاثة أشكال للتجلي بقصد تمحيص بعض الأسئلة السالفة واختبارها لفهم الشكل الثالث عن طريق الشكلين السابقين وما يقدمانه من أدوات للمساعدة على الفهم .

النص الأول قبل الاستعمار الفرنسي في المرحلة التمهيدية ، أما النص الثاني فهو أثناء الاستعمار ، فيما النص الثالث يجيء بعد الاستقلال ، وهو نص " في الطفولة " لعبد المجيد بن جلون.

### هشة الأنا والرغبة المزوجة :

يندرج مؤلف محمد بن إدريس العمراوي " تحفة الملك العزيز بمملكة باريز" (3) ضمن النصوص الرحلية في فترة اكتشاف مرض الذات الجمعية وانكسارها عقب هزيمة اسلي 1844 وحرب تطاون 1860 (وقبلهما استعمار الجزائر 1830) والذي يصادف رحلة ابن إدريس إلى فرنسا لتسليم كتاب السلطان إلى نابليون الثالث بمبررات شتى منها " تكالب النصارى على الثغور والمراسي المغربية " (4) ، فتوجه بكتاب السلطان إلى " طاغية الفرنسيين " ، في ما هناك مبرر آخر يقف على المناوشات التي تقوم بها الجيوش الفرنسية على الحدود المغربية الجزائرية، ومبرر ثالث يشير إلى رحلة ابن إدريس لأنها كانت للطلب من فرنسا وإنجلترا التدخل لدى الإسبان في محاولة الحصول على تخفيض لتعويضات حرب تطاون : (150 مليون فرنك واحتلال تطاون).

كل هذه المبررات تكشف ضعف الذات المغربية إثر هذه الحرب التي عبر عنها المؤرخ الناصري بقوله : " ووقعة تطاوين هذه هي التي أزالت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب واستطال النصارى بها وانكسر المسلمون انكسارا لم يعهد لهم مثله وكثرت حمايات ونشأ عن ذلك ضرر كبير" (5).

لكن النص لن يعبر أو يعكس آليا هذا الاختناق إلا عبر أزمة الذات واندهاشها من عوالم باريس و تكنولوجيتها، فأزمة الذات تبرز في المبالغة ومحاولة إظهار الحفاوة والبهرجة التي استقبل بهما ابن إدريس من طرف المسؤولين الفرنسيين بحثل عن الإعلاء من شأن الذات لرغبة ، مزوجة ، نفسية ، معنوية يللم بها شتات انكساره، فهو الضعيف الذاهب عند القوي ، ورغبة ثانية لتثبيت نجاح مهمته عند السلطان والقراء.

إن دخول ابن إدريس إلى باريس كان في لحظة وضعت فيها أوربا يدها على الاختراعات التكنولوجية والتقدم العلمي ، الأمر الذي جعل دهشة الأنا تمزق (أو تحاول) المعرفة القبلية ، وتخلخلها ، فتضع الأنا في مأزق ذاتها ، لا تقدر على تجاوز الشرنقة إلا بالكلام والتمني وإعلان الرغبة - من حين لآخر - في استحضار هذه الآلات واستخدامها . ففي حديثه عن المطبعة يقول : "...ونطلب الله بوجود مولانا أمير المؤمنين أن يكمل محاسن مغربنا بمثل هذه المطبعة" (6).

إن الدهشة المتخلقة من جراء المشاهدات ليست من موقع طبيعي ، ولكنها تنطلق من الإحساس الداخلي بتفوق الآخر ، وضعف الذات أمام مظاهر ومقومات الحضارة الفرنسية ، وكان هذه الأشياء المدهشة هي المرآة العاكسة لهذه الصورة وبالتالي فهي لا تستدعي المقارنة - في المجال العلمي ، الاقتصادي والتجاري - كما جرت عادة عيون الرحالة. أما الرغبة فهي رغبة مشبعة بالتناقض بين الإعجاب والتحفظ من أخلاق وسلوك الآخر باعتباره فقيها وكاتباً مخزانياً (7).

لكن الشق الآخر من صورة المغرب تبرز في تطور الصناعة الحربية ونظام الجيش بتنظيماته وقوانينه، وهو تحول في الحديث عن رغبة أخرى في الامتلاك، فالصدام بين النحن والآخر ولد عدة صور عند ابن إدريس العمراوي: - صورة الأنا الممزقة بين إعجاب بتطور الآخر ، اقتصادياً وتجارياً وفكرياً والتحفظ عليه سلوكياً وأخلاقياً.

- صورة النحن الضعيفة والتي هي في حاجة إلى نقل أدوات وأسباب التطور.

- صورة الآخر القوي في اقتصاده والمنحرف في أخلاقه.

### هروب الأنا ، لغة الغيب والوعظ :

استطاع ابن الموقت المراكشي بلورة مشروع تموقع بداخله تعبيراً منه عن موقفه ووظيفته كعالم وفقه ، وبالتالي ككاتب يمارس الوعظ والتقويم بالانتقاد والإرشاد . وقد جاءت جل كتاباته للتعبير عن أزمة وعيه الذي سيجنح به نحو اختيارات مهاندة للآخر الأجنبي ومهاجمة الذات الجمعية .

ففي نص " الرحلة المراكشية " (8) يلح على التعبير الخيالي فيهاجم الزمن (الوقت) وأسباب الانحطاط دون الخوض في الاستعمار وويلاته.

" هذه الأمة يزيد عددها على مائتي بليون من النفوس ، وأراضيها آخذة من المحيط إلى أحشاء بلاد الصين وهي تربة طيبة ومنابت خصبة ومع ذلك نراها نهبة وسلبا يتغلب الأعداء على هذه الأمة شعبا شعبا ويتقاسمون أراضيها قطعة قطعة ولم يبق لها كلمة تسمع ولا أمر يطاع " (9) . فضلا عن هذا فهو ينتقد نخبة عصره وكل فئات المجتمع حتى يُنفس عن أزمته .

في النصين الآخرين ، أصحاب السفينة والرحلة الأخروية (10) يعمق التعبير عن شكل مواجهته للذات والواقع وحجم انتقاداته وطبيعتها وبالتالي يكشف عن الخلفيات والإطار العام المتحكم في علاقة فقيه كاتب بواقع مُسْتَغْمَر فكانت تأثيرات محيطه المراكشي بكل التفاعلات الملتهبة ، تتعكس ، فنيا ، وبلغته كفقيه، على نصوصه بشكل آخر ومغاير ، بعيدا عن التقرير متوجها نحو الأسباب الذاتية التي كانت وراء كل هذا ... إنه منظور يعتمد في أساسه على ثنائية المسلم والكافر، فلولا تقاعس المسلم ما دخل الكافر دار الإسلام .

إن التخيل في شكله المتجه نحو عوالم يتم الارتحال إليها هو الصيغة التي اختارها ابن المؤقت المراكشي، ففي نصه " أصحاب السفينة " (1935) يختار السفر لأنه - كما قال القدماء - مرآة الأعاجيب! بحثا عن أصدقاء يحاربون معه الفساد ويبثوا القيم ، متخذا شكل المقامة سبيلا لأفكاره وهو اجسه ، ومن السفينة الواقع الذي يحفل بالمتناقضات وهو شاهد عليها منتقدا لها ، فلم يترك شيئا في المجتمع من ظواهر شاذة وانحرافات إلا وعدده غير متردد في القول : " فواجهنا القوم صباح مساء بالمواعظ والنصائح الدينية، وصدعناهم بالحق ثم حملنا عليهم في ذلك حملة لم نخش لومة لائم خوفا من أن تحل بهم صاعقة إثر صاعقة. وأظهرنا لهم العقوبات الحالة بمن قبلهم من أرباب الغواية " (11) . " وقلنا وآسفاه على فقد النقي والمروءة والفضيلة والعفة والغيرة والوفاء بالعهد والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر والتعاضد والتسامح والموودة والإخاء والتواصي بالحق والتواصي بالصبر" (12).

هكذا يتبين خطاب المراكشي على الوعظ والغيب لعدم نضج وعي انتقادي متقدم يعي الخلفيات والملابسات وأيضا لغة التواصل غير المختنقة التي بإمكانها جعل الكتابة جبهة للإبداع والتحرير.

### صدمة الذات :

يستعيد عبد المجيد بن جلون في نصه السردي " في الطفولة " والذي هو سيرة ذاتية ، أحداث طفولته أثناء الفترة الاستعمارية حيث يمكن تسجيل أربع ملاحظات أولية :

أ - التركيز على حكي طفولة الأنا وسرد بعض ما يضيء جوانبها من أحداث تتعلق بالشخصيات .

ب - الاهتمام بالأحداث المتعلقة بهذا الطفل ، من سفر ، تحولات ، بعض المشاغبات الطفولية ، بعض المواقف الجميلة والمحرجة...

ج - تأثيت النص السير ذاتي بإشارات إلى الوطنية والوطنيين ، والاستعمار.

د - جنس هذا النص كسيرة ذاتية يكفي للبحث عن تدويت الكتابة والروح بعد فترة كبت طويلة طالت الكتابة والكتاب.

السؤال الذي يلي هو كيف يتحدث عبد المجيد بن جلون عن الذات الجمعية من خلال إبراز ذاته الفردية؟.

كل تأويل لن يسلم من تقاطعات عدة يستحكما الثقافي المشدود إلى رغبة الكتابة - بالعربية - عن الذات المغربية وكان السيرة الذاتية المغربية لم تستقم إلا بعد تحرر هذه الذات من الاستعمار والتأثير المشرقي والتفاعل القومي ، نظرا للارتباط الوجداني بين المنقنين المغاربة والمشاركة أو بالمغرب العربي ، والتأثير الواضح لكتابات طه حسين والعقاد وشكيب أرسلان والكواكبي وأضرابهم لما لكتاباتهم من قوة سحرية ساهمت في البحث عن موقع في هذه الثقافة .

والتعبير عن الذات بهذا الشكل السيري هو تعبير عن إحساس عميق باستقلالها وحريتها ، لكن كيف يمكن رصد وتتبع وقائع وأحداث الاستقلال والمقاومة في النصوص الروائية المغربية اللاحقة ؟.

العقد الستيني سيحسم في كل الأسئلة تقريبا ، بل في العديد من الأجوبة التي ستتكرر أمام عنف اللحظات المتلاحقة التي بينت أن الاستقلال الحقيقي هو التحور العام وضمونه تحرير الوعي والخيال ، فجاءت النصوص السردية مغموسة في ضيم الخيبات وبداية ملامح نفق كبير تتصادى بداخله الهزائم والاعتقالات (13). فكانت الكتابات المتبقاة هي نصوص في شكل نزوع محاربين لمواجهة العاصفة والتشعبت خلف أمل ولو كان وهميا محضا ، فحولوا التجربة إلى مأزق حقيقي.

من وجهة نظر أخرى. مازال هناك فقر كبير في استثمار تلك الفترات ، بل إن الرواية المغربية (والسرد عموما) مازال يضيق عن حفر واد يستجلب تلك المياه لسقي أحواض الراهن .

قصور مرده قلة الكتاب وصعوبة الحياة وما يستتبعها من صعوبات في الاستقرار ، رغم وجود المسافة الضرورية بين تلك الأحداث والآن ، ورغم ذلك تتخلف نخبة من الروائيين المبدعين بدأوا يحفرون في العقود الراشية ويستتقون التاريخ والتراث لكتابة المنسي داخل مآقينا الحمراء !.

## الموامش :

Mary Louise Prott : imperial eyes. travel writing and. transculturation, London, — 1

.Routledye 1992



- (2) - أحمد بن قاسم الحجري (أموقاي) : ناصر الدين على القوم الكافرين ، البيضاء المغرب ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية / عين الشق الدار البيضاء ، ط 1 1987 [ تحقيق محمد رزوق ] .
- (3) - ابن إدريس العمراوي : تحفة الملك العزيز بمملكة باريز ، الرباط ، المغرب ، من أدب الرحلات (دون معلومات) تقديم وتعليق زكي مبارك .
- (4) - نفس المرجع ص : 24 .
- (5) - الناصري : الإستقصا ، الدولة العلوية ، الجزء التاسع ، البيضاء ، دار الكتاب 1956 ، ص : 101 .
- (6) - ابن إدريس العمراوي ، ص : 79-80 .
- (7) - عبد السلام حيمر ، صورة الآخر من خلال تقارير الرحلات السفارية (ضمن) مجلة بصمات ، البيضاء ، كلية الآداب بنمسك ، العدد5، ص : 156 .
- (8) - محمد بن محمد بن عبد الله ابن الموقت المراكشي : الرحلة المراكشية أو مرآة المسلوي الوقتية (ج1) البيضاء ، المغرب ، دار الرشاد الحديثة ، (د.ت). [ انتهى من كتابته سنة 1932 ] .
- (9) - المرجع السابق ص : 20 .
- (10) - ابن الموقت المراكشي : أصحاب السفينة أو القرن الرابع عشر . مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، 1935
- الرحلة الأخروية أو المقالة الباهرة في كشف الغطاء عن أسرار الآخرة ، فاس المغرب المطبعة العصرية . 1946 .
- (11) - أصحاب السفينة ، ص : 56 .
- (12) - نفس المرجع ص : 57-58 .
- (13) - أدباء في تلك المرحلة انتحروا معنويا ، منهم من جن أو اعتزل أو إنغمس في وهم ما للنسيان .

## تاريخ الحركة الوطنية في القصة المغربية القصيرة

أحمد زيادي \*

إن الإبداع في سائر صورته وأشكاله الفصحى والعامية ، وفي مختلف أجناسه وفنونه، أصدق من غيره من الوثائق ، لأنه ألصق بالنفوس ، وأقوى على التعبير عن وجدان الأفراد والجماعات والشعوب ، وعلى رصد حركة التاريخ وتبين مكامن التغيرات والتحويلات ، بسبب ما يمتاز به من حرية وعفوية وتجذر في الفطرة البشرية ، واتصال بالحياة الشعبية اليومية، وحيوية في استجلاء المواقف الحقيقية ، وقدرة على استيعاب هموم الشعب وآماله وآلامه ، وعلى الدوام والخلود في ضمير الأمة .

ومن ثمة ، أعتقد أن دارسي تاريخ الحركة الوطنية الثقافي والسياسي والاجتماعي لا يختلفون في اعتبار الإبداع الأدبي والفني وثيقة من أهم الوثائق التي يستندون إليها في دراساتهم وأبحاثهم . وإذا كان من اختلاف بينهم ، فإنما

\* - أستاذ باحث بالمركز التربوي الجهوي الدار البيضاء

يكون في تحديد المنهج أو المناهج التي توفق بين مختلف الوثائق ، وتوحد بين نتائجها .

وفي هذا العرض الموجز سأركز بحثي على إبراز الجانب التوثيقي في القصة القصيرة المكتوبة بالعربية في عهد الحماية ، لأخلص في النهاية إلى اعتبارها مصدرا من مصادر تاريخ الحركة الوطنية المغربية العام .

لقد كانت كل أساليب القول وفنونه وأجناسه ، وسائل تعبيرية في متناول الكتاب الوطنيين ، يسخرونها لخدمة القضية الوطنية ، ولبلوغ أهدافهم النضالية لذلك لم يعنوا بشروطها الفنية العناية التي أولوها لمضامينها وموضوعاتها . وتعتبر هذه الملاحظة - التي هي منقصة فنية في نظر الناقد الأدبي المعني بتطور الأجناس الأدبية ، والأشكال الفنية أكثر من عنايته بالمضامين - مدخلا أساسيا لفكرة هذا العرض ، وهي محاولة إنصاف القصة والقصاصين المغاربة اعتبارا للعصر الذي هو أحد العوامل المؤثرة في الأدب .

واعتبارا لهذه الحقيقة ، لا يسع دارس تاريخ الأدب الوطني المغربي في عهد الحماية ، الذي يتحرى الموضوعية ، ويتوخى الإنصاف ، إلا أن يأخذ بهذا الاعتبار في تعامله مع النصوص الإبداعية ، وخاصة القصة القصيرة . ومن المعارك الثقافية الأولى التي خاضتها الشبيبة الوطنية الواعية ، وترددت أصدائها في القصة القصيرة ، الصراع بين القديم والجديد ، وبين الشرق والغرب . ومن القصص التي عنيت برصد هذا الصراع : ( قصة عمي بوشناق ) لعبد الرحمان الفاسي ، و( سيدي الصغير ) لعبد القادر حسن ، و( صراع ) لأحمد بناني .

ومن الموضوعات التي استأثرت باهتمام كتاب القصة المغربية في وقت مبكر تمجيد التاريخ الإسلامي والعربي والمغربي لمقاومة الدعاية الاستعمارية ومجابهة محاولات التغريب ، وطمس الهوية الوطنية والقومية . ومن القصص المعالجة لهذه الموضوعات : ( جعفرية العربية ) لـ : ح.م ، ( حسناء المرابطيين ) لمحمد الهرايبي ، ( عنراء سبتة ) و( زوارق سعد ) و( الليلة الأخيرة ) وكلها لعبد

الرحمان الفاسي و(الندمان الثلاثة)، و(شهيد) ، و(عزراء ألمرية) : وكلها لعبدالله  
إبراهيم ، و(يوم الفتح ) : لعبد العزيز بن عبد الله ، و(حلم لذيذ) : لعبد الحفيظ  
العلوي ... الخ .

وحين شهر المغاربة سلاح المقاطعة الاقتصادية في وجه الاستعمار  
ومؤسساته الاستغلالية ، حملت القصة القصيرة لواء الدعوة إلى هذه المقاطعة ، ولم  
تقصرها على الميدان الاقتصادي وحده، بل عممتها في الميادين الاجتماعية  
والعاطفية والدينية لما لها من انعكاسات سياسية ، من هذه القصص : ( قصة  
خالمتي) : لعبد الله إبراهيم ، ( المتفرنجة) : لعبد القادر الهاشمي ، (حياة أسرة أو  
تضحية شاب) : لمصطفى الغرباوي ، ( التعصب الأعمى) : لأحمد بن جلون ، (الحج  
إلى بيت الله الحرام) : لعبد المجيد بن جلون .

وساهمت القصة القصيرة بنصيب وافر في مقاومة الظهير البربري وفضح  
أهدافه ومراميه البعيدة. وتعتبر قصة ( أبحث عن بربري) لمحمد حصار من أقدم  
القصص التي قاومت هذا الظهير بالسخرية التي تذكرنا برسالة الغفران لأبي  
العلاء المعري ، ثم تلتها قصص وطنية أخرى تناولت بالفضح والنقد والمقاومة  
جوانب من السياسة البربرية كمحاولة التفرقة بين الأمازيغيين أنفسهم  
وإخراجهم من دائرة العروبة والإسلام ، ومغالاة المنظرين الاستعماريين في  
استنتاجاتهم الخاطئة ، ونشاط الصحف المأجورة والاستعمارية في ترويج نظرياته  
السياسية البربرية ، ونشر نتائجها ، ومن القصص التي تعالج هذا الموضوع  
قصة ( يتاجيان ) لأبي حامد .

وخاضت القصة القصيرة غمار الدعوات الإصلاحية الاجتماعية والاقتصادية  
فانتقدت اغتصاب المياه، وانتزاع الأراضي الزراعيّة من طرف أخطا المعمرين  
واكتساح الرأسماليين الاستعماريين للسواحل المغربية ، واحتكارهم الثروات البحرية  
دون الصيادين الأهالي . ومن القصص التي تذكر في هذا الباب : قصة (غريب)  
وقصة ( صائد الأسماك ) وكتاهما لعبد المجيد بن جلون .

وأثار غزو البضائع والمصنوعات الأجنبية للأسواق المغربية، عدة دعوات لحماية المنتوجات الوطنية وتشجيعها . وقد تفهمت القصة المغربية القصيرة وضعية الصناعة المغربية ، واستوعبت مواقف الوطنيين من السياسة الاستعمارية المتبعة في المجال الاقتصادي ، ودعت إلى تشجيع الصناعة الوطنية التقليدية والعصرية . ومن أشهر القصص التي اتخذت مواضيعها وشخصياتها وأجواءها من هذه القضايا قصة (الفتى النساج) : لعبد المجيد بن جلون .

وعكست القصة وعي الكتاب الوطنيين السياسي ، فانقدت سياسة القوة التي كان الاستعمار ينفجها في المغرب ، وسخرت من نتائجها الخاطئة ، وتصدت لمحاولة الإلماج والوحدة الفرنسية. ومن القصص التي تعرضت لهذه القضايا من زوايا مختلفة ، قصة ( فتاة من باريس) : لعبد المجيد بن جلون ، ( في لذيذ الحلم) : للتهامي الوزاني ( ضحية صورة) : للهاشمي الفيلاي ، و(قال بمنة) : لعبد القادر الصحراوي . وإذا كانت التصريحات السياسية الرسمية قد أهابت بالمغاربة إلى الانخراط في صفوف القوات الفرنسية خلال الحربين وفي أعقابهما ، لما في ذلك من استراتيجية سياسية ، فإن القصة الوطنية اتخذت موقفا مخالفا عبرت فيه عن الموقف الشعبي من جهة وعن موقف القادة الوطنيين الذين كانوا في مأمن من بطش قوات الاحتلال من جهة ثانية ، مثل موقف الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي - وهو في مصر آنذاك - المعارض لإرسال مجندين مغاربة إلى جبهة الهند الصينية ، ومن القصص التي ينبغي الإشارة إليها في هذا السياق قصة ( بحيرة الأحلام ) لأبي شفيق.

ولم تغفل القصة القصيرة قضايا العمال الحيوية، ومطالبهم النقابية ، فقد انتقدت اجتياح المعمرين الأوربيين للبادية المغربية ، واستحوادهم على أجود مناطقها الفلاحية ، و أخصب أراضيها ، وتشريدهم لأصحابها واستعبادهم مما ترتبت عنه حركة نزوح واسعة إلى المدينة ، حيث الرأسمال الجشع الذي كان يتلقاهم أقوىاء ويلفظهم عاجزين ، ومن القصص التي تعرضت لبعض قضايا العمال النقابية

والاجتماعية قصة: ( قصة عامل ) للهاشمي الفيلاي ، و(وحي الصورة أو تشسين  
ساحة النهضة ): لرسام ، و(عينان في الظلام) و(غريب) و(وادي النماء) وهي  
لعبد المجيد بن جلون .

وعنيت القصة القصيرة بتصوير تجربة الاعتقال والسجن والتعذيب والنفي  
وخلدت الكثير من الحقائق المتعلقة بهذه التجربة السياسية القاسية ، وانتقدت  
بالخصوص بعض الأساليب القمعية التي انطبعت بها سياسة الحماية الفرنسية وهي:  
الظلم والنقمة والخطأ والاشتباه .

ومن أشهر القصص التي اهتمت بتصوير هذه التجربة: (خلف قضبان الحديد)  
و(المنتقم) وهما لعبد المجيد بن جلون . وأبرزت القصة القصيرة المشاركة الشعبية  
الواسعة والقوية في المجال السياسي ، والاستجابة للأفكار والمواقف الوطنية من  
مختلف فئات المجتمع المغربي . هذا ما عكسته قصص عبد المجيد بن جلون:  
(المنتقم) ، (الملك غير المتوج)، (خلف قضبان الحديد) . وبقدر ما كان أقطاب  
السياسة الاستعمارية يحوكون الدسائس لعزل السلطان عن شعبه ، وشغل الشعب  
عن ملكه ، كان جلاله الملك والوطنيون يعملون معا على إفشال تلك المؤامرات  
خاصة بعد إعلان (ظهير 16 ماي 1930) وقد احتفت القصة المغربية الوطنية  
بمواسم الزيارات التي كان العاهل يقوم بها من حين لآخر إلى أقاليم المملكة  
ودعت الشعب إلى التمسك برموزه الوطنية في مختلف مظاهر حياته الخاصة  
والعامة فأصبح مجرد الهتاف باسم جلاله الملك " نداء للحرب " - كما يقول  
روم لاندو - . ومن القصص التي تذكر في هذا المنحى الوطني : قصة (عودة  
الروح أو حلم أرزة على قمة الأطلس): لمحمد الزيزي ، وقصة (بحي بن يوسف)  
لعبد المجيد بن جلون

وإذا كانت الكتابة القصصية المقاومة لم تزامن الفعل المقاوم ، ولم تواكبه  
لأسباب يضيق المجال عن ذكرها في هذه العجالة ، فإن رواد القصة المقاومة لم  
ينسوا بطولات الرعيل الأول من المقاومين خلال الثلث الأول من القرن العشرين

في شرق المغرب وشماله وجنوبه ، نذكر هنا قصة ( اللحظات الأخيرة) التي استلهم فيها عبد المجيد بن جلون ملاحم المقاومة الشعبية في منطقة بني يزناسن للغزو الفرنسي بقيادة ليوطي ، وقصة (عائشة) التي استوحى فيها الكاتب نفسه ملاحم المقاومة الشعبية في جبال الأطلس ، وقصتي (شقراء الريف) و (في هضاب الريف) لعبد العزيز بن عبد الله ، وقد خلد في هذه بطولات المجاهدين الريفيين في معركة أنوال ، وقصة (الأسيرة) التي كشف فيها عبد المجيد بن جلون عن الجوانب الشعبية لحرب الريف التحريرية . ولا تفوتنا الإشارة إلى قصتين تدوران في هذه الأجواء أيضا للحبيب جاماتي هما : (عائشة المغربية) ، و(رسالة وامرأة) .

وما كانت المقاومة الشعبية المسلحة تتبعث من جديد في أوائل الخمسينيات حتى سارعت القصة إلى مواكبتها مخلدة بطولات المقاومين وعمليات جيش التحرير . ومن القصص المقاومة قصة (عودة حسين) لعبد المجيد بن جلون ، و(ليلة في بوزينب) ، و(رائحة القرنفل .. بن صالح) و(لحظات الموت في تيزي ويسلي) وكلها للوسدادي .

لقد ساهمت القصة القصيرة الوطنية مساهمة فعالة في التاريخ الحي للوطنية المغربية ، وفي تخليد إنجازاتها ، وتمجيد بطولاتها، وتكريم شهدائها ، وإكبار تضحيات مقاوميهها، و التتديد بالخونة والمنشقين عنها ، مما جعل المرحوم علل الفاسي يبوئها مكانة الريادة في أدب المقاومة العربي في مختلف مراحل وصوره الاجتماعية والسياسية والنضالية في قوله : " والقصة المغربية ، ولاسيما القصيرة أصبحت تكون لونا من أدبنا ، متعدد النزعات، ولكنه يمتاز بأصالته ومغربيته ، وقد تفوق على القصص العربية الأخرى بسبقه إلى تناول جوانب لم تكن تحظى بالعناية في الأدب العربي قبل أن يتناولها كتابنا الأحرار، فقد سبق المغاربة إلى كتابة القصص العديدة عن أدب المقاومة، كما سبقوا إلى تسجيل اجتماعيات الحركة الوطنية وظروفها، وإلى النقد الاجتماعي، والدعوة لتحرير المجتمع من أثر الرق والفيودالية وتصوير تعاسة الفلاح والصانع والعامل " .

وقد تميزت القصة القصيرة المقاومة بمميزات أهمها طغيان الواقعية والتوثيق والتسجيلية على أحداثها وشخصياتها بل على بنائها وحوارها أحيانا ، حتى إن القارئ المطلع على تفاصيل الأحداث والوقائع التي كانت تنشرها الصحافة الوطنية أيام الحماية ، يكاد يجزم أنه يقرأ سيرا لمقاومين معروفين ، وتفاصيل لأحداث معينة .

وإذا كانت القصة القصيرة الوطنية قد أفادت من الحركة الوطنية شرف القضية والمضامين والمواقف والرموز والعناصر الوطنية ، والتراكم الكمي الذي سيصبح - فيما بعد - رصيذا تجريبيا ، وسيتخذ أساسا لبناء صرح القصة المغربية الحديثة فإن التزامها بالقضايا الوطنية من جهة ، وتناول العديد من الكتاب الوطنيين غير الموهوبين على معالجتها باعتبارها مجرد لون من ألوان الكتابة المسخرة بعناصرها التقليدية المتعارف عليها ، لخدمة القضية الوطنية ، من جهة ثانية ، كان عائقين ذاتيين وموضوعيين حالا دون الرقي بفنيتها التجنيسية إلى المستوى الذي وصلت إليه في المشرق العربي وفي الغرب عصرئذ .



## انعكاس المقاومة في التعبير الفني

- نماذج من أغاني الجهاد الأمازيغية
- المقاومة وانعكاسها على المسرح المغربي



## نماذج من أغاني الجهاد الأمازيغية

- الملكي المالكي

### أنشودة الفقيه سيدي صالح (1) حول حرب الصوري (2)

- ملي دخلت الهري إنها معركة تفوق مريمان (3)  
 كال القايد المحزونني في حلفاتو  
 النصراني نخلك ولا تخلييني  
 إيلا قتلوكم المرتزقة ( الكفار ) أو جرجروا عائشة (4)  
 أو ميمونة ماتت أفاطمة رحو اللي شافك يشيب (5)  
 إيلا فكرنا نبقاوا نبيكوا على تيحيت ومحجوبة  
 كال بوزقور (6) يسمح الفسيان ل مسعود (7)  
 (...) (...) (8) (...)

ناض البراح : أشلوح باش تنوضوا

اداو المحزوني إيمازيغن باش تفكوا هذا المشكل (9) على الرغم من البتر الذي أصاب الأنشودة من جراء ما اعتري ذاكرة الراوي من بعض نسيان فما زالت هذه الأغنية محتفظة بقوة بالوقائع . نلاحظ وصف هذه الأغنية للمعركة ثم تأريخها لأحداثها . إن وقوع معركة الهري أصبح بمثابة حدث للتاريخ " ملي دخلت الهري " بمقارنتها مع معارك قصيبة . واقتربت الهري بقسم الزعيم موحى أوحمو الموجه ضد الفرنسيين حول النصر أو الهلاك . وخاطب يمليازن ( أي الشاعر الأمازيغي ) مجاهدي زايان، من خلالها حول قتل الغزاة للمدافعين وجرح وقتل زوجات القائد الزاياني . وحاول الشاعر تلخيص مختلف المشاعر والحوادث في معاناة إحدى زوجات القائد بقوله : "اللي شافك يشيب" . ثم استترك منبها إلى عزم جدوى استمرار البكاء على بعض الشخصيات المفقودة في ذلك اليوم المشهود . وصعد الشاعر من ندائه مخاطبا المجاهدين على لسان واد بوزقزر أحد رواقد شبوكة ( رافد أم الربيع ) والذي سألت فيه كثير من دماء المجاهدين وغيرهم حتى أصبح مأوه حراما ( اختلطت فيه الدماء ) ، وذلك من أجل النهوض ضد الغزاة .

### أنشودة آيت أوكوميد (10)

ها أنذا سجين

لم أقم بالحرث ، ولا بدرس السنابل ، أنا في حالة يرثى لها

أيتها الأكواخ الفقيرة ، التي لم تعد إلا أنقاضا !

أيتها القبلة ، لقد حطمت أساكا ، وهدمت تاعدليت

إنني أسخر منك ، حتى ولو صارت " بزا " و " تاكوعت " مشتعلة

إنني أحتقرك ! أحتقرك ! أحتقرك !

إنه من أجلك وبسببك كان نبي ومرشدي قد قال بأن هذا سيحدث لي

( إن المؤمن مصاب ) .

من أحب الجهاد توجب عليه أن يعاني مما يصيبه

ومن أجل الجهاد تركت الأكواخ وهجرت الأخصاص والدشور ،  
 عدت إلى القصر (11) لأنه يثير انفعالي .  
 عندما نحلم بأن دشورنا ومخازننا كانت للجميع  
 وأن جدرانها حمت غلالنا من طمع الأعداء  
 ولما نرى جدرانها المصنوعة من التراب المدكوك تتفتت فوق بعضها على  
 الأرض ،

وتخترق جدرانها الأخرى بواسطة قنابل المسيحيين الملعونين ،  
 فأبني عندئذ أضغ نفسي رهن إشارة أيت أوازود الذين استطاعوا مقاومتهم .  
 سأجيء عندكم ، سأتقدم هناك إلى أعلى الجبل لأحلب نعاجي ،  
 حتى ولو قدموا ، فإن الطابور لن يحلم أبدا بالوصول .

وفي الأغنية الثانية نلاحظ تشخيص أحد مجاهدي آيت أوكويد لحالة لجوء  
 الجماعة المذكورة ، بواسطة نظم أو أنشودة سميت باسمهم . وهذا نوع آخر من  
 القصيدة الوصفية التسجيلية لحياة الجماعة المذكورة في ظروف الغزو والمقاومة .  
 وقد عبر الإيمليازن عن ذلك بعدة أفكار :

الفكرة الأولى: تشبيهه حالة اللجوء بوضعية السجن أو النفي الذي نكر بأبرز ما  
 ميز وطبع حياة الغربية واللجوء بالنسبة لجماعة الفلاحين المجاهدين ، وهو عدم  
 التمكن من القيام بالأشغال الفلاحية الضرورية من حرث ودرس حتى أصبحوا في  
 حالة يرثى لها .

وفي ملجئه يتنكر المجاهد حالة القرى مثل أساكا ، وتاعدليت ، وبزا  
 وتاكوعت التي حولتها القنابل إلى أنقاض . ويتحول في نفس الفكرة من حالة  
 الإحساس بالغربة والمسكنة إلى حماس يحتقر من خلاله قنبلة الأعداء بتكرار قوله:  
 "إنني أحتقرك" . وأكد بأن مأساة آيت أوكويد مكتوبة كقضاء محتوم . وتحدث عنها  
 النبي ( المومن مصاب ) .

**الفكرة الثانية :** يخرج الأيمليازن من الخاص إلى العام ، متحدثا عن حب الجهاد وعن ضرورة القبول بنتائجه، ضاربا المثل بحاله الذي هو حال آيت أوكويد.

**الفكرة الثالثة :** برز فيها انتماء الشاعر – المعبر على لسان قومه – إلى حركة الجهاد بعد اقتناع قوي ناتج عن رؤيته للشور التي طالما حمت غلالهم ، وقد خربتها قنابل المسيحيين . من أجل ذلك وضع نفسه وجماعته رهن إشارة كل من قاوم هؤلاء المسيحيين، ويعد انخراطه مع آيت اوازود تعبيراً رمزياً عن قبول الانخراط في كل حركة جهاد نجحت في مقاومة الغزو الفرنسي .

وختم الشاعر مؤكدا بأنه على الرغم من حالة المنفى الشبيهة بالسجن ، إلا أن المنفى وفر اطمئنانا لإنجاز أشغال فلاحية ممكنة كالرعي والحلب ، وعاق تسلق طابور الغزاة بسبب مناعته .

### **أناشيد الثورة (12)**

أيتها القباب ، أنت مثل يتيمة

كم تزوج عمك مرغما بدون عرس (13)

أيتها القباب التي يهرع إليها جميع الناس

لقد حلت فيها مدافع النصارى واليهود

لم يعد اليوم يستحق التتزه فيها سوى رجال بيرانسهم، لقد صاروا يتجولون في دار الأبطال (14).

أيتها النساء ، ابكين لهذا الذي حدث لي

الخبز البارد وحساء سكو يسببان لي المرض (15)

يا أمهاوش الذي أنت هذا الوطن ، والذي فيه تتجمع صدقاتك.

قال لك الملك : تعال إليه (16) .

تلخص مضمون هذا النظم في رثاء قرية القباب بسبب سقوطها في يد الغزاة المحتلين. وتحولت بذلك إلى معسكر مدجج بالمدافع بعد أن خرج منها سكانها

الرافضون للخضوع . ومعلوم أن القباب كانت إحدى المراكز الروحية للطريقة الدرقاوية بزعامة سيدي علي أمهاوش.

### تنبأ المهدي (17)

ما زال هذا الفارس ينتظر ساعته (18)

سيترك شعر رأسه طليقا كعادة النساء (19)

أنا قادم بصحبة رجل من الآخرة

وسأحمل السيف وسأعود لمقاتلة الحكم ،

وعندما ينتظر " أفودبوبريد "

سترثع ضجة المحاربين ، وعندئذ فإن القباب ستشم

رائحة اللحم المحروق .

يوضح لنا هذا النظم كيف أتت وطأة الاستعمار بالسكان إلى البحث عن كل ما يدفع عنهم اليأس ويبقي بينهم بصيصا من الأمل . وهكذا تصوروا ضرورة الخلاص وجسدوا فكرتهم في " المهدي المنتظر " الذي سيجيء ليظهر البلاد من الغزاة وأشكال الظلم بسببهم . وبغض النظر عن صحة أو خطأ ما تخيله الناس ففي ذلك دليل جديد على خصوبة المخيلة الجماهيرية الصامدة في وجه الاحتلال الفرنسي والباحثة عن كافة الوسائل للمقاومة من أجل الخلاص .

### مكتوب آيت خليفة (20)

يا تادالا ، أنت القضية ، وإليهم تستسلمين

لقد غزوا كل السهل ، وصار العرب خاضعين .

حاصرنا الروم ، فلتتظري ما وقع رأي العين ،

ولتتظري ما جرى ، لقد حاربونا " ويلاهم " وأصبحوا مستقرين ،

ما الذي أستطيع أن أفعله ضدهم : في بيتنا أصبحوا حاكمين ،

بنوا معسكرا ، وأبراجا ، قد باتوا فيها معسكرين ،

نحن أم هم أسد بدون رأس ، يا عائشة

هل تستسلمين لهم قبل أن يحلوا عندك .

لكن إذا الرومي أراد نهب غنمي ... فما الذي يجب علي عمله ؟

ماذا أفعل في الركاب انذي التزمت فيه بالسير على قدمي ؟

ماذا أصنع بالفرس الذي أركبه ؟

فلنشق طبولنا إذا نحن توقفنا عن الجهاد ، نحن المسلمين .

نلاحظ بأن هذا النظم بمثابة وصف على شكل رواية لوقائع الغزو وخضوع القبائل

العربية ، وحصار الأمازيغيين بالأطلس ، وإيراز قضية الساعة وهي غزو واحتلال

تأبلة. وورد فيه نكر لوسائل الغزو كالمعسكرات والاستحكامات ، ثم تساؤل وحيرة

حول ظاهرة القوة العاجزة سواء من طرف الغزاة المحاصرين للأطلس والعاجزين

عن اقتحامه أو من جانب الأمازيغيين المعروفين بالشجاعة والعاجزين بدورهم عن

رد الغزو، وهذا ما لخصته لفظة " نحن أم هم أسد بدون رأس "، ثم تجسيم

صعوبة اتخاذ قرار إزاء الغزو "يا عائشة" مقابل ضمان تحقيق الأمن

وسلامة المتاع "هل تستسلمين لهم قبل أن يحلوا عندك ؟". ويزداد التساؤل

حيرة عندما لا يجد الشاعر إجابة شافية على استفهاماته :

— إذا أراد الرومي نهب غنمي ، ما الذي يجب علي عمله ؟

— ماذا أصنع بالفرس الذي أركبه ؟ الخ .

وفي ذلك إقرار بالعجز العسكري أمام تفوق الغزاة الفرنسيين . ومع ذلك

لايعترف الأمازيغيون بالهزيمة " فلنشق طبولنا ... " وهكذا تعكس القصيدة حالة

المقاومة حتى وهي في ظروفها السيئة للغاية .

### التيريكراف (21)

طار اللقلق من تنانت حاملا في منقاره النار

وحتى السماء صارت في خدمة الرومي ، وهاهي بدورها تضربني ،

أيتها التيريكراف ، إلى أين تحملين الانقلاب ؟

سرفت للطيور أجنحتها وللأسد أصواتها

تحميلين القنابل الحارقة ، ويقال إنك تتقلين المدافع ،  
كلما سمعنا هديرك يصيبنا الرعب .

يا عيشة ! جعل التيريكراف حياتنا لا تطاق  
ضربنا قرب مسكننا ، وضرب أغنامنا وكلابنا  
وكلما أخرجت ماشيتي ، وسرت بصحبة غنمي  
فاجأني التيريكراف بطلقات رشاش الردي .  
أيها التيريكراف ، حيثما كنت لن أسكن أبدا .

• • •

أيتها البنات الشابات ، يا رجال الخيام  
لم يبق شيء لم يخترعوه .

زرعوا الحياة في الخشب وأطلقوه في الهواء .

هي في الأجواء ، لا يصلها الرصاص

تقلت من أيادي ، ولا يمكنني القبض عليها .

يا سيدي محا ، بربك ، إلغنها ، وادع عليها بالفناء

لتسقط عندنا ونقبض عليها ،

ليتمكن قلبي في الأخير من تحقيق ثأره .

نلمس من خلال هذه القصيدة التصور الأمازيغي - على بساطته - لتقنية  
متطورة هي الطائرة والطيران . وبذلك تجلى لنا فيها البعد الكوني  
الشوبنهاوري (22) . وعلى مستوى اللغة نلاحظ دخول لفظة جديدة إلى  
الأمازيغية: "التيريكراف" التي تعني عندهم الطائرة المسلحة. وتم تشبيهها بالطائر  
القلق الحامل في منقاره للنار . وقد استعارت القصيدة أعضاء حيوانات معروفة  
كالأجنحة وأصواتها كهدير الأسد ، وعدة رموز كالروح في الخشب الخ ، لمحاولة  
وصف الطائرة. وتعكس القصيدة احتلال سلاح الطيران لمكانة مهمة في الغارات  
الفرنسية ضد الأمازيغيين وإلحاق أضرار فادحة بهم وتشريدهم . وعلى الرغم من



الإحساس بالضعف أمام تفوق العدو، وما نتج عن ذلك من اندهاش شديد وخسارة  
إلا أن الأمازيغي لم يفقد صوابه كلياً . وظل صامداً وتمنى لو قبض على هذا  
السلاح وثأر لنفسه منه. ولم يفقد الأمل في أن تلحق بالتيريكراف لعنة المرابط  
وتصيبها بالفناء .

### سقوط بوعطاس في بلاد " البربر" (23)

خضبت الشمس قمم الأطلس الكبير  
غاسلة بأشعتها قصبية بوعطاس  
كوكرياز منعزل في بلاد أيت سخمان  
وفي الجبل الثائر في عمق بلاد زايان  
في كآبة الغروب المخيفة

• • •

وفيما وراء مرامي السهام ، علا نشيد حزين  
لأن توكر العتيقة ، باكية مثل أم  
عبرت من خلال أنفثها الأمازيغية عن عظمتها وكان لسان حالها  
يردد :

" أصابتنا التعاسة ... فلتنرفي الدموع  
يا أرض مولدي القديمة ...

أيتها البلاد التي رعت أطفالاً نوي شهامة ... مثلما بكوا أوكشال ،  
فلتتظري بكاء قصباتنا الحصينة والعريقة،  
وغدا سنبكي كافة موتانا الأجلاء ...  
من أجلكم ناضل محاربونا الثائرون وقاتلوا  
وأعطيت أسوارنا المحرمة مدفع الرومي ."  
لأنهم فقدوا قطعانهم التي هلكت

فإن إيشقيرن المغربيين واللجئيين الذين تملقوننا ولعنوا الفرنسيس

... وتحذثوا في قصورنا ، من لندا والقباب ،  
 عن الرعب والدم لدى آيت عتاب ،  
 وعن غزاة مخربين لمزروعاتهم ...  
 ولذلك سمعنا في داخل قلوبهم زمجرة ثورة ...  
 يا محاربي الزاوية الأفذاذ ...  
 يا فرسان ألميس ومرموشة ، نوي سرعة البرق ،  
 أبناء بلد أصيل ، والمغرمين بالاستقلال ،  
 ويا صخورنا العتيقة الصاخبة بالمقاومة  
 إنهضوا أيها العتاة ، من العنصر إلى بيرتاو  
 قاتلوا حتى آخر رجل في بوعطاس  
 لحراسة جبالنا العريفة ، وقمنا وتلوجنا  
 وصخورنا المهجورة وأوكر كواسرها ...  
 حتى تنتثروا مثل غيمة هناك ...  
 وحتى تغرق الشمس في اتجاه أغبالا

• • •

ولما نعت بومة بأخبارها الكئيبة  
 لرتمي الجبل ، أخيرا ، في الدياجير الحالكه (24)

كارسيا لوريا.

بعد أن حدد الشاعر إطار موضوعه بأنشودة ، واصفا زمان وموقع القرية  
 الروحية للدرقاويين في خمسة أبيات الأولى ، انتقل إلى رثاتها . ورثاء توكرام هو  
 رثاء بوعطاس ، لأن الأولى تسمية أو كناية للثانية . ويشبهها كذلك بأم باكية  
 ( ثلاثة أبيات الموالية). ثم انتقل من جديد إلى رثاء آخر أو رثاء على رثاء . وهكذا  
 واصل حينئذ رثاء حال القرية بعد أن هيا مطية لذلك على لسان الأم التي هي  
 لسان حال توكرام التي رمزت إلى بوعطاس . وبلغ الأوج في رثاء بتوقع غد أكثر

نحسا وحزنا (الخمسة أبيات الموالية). لكنه انتقل بعد ذلك للدفاع ، ونكر بالصمود وأعطى مبررا للمقاومة " وأعطيت أسوارنا المحرمة مدفع الرومي " ، " لأنهم فقدوا قطعانهم التي هلكت " ، وتحدث عن خلفاء أيت سخمان " إيشقيرن " ، وعن وحشية الغزاة "وتحدثوا (...). عن الرعب والدم" ، "وعن غزاة مخربين" (البيتان رقم تسعة عشر وعشرين). وبذلك تحول إلى استنهاض الحمية في نفوس المجاهدين " (...). سمعنا في (...). قلوبهم زمجرة ثورة" ، " يافرسان ألميس ومرموشة " ، " المغرمين بالاستقلال " ، والحمية في المواقع الحصينة " وياصخورنا العتيقة والصاخبة بالمقاومة ". وبذلك تتجلى شفافية الوصف الذي يتعدى حدود الناس إلى الأشياء ويتجاوز حب الإخوان والمجاهدين إلى حب الجماد من صخور وتلوج وإلى الحيوان (الأبيات من واحد وعشرين إلى تسعة وعشرين).

ويستخلص بالأبدل عن المقاومة ، بالنصر أو الفناء " قاتلوا حتى آخر رجل في بوعطاس ". ويمعن في وصف قتال صامد طوال النهار " حتى تتدثروا مثل غيمة هناك .... وحتى تغرق الشمس في اتجاه أغبالا " .

ويصل الشاعر إلى نتيجة أو تخریجة وهي المصير المحتوم المقرون بنعيق اليوم الدال على الشؤم ، وفي ذلك إيذان بتحول خطير في حياة الأمازيغيين ، وذلك بانتقالهم من الاستقلال إلى الاحتلال. وإن " الدياجير الحالكة " تعني فقدان هؤلاء الناس لحریتهم وأموالهم وخسارتهم لأرواحهم وأمتعتهم وأرضهم ، وتأكدوا بأن لاخير بعد اليوم في ظل الاستعمار الفرنسي ، وأن ارتماء الجبل في الدياجير أو الظلمات الحالكة هو بمثابة عنوان على دخول مرحلة جديدة اختلفت جذريا عن مرحلة عاشها الأطلس لآلاف السنين ينعم في استقلاله ونظمه الخاصة. وبذلك تم تسجيل خضوعه للأجنبي الكافر لأول مرة في التاريخ . وهكذا أصبحت القصيدة في هذا المستوى بمثابة تاريخ لوقائع مرحلة دقيقة في حياة الأمازيغيين .

### الأمازيغيون والثورة (25)

سيدي علي (26)... قيل بأنه لما دخل النصارى إلى تيننتغالين ...

والمسيد ، والمرس ، وتاسفيللت ، والقباب (27) ، فر ايشقيرن إلى  
ديارهم في أغبالا.

كانت قصبته هي فقط أغبالا وبوعطاس (28)

ولما أفلتوا ، صعدوا إلى الجبل ، في الغابة .

قالوا بأنه فيما مضى كانت بلاد آيت سيدي علي هي لندا وتيفتغالين

وأغبالا وتونفيت وتيزي نتيسليت وبوعطاس .

هناك كانوا

بنوا بيوتا لكنهم تركوها عندما ذهبوا صوب وادي العرب.

لقد تهدم كل شيء ، وصار كل شيء خرابا

غير أن كل شيء كان مشيدا .

لقد قامت القصيدة هنا بتسجيل وتاريخ لأحداث دخول الفرنسيين إلى بلاد آيت

مهاوش. واستعرضت أماكن سكنهم ، وسجلت فرار ولجوء ايشقيرن ، أتباع

وحلفاء آيت مهاوش من الغزاة إلى أعلى الجبل ، وبذلك أفلتوا من أيديهم .

ومهدت القصيدة من كل ذلك العرض للوصول إلى خلاصة مفادها تأكيد أن

الناس والقرى والبيوت كانت بخير حتى تركها أهلها هربا من الغزاة الذين

خربوها ولخصت ذلك في البيتين الأخيرين : " لقد تهدم كل شيء ، وصار كل

شيء خرابا غير أن كل شيء كان مشيدا " ، وكان القصيدة بهذه الصياغة البسيطة

ترمي إلى تحميل الغزاة وحدهم مسؤولية الخراب، ومدى ما لحق بآيت مهاوش

وايشقيرن من كوارث.

### **لعنة آيت أوكويد (29)**

شقاء لك أن يكون أبوك خائنا يا إيطو

خائنون أنتم بما أنكم تتحملون المسيحيين

سنبقى أوفياء للطريق التي سطرها النبي

لن تعود لنا وحدتنا أبدا ما دمتم تساندون الحاكم .

يا زينب ، أما زلت لم تتجبي بعد أطفالا مع السباهي ،  
كان من الأفضل لك اختيار حاكمك.

طالما لعن الثائرون الخاضعين ( وهنا الخاضعون من آيت أوكويد ) ، وبكوا  
الانقسام الذي حدث في صفوفهم. وشملت هذه اللعنة الوصف بالخيانة ، وتوجيه  
الإهانة والسخرية ، كما وضح ذلك البيتان الأخيران.

وتكررت في هذه القصيدة كغيرها صورة مرحلة الشقاء التي دخلها  
الأمازيغيون في ظل الاحتلال " شقاء لك أن يكون أبوك خائنا يا إيطو".

### المرأة في القصيدة المجاهدة :

لاحظنا تكرار نكر المرأة في النشيد الأمازيغي [ عيشة ، إيطو ، زينب ... ]

فما سبب هذا التكرار ؟ هل حدث بالصدفة ؟

أولا ظلت المرأة رمزا للأرض في أهميتها ومظهرها وعطائها " نساؤكم  
حرت لكم " (30). ولذلك كان ظهورها في القصيدة ذا دلالة كبيرة . لقد هدف الغزاة  
بالدرجة الأولى إلى احتلال الأرض ( الظاهرة المؤنثة ) ، وهذا مصدر إهانة  
هائلة أو عظمى بالسكان وفي تقديرنا فإنه لا يتلو الأرض في الأهمية سوى العرض  
الذي تجسده المرأة . وهكذا فإن تدنيس الغزاة الفرنسيين للأرض باحتلالهم لها لا  
يعادله تدنيس من نوع آخر سوى المساس بالعرض الذي تمثله المرأة . وهكذا لم  
يأت تكرار نكر المرأة في النشيد الأمازيغي ونشيد المقاومة صدفة ، بل جاء عمدا  
ورمزا إلى عدة قضايا .

وأخيرا فإن المرأة بوجودها وصوتها وشخصيتها ومساهمتها هي مصدر حمية  
وحماس وتعبئة في صفوف المجاهدين ، وما أكثر الأمثلة التي تعزز هذا القول منها  
نورهن في منع المجاهدين من الهروب من ساحة المعركة ( طريقة رش الفلارين  
بالحناء لتمييزهم عن المخلصين ومعاقبتهم في الغد ) ، بالإضافة إلى دور المرأة  
الأمازيغية في مجتمعها كمشاركة في المعركة أكثر من المرأة العربية .

### طريق الأعمدة (31)

منذ ميلادي ، وخروجي إلى هذه الدنيا  
لا أتذكر أنني سمعت حديثا عن هذا :  
طريق منفصلة عن الأرض وعن اليابس ،  
يبدا أنه بواسطة أعمدة كانوا يبنون طريقا  
يتكلمون بواسطتها من هنا حتى مراکش  
وكان المهندسون الفاسدون رهن إشارتهم ، يستخدمونهم .

\* \* \*

أحيي رجالنا الشجعان : وفي جميع الليالي تنقطع الأسلاك  
في كل نهار يصلحون أسلاكهم ، وفي كل ليلة تنقطع الأسلاك ،  
وأنتم أيها الخائنون القائمون بالحراسة  
كل واحد منكم يعانق عمودا  
في الوقت الذي تعانق فيه زوجاتكم  
عشاقهن .

نلاحظ تسجيل هذه القصيدة المجاهدة لحدث مهم واتخاذها موقفا منه . وظهر  
فيها مرة أخرى البعد الكوني (شوبنهاور) وأما الحدث فهو تأسيس مواصلات سلكية  
معلقة (تلغراف ، تيلفون) . وسجل الشاعر اندهاشه من الحدث الذي لم يره ولم  
يسمع به منذ ولادته وسماه " طريق منفصلة عن الأرض ، يتكلمون بواسطتها من  
هنا حتى مراکش " .

وأما الموقف فتجلى في استرجاع الشاعر لزام عقله ، وتأكيد على دور  
العلماء في تأسيس ذلك الطريق . وكان لسان حاله يقول " شر الناس العلماء إذا  
فسدوا " ، لماذا ؟ لأنهم يسخرون معرفتهم لغزو واحتلال ونهب تراب الغير وسلب  
حرية الأمازيغيين ، وسماهم بـ " المهندسين الفاسدين " . كما عبر عن رد فعل  
المقاومة بقيامها بقطع أسلاك هذا الطريق كل ليلة . وأخيرا ، مثلما وصف

المهندسين بالفاسدين ،وصف حراس طريق الأعمدة بالخونة ،وضرب لهم مقارنة مثيرة للانتباه والسخرية ،وكأنه يستفسرهم هل تفضلون معانقة أعمدة وترك عناق زوجاتكم للغير ؟ وربط بين معانقة الأعمدة (إصلاح الأسلاك المقطوعة) وبين انتهاك أعراضهم، وفي ذلك انتقاد شديد واستفزاز وإهانة لا حدود لهما لجميع الذين تخلوا عن قضية المقاومة .

### نشيد أمازيغي (32)

يابنات الانتصارات

ابكين عشاقكم من الأمجاد

• • •

كم كان عددهم

أولئك الذين ماتوا من أجلكم ؟

• • •

بعد صفير الرصاص

ما الذي يعد أكثر طربا وشجونا من أصوات العاشقين ؟

ساهم الإيمليازن في استنهاض همة السكان وتحريضهم على الجهاد . وتعد القصيدة مليئة بالرمز . فالبنات رمز للأرض وعشاقهن هم المجاهدون ، وقد حاول الشاعر الإفصاح عن ذلك في آخر القصيدة، واضعا صوت أو صفير الرصاص في المرتبة الأعلى بين الأصوات الأكثر طربا وشجونا . وإن جعل أصوات العاشقين في المرتبة التالية لها هو تعبير جمع بين الاستعارة (استعارة ألفاظ وصيغ للأصوات المطربة) والإفصاح (أي التجاوب العاطفي بين أصوات العاشقين فعلا) . لكن بقدر ما قد يبدو من تباعد بين الاستعارة والإفصاح المذكورين إلا أن الشاعر صنع منهما ثنائية متلازمة، أو لنقل " ثنائية الحب والواجب " ،حيث يتم تقديم الثاني في العادة على الأول.

### دفاع آيت عتاب (33)

سيأكلون شعيركم يا آيت بوزيد

وعند منتصف مارس سيظهرون عندكم

وسترى أيها الأخ ميمون ماذا تحدث القبلة عند انفجارها ،

القبلة التي بسببها لا تبقى الدار صالحة للسكنى

القبلة التي عندما تختبيء في واد عميق

ستأتي لتسقط عليك كأنها مسيرة باليد ،

لم يبق لآيت عتاب إلا الاستسلام

فما الذي يمكن إن آيت بوزيد أن يعملوه ؟

تعرض القصيدة حدث انهيار دفاعات آيت عتاب واحتلال ترابهم ثم تهديد

آيت بوزيد بعدهم . ومن خلال القصيدة أيضا ظهر أن آيت بوزيد واقعون خلف

آيت عتاب ، أي أن الأخيرين واقعون في مقدمة الجبهة بين الفرنسيين وآيت بوزيد

وذلك بالنسبة لخط سير طوابير الغزاة المذكورين. وهكذا تحولت القصيدة إلى

رواية موجزة لوصف الحدث على لسان مجاهد لاجيء من آيت عتاب بعد أن

انهارت دفاعاتهم بلا شك، إثر تخريب مساكنهم. وقد لخصت شخصية الراوي حالة

لجوء عامة وتراجع أمام زحف الغزاة الفرنسيين . ووصل الراوي عند آيت بوزيد

وأبلغهم بمجريات الأحداث وحسب وصول الغزاة عند آيت بوزيد وذلك في الربيع

(منتصف مارس) ، وأنهم سيأكلون متاعهم (شعيرهم). ووصف لهم الأسلحة الفتاكة

(القبلة ) التي بسببها استسلم آيت عتاب على الرغم من استماتتهم في الدفاع "عندما

تختبيء في واد عميق ستأتي لتسقط عليك كأنها مسيرة باليد". وتساءل في حيرة ما

الذي يمكن لآيت بوزيد أن يعملوه أكثر مما عمل آيت عتاب!

ومن جهة أخرى عكست القصيدة حالة التفوق العسكري للفرنسيين

وكيفية انتشار الأخبار بقيام الضحايا والمنهزمين بإبلاغ إخوانهم الذين لم يتصل بهم

الغزاة بعد .



### وصول الجنيرال أو التظاهرة العشوائية (34)

نعم ، هذه لحظات قاسية ، وأوقات صعبة  
 قلت الحبوب في الحقول ، لأن الثلج قد سقط  
 وأصبح الرومي ساكنا داخل ملابسنا  
 وجاء الرقاص ليعلن " إن الحاكم قائم  
 فاغتسلوا والبسوا ثيابكم النظيفة بالسيف "  
 واستعدوا أيها الفرسان لأننا سنذهب لإحضار العروسة ،  
 ستقفون في الشمس ، بالجملة ، ولا ينبغي لأحد منكم أن يكون رافضا .  
 وأخيرا تسمع هرهرة السيارة ...  
 كونوا الصفوف ، لنقيم السياج حتى دخوله (35)،  
 والآن ، يمكنكم أن تستريحوا أيها الفرسان ، لقد وصلت العروسة .  
 نلتمس من الله ومنكم يا صلحاء البلاد !  
 بأن تحيوا الثورة في هؤلاء القوم ،  
 وبأن يظهر المخلص أخيرا وبأن يتبعوه  
 لنستعيد الطمأنينة أيها الرب الذي نحن تحت رحمته  
 أيها الرب ، اصنع بنا ما تشاء .

وهذه قصيدة ذات نغمة ثورية ، والفكر من خلالها جد متكبر في حزنه وذلك  
 بتقديمها للحاكم النمونجي . ونلاحظ وصف القصيدة للواقع الجديد في ظل الاحتلال  
 وحسب هذه القصيدة فقد تميزت حياة الأمازيغيين بالشدة " لحظات قاسية وأوقات  
 صعبة " . وربط الشاعر ربطا مباشرا بين حصار الثلج وحصار الفرنسيين، " أصبح  
 الرومي ساكنا في ملابسنا"، ليفسر حياة البؤس والذل في ظل النظام الجديد. لكن  
 الفكرة الأساسية التي كرس الشاعر قصيدته لتبسيطها هي السلطة وسلوكها  
 وتمثلت في الحاكم الجديد وعلاقته بالسكان . ومن عنوان القصيدة نفهم ذلك  
 "وصول الجنيرال ...". وقارن الشاعر بطريقة ساخرة بين موكب الجنيرال

والعروسة من حيث المظهر مع وجود فارق عظيم بين المثالين في المحتوى . وقد أرغم السكان على استقباله بشكل كلفهم أموالهم وكرامتهم "الاغتسال واللباس النظيف" على الرغم من فقرهم الشديد ، والوقوف في الشمس في صفوف الخ على حساب أشغالهم . وسمى الشاعر تلك بتظاهرة عشوائية بكل ما عنته من ارتجال وعسف . وبعد استعراض القصيدة لوصول الحاكم انتقلت إلى نقد الواقع الجديد بلا رحمة . ولم يفصح الشاعر عن الذل الذي لحق القبيلة لكنه لمح له " يا صلحاء البلاد أحيوا الثورة في هؤلاء القوم " . وطرح بديلا " بأن يظهر المخلص ، لنستعيد الطمانينة " .

### بعض المراجع

F. Berger : Moha ou HAMMOU le ZAIANI. —

J. DROUIN : Un cycle hagiographique au Moyen - Atlas

... L a Terre Marocaine —

.R . A.I —

— رواية شفاهية .

## المقاومة وانعكاسها على المسرح المغربي محطات... ونماذج

• المهدي الودغيري

في البداية ، لابد من الاعتراف بأنني لست مؤرخا أو مدققا لكل ما سأقف عنده من محطات تاريخية وما سأتطرق إليه من نماذج مسرحية، وإنما ما زلت أبحث عن الأمثلة والأدلة تعليلا وتدعيما لهذا الاعتراف . فمن يتأمل جنور المسرح بمفهومه الواسع يجد أن المغرب عرف هذا الفن في تاريخه القديم على الطريقة الإغريقية البدائية ، وفي شكل " فراجات " ، وما الحفلات الشعبية التي كانت تقام في الساحات العمومية الكبرى خلال العصور المتقدمة كـ " البساط " و"الحلقة" و"سيدي الكتفي" و"عبيدات الرما " إلا صورا لما يسمى في يومنا هذا بـ " المسرح الشامل" (1) ومهما اختلفت الأساليب وتشعبت ألوان التعبير الدرامي ، فإن الغريزة التمثيلية متأصلة في أوساطنا الشعبية ، الشيء الذي سهل مهمة أسرة المسرح المغربي وشجع خبراءها على الإنتاج والخلق والإبداع، رغم كل المعوقات والتمثيلات التي يجدونها في طريقهم ، ذلك أن تاريخ الحركة المسرحية بالمغرب

يخضع في تطوره مفاهيمه ورؤاه ، تجاربه وابتكاراته يخضع لتجربتي الهواية والاحتراف لتوازيهما وتداخلهما أحيانا، كما يخضع لطبيعة المكانة الصعبة التي استطاع هذا الفن أن يلقاها عند الجمهور بالقياس إلى باقي الأجناس الأدبية (2). وبما أن المسرح الشعبي ظل طيلة عهد الحماية يعمل على بث روح المقاومة الوطنية والتمسك بالأصالة ونقد الاستعمار وتعسفاته ، فقد حاولت سلطة الحماية توقيف نشاطه ومنعه كلما تقدم بمحاولة أصيلة . وما أن انتهى الاستعمار حتى أصبح المسرح المغربي يأخذ طريقة جديدة تعتمد البحث عن الشخصية المغربية ومعرفة المشاكل والقضايا المعاصرة والوطنية، وتلك تجربة ظلت تسير قدما باحثة عن نفسها (3) . فلقد أدرك رجال المسرح في المغرب منذ البداية أن المسرح فن حي يتيح لقاء جماعيا لا بد من استغلاله على أحسن وجه ، أن يؤدي دوره في التوعية والإصلاح ، فظهرت مسرحيات يمكن أن نطلق عليها صفة السياسية . ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إن إرهاصات المسرح السياسي كانت تتكون تلقائيا بحكم الظروف المصاحبة . ومن هنا اشتهر بعض الممثلين الهواة بأدوار الأبطال التي أدوها على خشبة . ومن منا لا يذكر محمد القري الذي استشهد بسبب مواقفه النضالية ومسرحياته السياسية التي نسب بعضها إلى عبد الواحد الشاوي خوفا من الرقيب . وليس غريبا أن ترى الإدارة الاستعمارية تراقب كل ما يجري على الأرض المغربية مدركة ذلك الدور السحري الذي يلعبه المسرح في حياة الناس ، إذ ربما فاجأها من حيث لا تحتسب ، ولذلك أغلقت في وجه المواطنين سنة 1944 مدعية أنه وسيلة لجمع أعداد كبيرة من الناس ، مما يساعد على إثارة الشعب ، ولكن ذلك لم يمنع المسرح المغربي من أن يواصل طريقه ، سواء في الجنوب أو الشمال (4) الذي مثلا ، كلما أريد الحديث عن المسرح بالشمال ، إلا ويجرنا الحديث عن مسرح الهواة الذي انفرد بالساحة دون غيره ، وقد استطاع

بوسائله المحدودة جدا أن يكتسب حضورا فعليا ويكسب جمهورا عريضا بسبب ملامسته لقضايا الشعب المصيرية ومعاناته اليومية (5) ويتجلى ذلك في الموضوعات التي كان يتطرق إليها (انتصار الحق على الباطل) التي سنفرد لها تحليلا خاصا) - الوحدة العربية - الوطن ، الخ ... ) ، ومع ذلك ، يعلن عن نفسه كحركة مواكبة أو موازية للحركة الوطنية المناهضة للوجود الاستعماري . من هنا كان حتما أن يولد " المراقب " أو " الرقيب " لقطع الطريق على كل فكرة أو كلمة تعبير من حجم (العيار الثقيل) وفيها (مساس بالأمن العام). وما أكثر الكلمات من هذا النوع من العيار. وما أسهل توظيف التهمة بعد تفتيقها ، فكان ذلك مبعثا لمنع مسرحيات وحل جمعيات وتوقيف عروض ، ومحاكمة أفراد بعد إصاق ما يحلو من التهم كل ذلك في الوقت الذي كان فيه المسرح الإسباني الذي تمثله فرق قائمة من إسبانيا وأخرى كونت بايعاز من الإقامة العامة أو تشجيعا منها، فقدم أعمالا أغلبها ذو طابع ترفيهي ، لأن الغرض الأساسي كان هو الترفيه عن الجالية الإسبانية التي عبرت البحر من شبه الجزيرة - راضية أو مكرهة - لتعيش في جو من الاضطراب النفسي نتيجة أصداء المقاومة الشعبية للاحتلال والتي تجلت بقوة وبشكل عنيف بعد ذلك في الجبال وفي الريف. ونذكر أنه في الأيام التي سبقت عرض مسرحية " مأساة مجنون ليلي " بدأت تعرف مزيدا من المناهضة والمجابهة في وجه النظام الدولي بمدينة طنجة ، ولم يكن أمام جمعية الهلال - آنذاك - أي اختيار آخر سوى الالتحام مع الشعور الوطني الذي كان قضية الساعة في المغرب كله(6) ... وهكذا، وقبل أربع سنوات من عرض هذه المسرحية وصل إلى طنجة الزعيم العربي الأمير شكيب أرسلان الذي استقبله عدد من الوطنيين بترحاب واعتزاز ، من داخل جمعية الهلال وخارجها ، منهم الأستاذ العلامة المرحوم عبد الله كنون والأستاذ محمد أقلعي، وإبريس الحريشي وغيرهم . ومنذ وصل أرسلان إلى المدينة حدث انقسام داخل منظمة الهلال : فبعض الأعضاء استقال ليبرئ موقفه من تهمة سياسية، وهي الاجتماع بالزعيم العربي

حفاظا على منصبه الإداري، وبقي الذين اختاروا الالتزام بمبادئ الوطنية، والسير في جانبها على مصالح الوظيفة . ولكن السلطة لم تكن لديها دلائل مباشرة تدينهم بها، وفضلت انتظار الوقت المناسب لذلك . وكان يوم المولد النبوي سنة 1934 أحسن فرصة مناسبة لقهر الحركة داخل هذه الجمعية ، وكان النشيد الوطني الذي خرج به موكب الهلال في يوم المولد النبوي، بعد أن صدر أمر من السلطة بمنعه هو أجراً تحد في وجه الهيمنة الدولية وعملائها من المغاربة آنذاك، وينتهي استعراض الموكب في هذا اليوم، ويأتي الليل، ويكون هواة الفن من أهل المدينة والوافدين عليها من باقي المدن ، على موعد مع مسرحية "مجنون ليلي" في مسرح سرفانطيس . هكذا نجد أن المسرحيات أيام الاستعمار كانت تكتب وتشخص وتعرض انطلاقا من الإيمان بأنها فعل يجب أن يكون ، فعل تتطلبه الحيلة الاجتماعية اليومية ، كما تتطلب أي شيء آخر ، وقد اعتبر الجمهور تواجده في التظاهرات المسرحية واجبا وطنيا ودينيا ، وهو تواجد مقدس . المسرح في المغرب لم يكن ترفا - عندما وجد - وإنما لأنه مؤسسة تحمي شخصية الإنسان المغربي من الاندثار وتحقق هويته المغربية العربية الإسلامية ، وتمكنه بالتالي من النضال ضد الاستعماري الفرنسي والإسباني(7) . ولعل هذا ما يفسر ظاهرة مهمة ، وهي وجود رجال المسرح في قمة الهرم المجتمعي - والمسرحي كان بحكم هذا الدور الخطير زعيما وقائدا ، وبهذا نجد أن رجل المسرح قد احتل المكانة الاجتماعية لسلفه الخطيب ، كما أنه أخذ دوره ووظيفته في المجتمع ، هذه الوظيفة القائمة على الريادة والقيادة وصناعة القرار السياسي . ولعل هذا ما يفسر أن يكون عبد الخالق الطريس زعيما ومناضلا وخطيبا ومسرحيا. وهذا أيضا ما يفسر أن يكون المهدي بن بركة رجل مسرح ورجل سياسة ورجل خطابة ، نفس الشيء يمكن أن نقوله بالنسبة لمحمد القري الذي دفع بحياته من أجل دوره النضالي والمسرحي ، وهما دوران متلازمان ومتحدان سواء قبل الاستقلال أو بعده. وإذا كان تجدر المسرح في العديد من المدن المغربية قد أدى برواده إلى العمل ضمن

قناعات سياسية ، فإن هذا التجدر اعتمد في الأساس على نصوص عربية ذات نزعة سلفية تعبر عن مواقف وطنية محمودة تتادي بالتغيير والمطالبة بالاستقلال وهذا يعني أن البداية إبان فترة الاحتلال كانت ترتبط بالنضال الوطني وإحياء مفهوم الوطنية . ومن ثم ، فإن الممارسة المسرحية كانت تكشف عن نموذج أسمى للنص المسرحي ، نص يرمي إلى تقريب الخطاب السياسي من الواقع المعيش وإلى إيماج المسرح في التاريخ إلى درجة أن البداية ظلت مضايقة ومضطهدة من جانبين :

أ - جانب الدين الذي اعتبر ممارسي المسرح كفارا .

ب - جانب الإدارة الاستعمارية التي اضطهت العاملين في مجال المسرح .

إن هذه المضايقة هي التي أدت ببعض القادة السياسيين إلى الكتابة للمسرح عن وعي بوظيفته المجتمعية (عبد الخالق الطريس في انتصار الحق بالباطل (1933) وعلال الفاسي الذي كتب قصيدة يمدح فيها مجموعة من الشباب قاموا بتمثيل مسرحية تاريخية ، كما أدت ببعض الفقهاء إلى المساهمة في التأليف (عبد الله الجراري ومسرحية : تحت راية العلم والجهاد / 1928) . وعليه ، فإذا كان المسرح المغربي قبل الاستقلال لا يقوم على ممارسة تستند إلى أساليب فنية مستحدثة ، فإنه قد استطاع مع ذلك أن يفرض نفسه كمسرح فعل ، ومن هنا إلحاحه على إثارة قضايا هامة كقضية التواصل التي تؤشر عليها بعض الكتابات التي تناولت وضعية الجمهور ، وقضية اللغة التي دار حولها النقاش خلال الثلاثينات ، ثم قضية النقد المسرحي . ففي بيليوغرافيا حول " المسرح المغربي قبل الاستقلال في الصحافة الوطنية (9) تمت الإشارة إلى أن وثائق المسرح المغربي قبل الاستقلال متعددة في نوعيتها ، مختلفة في أشكالها ، ولكن المشكل القائم باستمرار ، والذي يواجه الباحثين والدارسين في هذا المجال أن هذه الوثائق قد تعرضت للإهمال والتلف والضياع حتى أن الكتابات التي واكبت المسرح نادرة . خصوصا في المرحلة الأولى ، ولكن رغم ذلك ، فإن ما كتب عن الحركة المسرحية قبل الاستقلال وفي

مختلف المجالات والجرائد التي واكبت هذه الحركة لا يمكن حصره لتعدد هذه المنابر الإعلامية من جهة ، واحتجاب هذه المجالات والجرائد وضياع أعداد منها من جهة ثانية . ومن الجرائد التي اهتمت بالحركة المسرحية اهتماما كبيرا : جريدة " العلم " ، كما أن جرائد أخرى كالسعادة والوداد والمغرب والشهاب والرأي العام لم تدخر جهدا في متابعة الحركة المسرحية التي لا يمكن الحديث عن البداية الفعلية لها انطلاقا من دخول المسرح بمفهومه الإيطالي إلى سوق الفرجة ، أي عن طريق زيارة فرق مشرقية للمغرب : محمد عز الدين ، فاطمة رشدي ، يوسف وهبي وهي فرق وجدت أمامها جمهورا لم يتكون بعد، ولكنه كان يحمل في أعماقه استعدادا كبيرا لتلقي المسرح، وبما أن هذه الفرق المسرحية قد حرصت على تبليغ الجمهور خطابا مسرحيا أنجزه كتاب يعبرون عن قيم نبيلة ، فقد كان تأثيرها عميقا على مجموعة من الشبان الذين اتخذوا المسرح - منذ بداية العشرينات - سلاحا لمقاومة الاستعمار إلى حد أن أحدهم وهو محمد القري أمسى ضحية فيه (10) أما زيارات المشاركة، فلم تكن تسعى إلينا من تلقاء نفسها باستمرار، خاصة وقد أدركنا أهميتها في ظروف المغرب آنذاك ، بل كان المغاربة أنفسهم يهيئون لها يوجهون من يدعوا إليها . ويقول يوسف وهبي في مجلة (المجلة) العدد 144/1982 إنه عندما كان مع فرقته بالجزائر حضر من دعاه لإقامة عروض مسرحية بالمغرب . وهكذا لم تقتصر زيارته على تقديم عروض مسرحية ، بل رأينا أنه اهتم بالتاريخ المغربي وألف مسرحية عن كفاح الأمير عبد الكريم الخطابي ضد الاستعمار (11) ، فيما تقول فاطمة رشدي عن رحلتها لشمال إفريقيا (12) ما يلي : "... ركبنا الباخرة من الاسكندرية في اليوم الرابع من شهر أبريل 1932 . وبعد ثمانية أيام وصلنا إلى تونس ، وقد كان الميناء غاصا بالألوف من التونسيين هرعوا لاستقبالنا وللترحيب بمقدمنا وهم يرددون هتافات الود والمحبة والإخاء العربي من مشرقه إلى مغربه ، فكان الاستقبال حافلا حقا ، وعزفت الموسيقى نشيد المارسلينز فوقنا مكرهين لنرد تحية النشيد ، فقد كانت تونس كجارتها الجزائر ومراكش " أي



المغرب " خاضعة للنفوذ الفرنسي ، وفي آخر ليلة من الحفل - تضيف فاطمة رشدي - سمعت محاوراة بين عزيز عيد وضابط فرنسي ، فسألت عزيز : ما الخبر ؟ فقال ، إنه من ضباط المخابرات يئبى بأن السلطات الفرنسية الحاكمة رأت أن تكتفي بهذا القدر من الرحلة وعلينا أن نغادر تونس فوراً إلى القاهرة ، أي من حيث أتينا، فصرخت في عزيز وأنا أوجه بصري إلى الضابط الفرنسي: ألا يعرف هذا الجاهل أننا نقدم أدبا فرنسيا عالميا ومسرحيات فرنسية عالمية باللغة العربية ؟ وإذا بالضابط الفرنسي يرد علي بلهجة مصرية أنا لست جاهلا يا مدام ... وعلى العكس ، أنا إنسان مثقف وأتقن الفن وأقدره لكن الموضوع هو أنكم تعرضون روايات وطنية تثير حماسة الشعب وتؤجج غضبه وفهمت أن السلطات رأت أن نغادر تونس على الفور ، لا إلى القاهرة ، ولكن إلى الجزائر ومراكش ، وقد سبق لهذه السلطات أن منعت جورج أبيض وفرقة من دخولهما ، ودير لنا الضابط لقاء مع المقيم العام الفرنسي الذي تسلمنا منه إننا بدخول هذين القطرين العزيزين وبذلك سجل تاريخ الفن أن فرقتي كانت أول فرقة عربية ترتاد هذين الوطنين الكريمين بعدما منعت فرق أخرى من زيارتهما ". وبالنسبة لفرقتنا ومسرحيينا - يقول الأستاذ عبد الله شقرون - إنه انطلقا من 1934 سنجد أن الجوق الفاسي سينقسم إلى فرقتين : فرقة جوق النهضة العربية بقيادة عبد الواحد الشاوي ، ثم فرقة الجوق الفني برئاسة الشاعر محمد القري وعبد السلام بن العربي الفاسي ليبدأ الشقاق وتكثر الدسائس والخصومات بين رجال المسرح وأفراد الفرق ، وذلك من أسباب عدم استقرار الحركة المسرحية ، كما أن الجمود على مستوى الإبداع والإنتاج الوطني سيكون هو الطابع الغالب على الفترة الممتدة ما بين 37 - 33 وإذا كانت السنوات اللاحقة قد سجلت تحركا ملحوظا، إلا أن ذلك لا يمنع اعتبار هذه الفترة ، ستعرف ظهور العديد من الفرق التي لم تتمكن من الصمود طويلا كما ستعرف صراعا بين رجالات المسرح حول مسألة اللغة بين العامية والفصحى بالإضافة إلى ظهور حركة نقدية فنية حاولت مواكبة هذا النشاط الفني توجيها

وتقييما ، وتبقى الحركة المسرحية بالمغرب إلى حدود سنة 1941 حركة تعيش طور مراهقتها وتحولها الذي هو طور يفاعتها أيضا ، خاصة وأنها عانت كثيرا خلال هذه السنوات من الانقطاعات، وكانت تفتقر ، بوجه عام إلى الاستمرارية . وانطلاقا من سنة 1945 وحتى سنة 1953 حيث ستتوقف حركة العروض المسرحية العمومية ، ومعها كل مظاهر الاحتفال من جراء إقدام الاستعمار الغاشم على نفي المغفور له الملك محمد الخامس ومعه الأسرة المالكة ، مع الإشارة إلى ما ستعرفه هذه الحركة من انطلاقة مع مطلع عهد الحرية والاستقلال وانتهاء عهد الحجر والحماية سنة 1956. ولاشك أنه في عز هذه السنوات الخمسينية نشأ بالمغرب مسرح البدوي الذي يقول عنه مؤسسه عبد القادر البدوي : منذ سنة 1952، ونحن نعرف أن هذه السنة سنة نضال وكفاح والتزام ووطنية صادقة وإيمان قوي ومعنى ذلك أننا كشباب تكوننا وسط هذه الحركة التي زويتنا بقوة كبيرة تضمن لنا هذا الاستمرار (14) وانطلاقا من هذه القوة المعنوية، وإيماننا منا بثقافتنا العربية عامة ، والمغربية خاصة، وإيماننا منا بضرورة إيجاد مسرح مغربي أصيل يتجاوز المسرح الأجنبي الذي كان متواجدا آنذاك ، أو للفرق التي كانت منضوية تحت أحزاب سياسية كانت تهدف إلى استقلال البلاد ، وبعد الاستقلال ملأت كل هذه الأطر الفراغ السياسي الذي كان حاصلا وملأت المناصب ، وبقيت طبقة صغيرة جدا مستمرة في العمل الفني والثقافي ، ومن بينها فرقة البدوي حاليا أو جمعية العهد الجديد في بداية الاستقلال أو أشبال العمال سنة 1952.

وإذا كانت مرحلة ما قبل الاستقلال قد جمدت الصراع الطبقي ، فإن مرحلة ما بعد الاستقلال هي مرحلة صراع ديمقراطي يطمح إلى فرض ديمقراطية صحيحة عبر قناة جماهيرية تضع حدا للانتهازيين الوصوليين الذين تسلقوا طبقيًا بطرق غير مشروعة ، تجمع بين خيانة الوطن وقضاياها وتغليب المصلحة الخاصة والأنانية على المصلحة العامة. لقد ظهرت طبقة مستفيدة من كفاح أبناء الشعب المغربي ، فكان لهذا الواقع انعكاسه على المسرح ليس على المستوى الفوتوغرافي

بل على المستوى الفني بمعنى أن الأديب يعيد تشكيل هذا الواقع ومزجه بالحلم لا الحلم الرومانسي الساذج بل الحلم الثوري ، إن جاز هذا التعبير ، أي الحلم بواقع بديل (15) . وفي هذا السياق تتدرج عدة مسرحيات يمكن الإشارة إلى بعضها لكي نأخذ فكرة عن هذا الصراع وهذا الحلم . ففي مسرحية " السعد " مثلا ، قام الفنان أحمد الطيب العلي بعملية تعرية لم يلجأ فيها إلى أسلوب حديثي تقريري أو تسجيلي ، بل عمد إلى مسرحية بلاغية تقوم على مجهود مزوج : بنيوي وتحليلي أعطى للنص متانة وعمقا في المضمون الفكري ، فتم له بذلك تجاوز عتبة المهارة الصناعية إلى صف الموقف الملتزم ، ليس من الغريب إذن ، وبغفوية الفنان يصف العلي عمله بـ " الشعبية " لا بالمفهوم القديح الذي درج مجتمعنا إلى إصاقه بكل ما يمت إلى الشعبية السوقية ، ولكن بمفهوم يأخذ منه مصداقية المضمون كمنقف حقيقي يستلهم " الشعب " في فنه وأفكاره ، ويستوحي من همومه وقضاياها ليبت فيه الوعي ويدله بالإشارة الواضحة على ما هو إلى جانبه ومن هو ضده ، ما يضم له الشرور ومن يعمل على ما فيه خيره ، يستعبطه ومن يقدره ويقدر مطامحه في الحرية والكرامة والعدالة (16). وهذا حوار من هذه الكوميديا الشعبية ذات السبع لوحات ، والتي انتهت من كتابتها العلي سنة 1961 ، نورد من اللوحة الثانية التي تدور في قصر الباشا.

— الباشا : من أنت ؟

— الفقيه : " مشيرا إلى نفسه زوجة الحكيم يا سيدي .

— الحاجة جرادة : زوجي يا سيدي بطل الأبطال ، في الجد والنضال والحرب والقتال وتسخر المردة الكفرة من الجن والإنس بالأفعال ، لا لمجرد الادعاء والأقوال .

— الباشا : مرحبا ، ما تطلبه .

— جرادة : تكلم .

— الفقيه : جئت يا سيدي لأضع خبرتي وكفائتي في خدمتكم ... لأحقق أمامكم

معجزة الإعجاز في التنفيذ والإنجاز ... أدلكم على مكان العقد الضائع بالدليل الساطع والبرهان القاطع .

— الباشا : "مندهشا مهتما " ماذا تقول ؟

— الفقيه : القول ما سمعتم يا مولاي .

— الباشا : أوثق أنت من العثور على العقد ؟

— الفقيه : كل الثقة يا سيدي ، وفي ظرف وجيز .

— الباشا : طيب ... ماذا تطلب ؟

— الفقيه : أولا إحضار غزال يوجد ببيتكم يا مولاي .

— الباشا : وأي علاقة لعقد الجواهر بالغزال ؟

— الفقيه : في تلك حكمة يطول بنا مقام شرحها ... الغزال يا سيدي، وبأقصى ما

يكون من السرعة ... ثانيا أعطوني مبخرة والنور النور .

— الباشا : لتفد طلبته على جناح السرعة ... يا حاجب ....

— فضول: حاضر سيدي ( للخدم ) سمعتم جيدا ما قاله مولاي ... هيا أسرعوا

( يباشرون العمل ) .

— الفقيه : ( يخاطب السعد ) نندن يا صاحبي نندن .

— الباشا : ( مستوضحا ) مع من تتكلم أيها الفقيه ؟

— الفقيه : سر المهنة يا سيدي وإفشاؤه قد يضيع الجواهر .. اعني العقد .

— الباشا : احتفظ بأسرارك .

— الفقيه : تماما ، إنه هو بالذات والصفات لا جدال في ذلك ، سيدي يجب أن

ينبح الغزال حالا ... رأس الغزال ؟ !

— الخليفة 1 : يا سيدي هذا رجل نجال " يقولها هامسا "

— جرادة : يا سيدي إذا نبح الغزال وشق بطنه ولم يجدوا عقد ابنتكم الثمين يكون

رأسه المقابل الوحيد لرأس الغزال ، الرأس بالرأس .

ولأحمد الطيب العلي أيضاً مسرحية عنوانها " الشهيد " (17) ، وهي مسرحية من فصل واحد ، نجد فيها جندياً عجوزاً رث الثياب يطرق باب منزل صغير تديره أسرة مكونة من الزوج ملوك وزوجته سكيئة وابناها سناء وضحي ، والثانية ابنتها من زوج سابق . يطرق الجندي الباب ويلح في الطرق ، وحين يفتح الباب تفاجأ سكيئة بمنظر الجندي المزري ، فتكاد تطرده طرداً ، وترغم أن لا أكل بالمنزل ولا مأوى وأن على الجندي الغريب أن يرحل ، وهنا يدخل الزوج ويعلم أن الجندي يملك دراهم كثيرة ، وأنه قادر على الدفع فوراً ، فيعتذر له عن معاملة زوجته ويأمر له بالطعام وبعده أن يبيت بالإسطبل . ينجذب الجندي انجذاباً شديداً نحو ضحي ، ابنة سكيئة من زوج سابق ، يجد لذة خاصة في أن يدعوها ابنته . ومن حديث يدور بين سكيئة وبين الجندي ، وهما منفردان ، نعلم أن الزوج السابق لسكيئة هو هذا الجندي الرث الثياب الذي تقتك بجسمه الحشرات من قمل وبق (18) نموذج من الحوار :

— الجندي : شهداء ... أتسمين ضحايا هذه الحرب شهداء ؟؟ خديعة وأي خديعة !؟ بل أكبر خديعة عرفها الإنسان منذ الأول ... كلمة شهداء هاته أكبر مغالطة يستخدمها الطغاة السفاحون للتغريب بالأبرياء السذج وتقديمهم لساحات الحق والبعوض والكرامية والموت على أنها ساحات الشرف والمجد والعزة والكرامة . بكل بساطة دفاعاً عن أفكار لا يعرفونها ، ولا يؤمنون بها وليقضوا نحبهم قرباناً لحب التسلط والتوسع والسيطرة وفرض النفوذ شهداء ! ! متى كان الذي يموت في حرب ظالمة على غزو الشعوب وإذلال الضعف شهيداً ! ! وشخصية الجندي في هذه المسرحية وفشله في حياته الفنية بعد تسلط النقاد عليه بالنقد اللاذع والسخط والحط من أعماله ، كلها عوامل حددت وعيه ، بل بواعث الفعل عنده ، بعد فشله في العودة إلى زوجته وابنته . ومع أن الطيب الصديقي كان قد اهتدى إلى حل إيجابي عبر تجربة " المسرح العمالي " الذي جعله يعانق مشاكل العمال والكادحين ، فإنه ما فتئ أن تخلى عن هذه التجربة ليغوص في متاهات اللامعقول ، مثل اقتباسه لمسوحيات

بيكيت ويونسكو ، وهي محاولات على أهميتها لا يمكن أن تكون في متناول المتفرج المغربي العادي لأنها تؤطر لعالم تجريدي يضخم ثقافة الوجود ، ويجسد عبثيته. وإذا كان الصديقي قد ولج ميدان المسرح الطليعي من خلال هذه التجارب فإنه قد وقف عند هذا الحد سعياً وراء تغيير اتجاهه ، وذلك باستغلال مادة التاريخ التي قادتته إلى تغيير اتجاهه ، وذلك باستغلال مادة التاريخ التي قادتته إلى تجريب المسرح الوثائقي – المغرب واحد – المولى إدريس – ومن ثم فإن الهاجس الأساسي للصديقي كان يرمي أولاً وقبل كل شيء إلى الانسلاخ عن التجربة المسرحية الأوروبية وإلى البحث عن قالب مسرحي يستوجب التمسك بالتراث ليضفي عليه طاقة حركية تثير اهتمام المتلقي (19) فالاهتمام بالتراث ، كما يؤكد الدكتور عابد الجابري ، له أكثر من علاقة بالهزائم المستمرة التي بدأ بها العرب منذ حملة نابليون على مصر ، ولعل هزيمة 67 كانت أعنف الصدمات التي زلزلت كيان الإنسان العربي ، ولا أدل على ذلك من أن أهم الدراسات التي أنجزت حول التراث قد ظهرت بعد الهزيمة مباشرة. ولقد فطن رواد المسرح العربي منذ البداية إلى غربة التكتل المسرحي العربي ، كما فطنوا إلى أن المستعمر يسعى إلى فرض ثقافته لضرب كل ثقافة وطنية لذلك لجئوا إلى البحث عن هويتهم وتمييزهم فكان التراث هو المصدر الشامل الذي وجدوا فيه ضالتهم ، لأنه يمثل مقومات الأمة واستمرارية تميزها ، ومن هنا لا ننفي الأسباب السياسية التي كانت وراء التجاء المبدع الدرامي إلى التراث ، مادام يجد فيه الرمز التاريخي الذي يعلق عليه قضاياها هذه القضايا لا تسمح الرقابة بطرحها ، ولكن على الرغم من ذلك ، فإن اللجوء إلى التراث كان يحقق بعداً جمالياً خاصاً، وبالنسبة للمبدع ظل يدرك أن مهمته لا تكمن فقط ، في إيصال المعارف ، بل تمكن أيضاً في تحقيق نوع من التأثير والجمالية ، لذلك كان يبتعد عن تناول تلك القضايا تتاولاً مباشراً فالتجأ إلى الرمز والأسطورة والأحداث التاريخية وغيرها من الوسائل التي تحقق هذه الجمالية (21) وتجري حواث مسرحية " عودة الأوباش " لمحمد إبراهيم بوعلو ، في

أحد البلدان التي استقلت منذ بضع سنوات ، حيث تركت أحداث ما قبل الاستقلال أثرها على جميع الأجزاء المكونة لمضمون المسرحية وشكلها، إذ يتحقق فيها الحدث على حساب الكشف عن العلاقات المتبادلة بين الأبطال والإظهار الدقيق لعالمهم الداخلي والظلال السيكولوجية الطفيفة والمعقدة ... ويظهر هذا منذ بداية المشهد الأول في الحوار بين الحارس وعامل المدينة (حافظ المدينة) ، عامل المدينة رافعا رجليه فوق المكتب ، ناشرا بين يديه صحيفة ... ينقر الحارس الباب ويدخل :

— الحارس : المقاومان

— العامل : من ؟

— الحارس : الأعرج وصاحبه .

— العامل : للمرة العاشرة أقول لك قل لهما أنني مشغول .

— الحارس : إنهما يلحان في الدخول .

— العامل : (يصيح في وجهه) من يعطي الأوامر هنا ؟ أنا أم هما ؟ اذهب من أمامي .

إن إنكار الماضي النضالي للمقاومين ، ونفي تاريخهم المليء بالتضحيات من أجل الوطن، قد جعل الإنسان المقاوم يصبح متدهور الأحوال ، مهضوم الحقوق ، منبوذا من قبل الطبقة التي أصبح بيدها اتخاذ القرارات، وهذا ما شكلهما جيدا عند المقاوم، جعله يشغل الأشغال الكامل للبحث عن الوسائل التي يقضي بها على مشكلات اللحظة الراهنة(22). تتسلل حواث مسرحية " كنزة " لمحمد بن زيان الصادرة سنة 1958 ، في الأيام العسيرة التي عاشها المغرب وهو يتخبط في أهول أزمة هددته في كيانه منذ أن فرضت عليه الحماية وسلبت منه السيادة أيام تآمر المستعمرون مع عصابة من الخونة المجرمين الذين دفعهم الطمع والغرور إلى العبث بالعرش والمكر بالملك(23) . الحواث التي جاءت في هذه الفاجعة التمثيلية ليست إلا صورا بنت الخيال، وقد فضل المؤلف الإبداع والابتكار على نقل الوقائع

التاريخية توخيا لطريقة الأديب لا المؤرخ ورغبة في حرية التصرف وخلق المواقف المؤثرة كلما دعت ضرورة الفن المسرحي إلى ذلك . نموذج من حوار في المسرحية .

— كنزة : هوني .. هوني عليك يا أمي ، سيعود أخي إلينا بعد قليل ، ولئن طال بقاءه عند صديقه عبد العزيز في هذه الليلة ، فهذا أمر طبيعي ، لما نشأ بينهما منذ الصغر من الود ، والصدقة ، ولما يوجد بينهما من الوثام ، وكلاهما يحمل قلبا متأججا بالإيمان والإخلاص للوطن ، كما يحملان ثقافة متينة تفسح المجال الواسع للحديث الطويل ، لهذا طال بقاء إسماعيل عند صديقه .

— أم إسماعيل : حديث السياسة طويل ! قبح الله السياسة ! فكم جرت علينا وعلى أبنائنا من ويلات ! وكم جنت علينا دون أن نجني منها فائدة .

— كنزة : لا قبح الله سياسة تشبث بها الأحرار وأبناء المغرب الأبرار .

— أم إسماعيل : أنسيت يا كنزة أن كل مذاكرة في السياسة مؤامرة في نظر الأعداء ؟

— كنزة : بل هي مظهر من مظاهر الوطنية وشغل شاغل لأبطال الكفاح والجهاد ، ولا يجتنبها في وقتنا هذا إلا الجبناء الذين لا إيمان لهم أو الخونة الماكرون الذين باعوا دينهم بدنياهم .

إن تخليد الأبطال في المسرحيات غرض من الأغراض الأدبية يكاد يكون منعما عندنا ولهذا فنحن نلاحظ ويا للأسف فراغا كبيرا في أدبنا من هذه الناحية فباستثناء بعض المحاولات البسيطة لم يلتفت بعد مؤرخونا وأدباؤنا من كتاب وشعراء وروائيين إلى تحليل شخصية أبطالنا القوميين تحليلا علميا مبنيا على الواقع التاريخي. بهذا المدخل يقدم محمد حسن مسرحية " المحنة " ذات الخمسة فصول ، والصادرة عن مطبعة الأندلس بالدار البيضاء سنة 1968 مضييفا بأن هذه الدقة في سرد الحوادث ترتب عنها ، حتما وصف خاطف بسيط لبعض الجوانب من الحالة الاجتماعية والسياسية والقضائية التي كان يعيش عليها المغاربة في



العهد البائد ، وهذا التصوير يجري أحيانا على لسان أبطال المسرحية ويستنتج أحيانا أخرى من الحوادث نفسها .

لقد أراد المؤلف أن ينكر بالفترة المؤلمة التي سـ الجميع يرزح تحت نير الاستعمار الغاشم ، كما يريد ألا ننسى ما قاساه الشعب من محن في سبيل تحريره واسترجاع كرامته المغتصبة وعزته المفقودة وسيانته المفقودة. ولقد كان أمل مؤلف هذه المسرحية أن تصبح هذه الملحمة الوطنية يجد فيها كل مغربي صفحة مشرقة لبلاده . وهذا نموذج من حوار في المسرحية .

— خالد : إنه يعمل منذ خمسة أشهر ونصف كرئيس لقسم الاستعلامات بمدينة تـا هذه، ولقد أدى تعاونه مع الشرطة الاستعمارية والإقامة العامة إلى اعتقال عدد من المقاومين في منظمنا ، فمنهم من قتل ضربا ومنهم من لفظ نفسه الأخير رميا بالرصاص ، ومنهم من يعيش الآن في السجن يعامل معاملة الحيوان .

— أمينة : في دهشة ماذا أسمع ؟

— خالد : إنها الحقيقة التي أخبرك بها الآن يا أمينة ، ويؤسفني أن أزودك بإيضاحات أخرى ( يخرج من جيبه منكرة ويقرأ ) ... ففي يوم فاتح أبريل الماضي اعتقل عبد الرحمان فارس بتهمة المس بسلامة الدولة الداخلي وفي يوم 6 مايو سنته اعتقلت الشرطة سليمان الرحمان بتهمة اغتيال مراقب مدني ، وفي الأسبوع الماضي أعدم المغفور له علي حكيم ونشر خبر هذه الفاجعة في الجرائد، وأعفيك من سماع فظائع أخرى قام بها هذا الجاسوس الخطير .

— أمينة : إنني والله لا أكاد أصدق أنني يا خالد ! في أوائل الثمانينات عرضت جمعية " الشروق " بفاس مسرحية "حكاية الريوس والكسدة في زمان الفقر والشدة" لمؤلفها رشيد جبوج وهي مسرحية من فصلين : الأول من ستة مشاهد والثاني من خمسة حيث تتشد الجماعة ما يلي :

جينا لكم اليوم بحكاية

حكايتنا عندهما بنو ونهاية

هذه قصة بطلها الإنسان  
 هذي حكاية الطفلة  
 ناس تشقى تتعب عايشة فالهم  
 وتروي الأرض بالعرق والدم  
 وناس ما كفاهما اللحم  
 راما تكدد العظم

ناس فئات من الحرث والدراس وناس عيات بالراحة والنعاس  
 البرد جمد عروقنا والظلام غلف أيامنا  
 بحور صارت دموعنا بالفجيعة عرت قلوبنا  
 ومع الريح ضاعت أحلامنا .

إن هذا الإنشاد تنصده حكاية ، حكاية موحا التي يسردها في السجن بعد أن تحلق حوله السجناء وهو يحكي عن طفولته وشدة ارتباطه بالأرض (24). فجانبا من الخشبة خاص بالفلاحين والجانب الآخر خاص بالأثرياء والمسؤول وأحد المعمرين ورغم اختلاف حكاية موحا عن حكاية قدور في المسرحية دائما فإن هناك خيطا فكريا رابطا بينها. فمن هو قدور ؟. من داخل المقهى يعرف قدور بنفسه ، ويشعر في سرد الوقائع المتعلقة بالماضي ، ويتوقف السرد ليتم تشخيص هذه الوقائع المروية من طرفه . إن قدور حينما كشف عن تورط أبيه في تعامله مع الاستعمار ، كان ذلك الكشف ناتجا عن موقف انتقادي من جانب الابن ، من هنا إن ينطلق الفهم لما تعنيه الريبوس والكسدة في زمن الفقر والشدة ! أما في المسرحية الزجلية " معركة أبو فكران " وخاصة في فصلها المعنون " المحاكمة " : المتهم يصير قاضيا " ورد هذا النموذج من الحوار الذي يعلق عن نفسه بنفسه بعد أن ينادي رئيس الجلسة على المتهمين والشاوش يعيد الأسماء بصوت عال " أحمد بنشقرن ، مدان السلوي ، الفقيه برادة ، العلمي العرائشي ، الهادي بن الطايح

والتعرف على هوية المتهمين والتأكد منها حسب ما جاء في المحضر وبعد إجابات المتهمين تتدخل النيابة العامة قائلة :

— النيابة العامة : تهاجمات إدارة بعض الصحف الأجنبية شكون هما مالين القضية ؟ إلى ما كنتوش أنتما أسباب هاد الفساد وهاد السبية ، وإعطونا وريونا مالين القضية .

— مدان السلاوي : هذا طعن ، هذا شتم ، فحق ناس التتوير وناس الوطنية .

— أحمد بن شقرون : ارتكبتوا غلط، واليوطي تياكد كلامي حيث قالوا بلساني : "الحماية غلط... غلط علاش ؟ غلط لأن الإدارة الفرنسية ما عطاتش للرعية المغربية وقت وأهمية .. تتعرفوا أن الرعية هي أساس نظام الدولة ، هي المرجع هي أساس المعيشة السلمية والسلم هو السلم اللي سلمت معاه مصالح الأمة وحقوقها الوطنية ... والأمن هو اللي تبيضن للأمة سيادتها ، حرمتها كرامتها تحميها ويوفر ليها الأمان والراحة والديمقراطية.

— النيابة العامة : ما كانش عندنا نوايا خلفية ، ولا سوء نية ، مقصودنا كان باين واضح، قمنا بعملنا على أساس تعايش الأديان بصيغة سلمية ،

— أحمد بن شقرون : أحنا نتقاوموا مثل هاذ الصيغة السلمية ، نتقاوموا الاستعمار بمعزة ، كان هنا أو فغزة ... قلبنا ... إيه قلبنا الجلاب واستكرنا ودرنا ، وشددنا على الريبوس كحلة راية ، بعدما كانت بيضة رزة.

— الهادي بن الطايح : "... الأمر واضح ما خاصو تفسير ، هذي ماشي قضيتي ماشي قضيتنا ، هذي قضية أمة للنور بغات ، تسير ، هذه قضية شعب باسم القانون والمصلحة العامة وأمن البلاد نهبتوا أرضو، جلدتوا ، قطعوا التامر فغراسو ... يمكن يرد لظاه تتوير، واستلطف ، واحبس انفاسو، لكي اللي فراسو برواه باقي فراسو ". ونختم هذا العرض المتواضع بنموذج من المسرح المغربي كان من الأولى أن نستهل به هذه النماذج، ولكننا تعمدنا أن يكون خاتمة لها لكي يترسخ في الأذهان أكثر أن مسرحية " انتصار الحق بالباطل " لعبد الخالق الطريس تعتبر أول

مسرحية طبعت في المغرب ، إذ صدرت أول مرة عن المطبعة المهدية بتطوان سنة 1351هـ (26). وقد وصفها مؤلفها في الغلاف بأنها رواية تمثيلية في ثلاثة فصول) وهذا ما من شأنه أن يقوي الاهتمام بها باعتبارها أول نص عرف طريقه إلى المطبعة، وأن يجعلها في متناول الدارس والناقد والمخرج والممثل وغيرهم ... بالنسبة للعنوان " انتصار الحق بالباطل " هو عنوان ضمن المسرحيات الاجتماعية ويشترك مع مسرحية أخرى في الكلمة الأولى من عنوانها ، وهي مسرحية "انتصار البراءة" لمحمد الزغاري . مما يلفت الانتباه أن بعض الباحثين يعتبرون أن هذه المسرحية أول إنتاج مغربي عرفته الحركة المسرحية في تلك الفترة ، وإذا كانت "انتصار الحق بالباطل" تمتاز بسبقها للنشر ، فإن " انتصار البراءة " تمتاز بكونها أول لبنة وضعت في صرح التأليف المسرحي المغربي ، وكلتاهما انتصار في فن جديد لم يعرفه أباؤنا وجمهورنا إلا في عشرينات هذا القرن (27). وإذا وقفنا قليلا عن عنوان مسرحية " انتصار الحق بالباطل " فإننا سنلاحظ أنه عنوان غير بعيد عن الفكر التجاري، وأنه مطابق لموضوع المسرحية ، وأنه يدفع إلى توقع النهاية ، وأنه يذكرنا بالآية القرآنية : " قل جاء الحق وزهق الباطل ... إن الباطل كان زهوقا " وأخيرا إنه يدل على الفكر السياسي عند الكاتب . وسواء شئنا أم أبينا فإن جل النماذج المسرحية التي كتبت عن ما قبل وأثناء وبعد المقاومة كان كتابها ينطلقون من أفكار سياسية بالأساس.

### المراجع :

- (1) - مجلة الفنون : "عدد خاص بمهرجان المسرح العربي " 1974.
- (2) - د. أحمد المديني : "في الأدب المغربي المعاصر" دار النشر المغربية / 1985.
- (3) - الفنون "العدد السابق" .
- (4) - د. محمد الكفاط : "بنية التأليف المسرحي من البدايات إلى الثمانينات" مطبعة النجاح الجديدة / الدار البيضاء / 1988.
- (5) - رضوان حدادو "مجلة الفنون" نونبر 1979 "السنة 6 / ع 1 . والتوزيع الرباط 1986.
- (6) - عبد القادر السميحي : "نشأة المسرح والرياضة في المغرب" / مكتبة المعارف للنشر

- (7) - عبد الكريم برشيد من مقدمة لكتاب: "المقاومة في المسرح المغربي" لعبد الرحمان بن زيدان دار النشر المغربية / 1985.
- (8) - د.حسن المنيعي: "البدايات والتأسيس في المسرح المغربي الحديث" آفاق "العدد 3 / 1989".
- (9) - بيليوغرافيا المسرح المغربي قبل الاستقلال في الصحافة الوطنية "مصطفى بغداد مجلة الموقف عدد 10/1989.
- (10) - د. حسن المنيعي: "البدايات والتأسيس في المسرح المغربي ...
- (11) - د. محمد الكفاط: "بنية التأليف المسرحي بالمغرب ...
- (12) - "فاطمة رشدي" كفاحي في السينما والمسرح دار المعارف - مصر / 1971.
- (13) - فجر المسرح المغربي بالمغرب "عبد الله شقرون" م / اتحاد الإذاعات العربية / 1988.
- (14) - حوار مع عبد القادر البدوي: "مجلة المهرجان" العدد الأول 1983.
- (15) - عبد الرحمان بن زيدان: «المقاومة في المسرح المغربي ...
- (16) - مصطفى القباج: "السعد" البنية المسرحية والخطابات الفنية ضمن ثلاث دراسات في الكتاب المسرحية الشركة المغربية للناشرين المتحددين الرباط 1976.
- (17) - الشهيد: "مجلة الفنون" العددان 3 - 4 / أكتوبر - نونبر 1980.
- (18) - د. علي الراعي: "المسرح في الوطن العربي" عالم المعرفة الكويت.
- (19) - د. حسن المنيعي: "هنا المسرح العربي" هنا تجلياته منشورات السفير مكناس 1980.
- (20) - ماجد السامرائي: التراث منطلقنا للمعاصرة الأعلام عدد 9 ص: 13، 1978.
- (21) - د. مصطفى رمضان: "توظيف التراث وإشكالية التأصيل في المسرح العربي" عالم الفكر / المجلد السابع عشر العدد الرابع يناير فبراير مارس 87.
- (22) - عبد الرحمان بن زيدان: "المقاومة في المسرح المغربي".
- (23) - من مقدمة المسرحية بقلم مؤلفها .
- (24) - أحمد بلخيري: "الحضور البريختي في المسرح المغربي: حكاية الريوس والكسدة نموذجاً" أنوال / 9 يونيو 1990.
- (25) - المسرحية نشرت في فصول بمجلة الأسبوع الثقافي "العدد السابع 16 مارس 84 وقد كتبها كل من عبد الرحمان بن زيدان، محمد بنعيسى.
- (26) - زين العابدين الكتاني: "فهرس المسرح المغربي" الفنون 1974.
- (27) - د. محمد الكفاط: "بنية التأليف المسرحي بالمغرب ...

## مخطات في المقاومة

- احمد الحنصالي
- مظاهرات 25 يوليو 1955 بمكناس



## أحمد الحنصالي : المرجعي والرمزي في خطاب التاريخ السياسي

عبد الرحيم العماري \*

### افتتاحية :

يمشي الكرام على آثار غيرهم      وأنت تخلق ما تأتي وتبتدع  
وهل يشينك وقت كنت فارسه      وكان غيرك فيه العاجز الضرع  
من كان فوق محل الشمس موضعه      فليس يرفعه شيء ولا يضع

شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمان البرقوقي ، ج 1 ، دار الكتاب اللبناني ، 1986 ص: 341.

إهداء إلى راعي البندقية بالأطلس المتوسط ، أحمد الحنصالي ، وإلى كل المقاومين  
وأعضاء جيش التحرير .

### بصدد الإشكالية :

« Bon bled , mauvaises villes ! » " بواد حسنة ، ومدن سيئة ! " (1) .

ويرحل الجنرال جوان يوم 20 شتبر 1951، ويكتب عنه المؤرخ الفرنسي الشهير شارل أندريه جوليان : « La politique de Juin avait rendu le protectorat odieux »  
 "جعلت سياسة جوان الحماية بشعة ! " (2) .

أن يثور أحمد الحنصالي - رمز من رموز البادية المغربية بالأطلس المتوسط - معناه سوء تقدير الإقامة العامة لفرنسا بالمغرب ، أو مؤامرة تواطأت فيها بعض جهات هذه الإقامة (3) . ثم ، قبل ذلك ، يحق التساؤل : من حفظ لأحمد الحنصالي موقعه ، باعتباره حدثا تاريخيا وسياسيا ، الخطاب العالم (Savant) أم الشعبي (Populaire) ؟ (4) .

### عن المرجعية المعرفية والمنهجية (5) :

— كيف نتيح لنا مرجعيتنا مقارنة الإشكال المطروح سلفا ؟

من المصادر الاستمولوجية التي نركن إليها ، كون الخطاب - كان سياسيا أو اجتماعيا أو إعلاميا أو دينيا أو فلسفيا أو أسطوريا ، ... الخ - يفشي غالب أسرارته حسب اللغة الواصفة المتعددة التي تختبره (6) . ثم إن من بين مستجدات تاريخ ومنهاجية العلوم الطبيعية والإنسانية على حد سواء ، أن العلم عندما يقع في أزمة شفيعه في تجاوزها عقد صلة بعلوم أخرى تمنحه إمكانات مفهومية ومنهاجية توسع وتعمق أطروحاته .

لقد أتاحت لنا - غير ما مرة - السميولوجيا عموما ، والسميولوجيا الاجتماعية والسياسية فرصة الاشتغال على خطابات عديدة المظاهر ، واستخلاص حقائق تمنح النقاش العلمي المعاصر ثراء وخصوبة (7) . تصير - وفق ما سلف - السميائيات السياسية (Semiologie politique) أفقا مناسباً لتصوير المتن الخطابي المراد تحليله بمثابة نظام من أدلة لسانية سياسية. والسياسي هنا يحيل إلى موضوع السلطة (Le thème du pouvoir) : كل ما يحيط بالسلطة في العلوم السياسية هو شيء سياسي ، موضوع لفكر سياسي (8) .



ولا نجد ضررا في توظيف منهجية صغيرة Micro-analyse للتركيز على بعض البنيات الصغرى في المتن السالف ذكره، ذي موضوع محدد يتمثل في حدث تاريخي سياسي: حركة أحمد الحنصالي ضمن المقاومة المغربية المسلحة. حان الوقت إذن أن نعيد التساؤل: ما المرجعي والرمزي في المصادر التاريخية المباشرة (المتن) حول الحدث التاريخي السياسي؟ ومن أي موقع تلفظي تشكل هذان المكونان الخطابين؟(9).

بالاستناد إلى معجم محلي الخطاب التاريخي " إن الوحدة الدلالية هي المعلومة التاريخية، التي تفيد حدثا تاريخيا. ومفاد هذا الأخير فعل أو قول محكومان بفضاء تاريخي. ومن ثم، يسمي التاريخي تراتبية للأحداث وفق منطق الفضاء التاريخي سواء أكان الفضاء مؤسساتيا (في علم اجتماع السياسية: ماكس فيبر، ب. بورديو) أو غير مؤسساتي (في علم الإناسة = كلود ليفي ستروص) "(10).

### عن طبيعة المصدر المباشر:

تحدد طبيعة المصدر في الأشكال الاتصالية التالية: - برقيات عسكرية - إتصال هاتفي. - رسائل المراقب المدني. - رسائل المسؤولين العسكريين بالمغرب.

إثرئذ، يتعين علينا أن نشير إلى أنها محفوظة بالقسم التاريخي للقوات العسكرية الفرنسية البرية ب Château de vincennes. لكن تقتضي الأمانة العلمية أن نعتزف بفضل أحد موقعي رسالة " الخمسة والسبعين "(11) في الإطلاع عليها. سنعمل على ترتيب المصادر المباشرة، بالشكل الذي يتيح لنا استيعاب الحدث من حيث سياقه أولا، ومن حيث وقائعه الخاصة ثانيا:

- (م.ن: 127 و 128) =

Des dépêches, recueillies au S.H.A.T., indiquent que les troubles, qui se sont produits dans le Tadla, pourtant « très tenu par ses Caïds », vont durer de trois mois :

« 3 mars 1951 - Réquisition particulière

Au nom du Peuple Français et de sa Majesté Chérifienne, Nous, Philippe Boniface, requérons en vertu de la loi, le Général commandant la division de Casablanca, de

prêter le secours de la troupe au maintien de l'ordre à ksiba » (Tadla).

Le 31 mars, l'ordre est donné au lieutenant Colonel de Ligneville de : « Prendre immédiatement le commandement des Goums, Maghzens de Protection et Troulières stationnées sur le territoire du Tadla ».C.S.T.M. 2avril 1951.N°123.

"L'agitation persiste dans région de Meknès, particulièrement Sud khenifra.Opposition population Aïn Ishak à arrestation agitateurs connus, Situation calme dans zone beni-Mellal et Kasba-Tadla. Cependant agitation demeure Promoteurs et origines n'en sont pas décelés ".

2 avril 1951. 20h 40. N°20.T.S. Situation à 18h.

1° Aït Ishak (proche de Oued-Zem) : calme actuellement . la moitié de la tribu continue à ne pas reconnaître le Caïd et délibère avec la fraction fidèle. Le Général agira si nécessaire.

2° A Kebbab (Tadla toujours) dans la matinée, des éléments refusent de reconnaître le nouveau Cheikh (adjoint de Caïd).  
Téléphone du 3 avril 1951.

« Depuis 24 heures, aucun nouvel attentat ne s'est produit . Des négociations sont actuellement en cours entre le Général ;Chef de la région de Meknès et les Jamaas des Aït Ishak et de Kebbab ».

— (م.ن: 130) —

Peut-être la ténuité des rapports entre la Métropole et la Résidence en est-elle une des causes. Il est vrai que Juin, responsable des réactions du peuple campagnard marocain à sa tentative manquée du coup de force, relate de façon toute personnelle sa version des événements, comme en témoigne cette lettre qu'il envoie le 26 février 1951, à son ministre, Robert Schuman. En voici l'essentiel :

« ... En octobre 1950, le Sultan, appuyé par l'Istiqlal, avait demandé, à Paris la révision du Traité de Fès. Lyazidi et Laghzaoui profitent, en décembre 1950, du Conseil du Gouvernement, pour faire le procès du Protectorat.

Le Glaoui de Marrakech, un haut dignitaire de l'Empire, cristallisant le ressentiment de ses pairs, demandait, en leur nom, au Souverain, lors de la cérémonie traditionnelle de la Hedy, de prononcer la condamnation d'un « parti de la haine et

du mensonge », dont l'action se conjugant avec celle des communistes tendait à ruiner l'organisation traditionnelle du territoire et à provoquer une grave division

dans le pays.

Le Sultan, n'ayant pas cru devoir se rallier au vœu du Glaoui, irrité au surplus de la vivacité de ses propos, pria ce haut dignitaire de ne plus paraître devant lui.

— ( م.ن : 131 و 132 ) —

S'il est difficile de savoir ce que Schuman aura pensé de ce chef d'oeuvre, Juin, lui, en est très fier, au point qu'il en enverra une copie le 20 août 1953, à Georges Bidault, accompagnée de ces mots :

« Au moment où le Gouvernement est appelé à prendre de graves décisions en ce qui concerne le Maroc, je crois devoir vous adresser copie d'une lettre que j'avais écrite à votre prédécesseur le 26/2/51. C'est une pièce historique (sic)...Elle éclaire un peu le sujet ».

Le 28 février 1951, par une lettre n° 186, Juin informe que quatre membres du Cabinet du Comité Exécutif de l'Istiqlal viennent d'être arrêtés pour « une affaire de tracts ». Il ajoute, sans rire, que ces arrestations n'ont rien à voir avec la crise qui vient de prendre fin.

Le même jour, il signale par télégramme, 12h45, n°182-84 :

« J'ai décidé de faire mettre en résidence surveillée Mehdi ben Barka, Directeur (sic) de l'Istiqlal. Il importe de neutraliser ce personnage redoutable ».

Tandis que se déroulent les événements du Moyen-Atlas et du Tadla, la résistance politique marocaine s'organise. En avril, à Tanger, se constitue le « Front National » (Istiqlal, P.D.I. et Parti DE l'UNITE) qui déclare :

« Aucune négociation ne pourra être menée avant la proclamation de l'Indépendance .

Les signataires s'engagent à n'accepter la constitution d'aucun front commun avec le Parti Communiste.

Toute action de nature à soutenir les suggestions de la Résidence Générale préjudiciables au Sultan du Maroc sera considérée comme contraire à ces clauses : la collaboration du Maroc avec la Ligue Arabe, avant et après l'Indépendance, est une obligation nationale » .

Pourtant, rien ne semble devoir troubler l'assurance du Général Juin . Voici un extrait du discours qu'il prononce, le 18 juillet 1951, au Maroc, devant le Grand Patronat

Français :

« Le Gouvernement n'a pas le droit de me relever de mes fonctions, alors qu'il est à l'agonie. Il n'a pas le droit de prendre une décision actuellement, alors qu'il est en pleine préparation électorale, et qu'il songe davantage à se faire réélire qu'à s'occuper du Maroc. Je suis au Maroc. J'y reste ».

— (م.ن: 129) :

Seul, à ma connaissance, un Contrôleur civil, resté anonyme, envoie de Beni-Mellal la lettre suivante :

«Le Contrôleur civil, chef de région, chef du territoire de Tadla. A Monsieur le Contrôleur civil, chef de la région de Casablanca.

Beni-Mellal, le 15 juin 1951.

Les récents événements du Tadla ont fait apparaître les dangers d'une trop faible concentration militaire dans la montagne berbère et dans les agglomérations importantes.

En montagne, l'installation récente d'unités supplétives vient de donner aux chefs de circonscription de Ksiba, Ouaouzerth et Azizal, les moyens de maintenir l'ordre en cas de troubles non généralisés. A Kasba-Tadla, l'arrivée d'un bataillon de Sénégalais résout également la question.

Reste le cas de la ville de Beni-Mellal, cité en plein développement (16.000 Musulmans, 3.000 Juifs, 600 Européens), siège d'un souk qui rassemble tous les vendredis près de 20.000 Marocains, où la présence d'une unité de réguliers paraîtrait justifiée.

En effet, dans cette agglomération surpeuplée, activement travaillée par les nationalistes, les seules forces disponibles pour le maintien de l'ordre sont 4 gendarmes et quelques mokhazenis. Prévenir les troubles vaut mieux, semble-il, que de les réprimer.

La présence effective, sur place, d'une Compagnie suffirait pour maintenir l'ordre dans une population turbulente, mais au demeurant, fort prudente... ».

Cette lettre est accueillie, à Rabat, par une remarque du Chef d'Etat Major M. Jay.

« Le Chef d'Etat Major n'est pas habilité à recevoir personnellement des demandes

« de service »(sic).

— (م.ن : 128 و 129) :

En mai 1951, trois mois après le « coup » de Juin , pendant six jours de suite, des coups de fusils retentissent dans l'Atlas surplombant le Tadla, sur la route d'Afourer à Bin-el-Oui-dane. Quelqu'un tire sur des Français en pique-nique. Il y a plusieurs morts. L'homme vise bien et reste, de plus, insaisissable. Les premières dépêches parlent de « dangereux malfaiteurs » et le mobile des crimes serait le vol. Mais bientôt, les articles, émanant pourtant de la presse Mas, changent de ton :

« Il faut que l'on découvre ceux qui, par leur propagande, ont armé son bras : qu'une lumière impitoyable soit projetée sur cette criminelle propagande qui continue, qui se propage dans le Tadla.

Nous savons que de mystérieux émissaires répandent la terreur dans de tranquilles tribus, en insinuant que tous ceux qui ont récemment signé des pétitions envers la France (sic), ont renié, ce faisant, leur foi islamique...

Nous persistons à croire qu'« il ne s'agit pas d'un fait divers, mais, bien plutôt d'un crime politique directement lié à la première(sic) tentative de déposition » .

Dix mille hommes sont transférés dans la région, en vain . les « bandits » semblent protégés par leur tribu. Une prime énorme d'un million est alors offerte. Quelques jours plus tard, un homme, un berger, du nom de El Ahansali, et son complice sont livrés, ligotés. Quant on lui demande quel est le mobil de ses actes, l'homme répond : « Dieu l'a voulu ! » et « J'ai entendu comme un appel... ».

Il est incarcéré à côté de Mr Abderrahim Bouabid, pour qui les geôles françaises n'eurent pas de secret. Au petit matin blême de son exécution, passant devant la porte de Mr Bouabid, il crie : « Nous nous retrouverons chez Dieu ! » Il est considéré par les Marocains comme le premier Résistant, et le grand Boulevard qui descend vers le Port de Casablanca porte son nom.

### عن بعض القضايا المستخلصة :

البادي - إنن - أن المعلن في هذه المصادر المباشرة أقل بكثير من الضمني فيها .  
 تحددت بنيتها اللسانية وفق أخلاقيات المؤسسة الأمنية العسكرية الفرنسية .  
 لانحصل مثلا عن كيفية إلقاء القبض على أحمد الحنصالي . بل تعفينا بنينا

الإيحاء Connotation – (المعاني الثانية) في رسم العلاقات التأطيرية بين أحمد الحنصالي – المقاوم المسلح – وأقطاب الحركة الوطنية السياسية. من ثم ، هل سهل رسم العلاقة بينه وبين آخر مخاطب له ، كعبد الرحيم بوعبيد ؟ للخطاب العالم تحفظاته . أما الخطاب الشعبي فقد أجاب على ذلك. إذ لا يمنح ملابسات وحيثيات عديدة. والأكيد أن أحمد الحنصالي له مرجعيته في الخطاب العالم ، بيد أن رمزيته تعززت في الخطاب الشعبي.

الملاحظ – إذن - أن المفاجأة بالنسبة للسلطة الاستعمارية كانت مفاجئة : لم يكن في الحساب توقع انتفاضة عنيفة في منطقة محكمة من قبل قواد المخزن / المستعمر. بل تطلب الأمر – من خلال البرقيات العسكرية – العمل على نجدة القوات بمنطقة تادلة في أقرب وقت ممكن ثم إن الإحالة إلى خيوط الحركة الوطنية في هذه الثورات كانت دائما دلالة مصاحبة للبرقيات والرسائل والاتصالات العسكرية. وإن العملاء/ الخونة – من بين القواد الذين وضعهم المستعمر – كانوا الأداة المباشرة للتحكم في المنطقة. ولم يكن يخفى على القبائل التادلية ذلك ، في إيراكهم للمخطط الغازي . فكانوا يرغمون الجنرال – رئيس الجبهة – على التفاوض معهم.

يمكن التساؤل عن طبيعة المؤسسة الاستعمارية من خلال حالات محددة : حدث العرائض المشهورة الموقعة من قبل قواد المستعمر، ضمن حلف الباشا لكلاوي من تقنيات المؤسسة. ثم إن هذا الحدث كان من بين العوامل المباشرة لانتفاضات الأطلس المتوسط. كان الباشا لكلاوي يسير في اتجاه يكرس المؤسسة الاستعمارية ويضرب في العمق الحركة الوطنية بالمغرب . ألم يكن أحمد الحنصالي واعيا بذلك؟ يتبين – دون تحمل أو تكلف بالتأويل – أن انتفاضة الأطلس المتوسط وتادلة كانت مؤطرة سياسيا وعسكريا : أين وزعت المنشورات التي وضع بسببها أربعة من مكتب اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال رهن الاعتقال ؟ ولم في اليوم نفسه وضع المهدي بنبركة تحت الإقامة المحروسة ؟

أتاحت رسالة مراقب مدني ، ظل اسمه مجهولا في الوثيقة ، القدرة على امتلاك معطيات بشرية وعسكرية واقتصادية وطبيعية في المنطقة ، وكذا الطريقة التي ارتكز بها على هذه المعطيات في تحسب أحداث مماثلة بعد انتفاضة تادلة. لقد كان تعزيز المؤسسة العسكرية للحماية الفرنسية الحل الأول والبدئي لتفادي كل ما من شأنه زعزعة الحماية. ثم إن هذه الأخيرة راجعت حساباتها لخطورة انتفاضة منطقة تادلة .

وأقرت الرسالة في معانيها الظاهرة حيوية وفاعلية الحركة الوطنية المغربية بالمنطقة. إن أولى الدلالات التي تفضي إليها المصادر المباشرة في موضوع مقاومة أحمد الحنصالي:

1 - امتلك الشهيد أحمد الحنصالي تكوينا عسكريا ، وتدريبيا على الإنفلات من قبضة العدو، وتخطيطا محنكا في تدبير نشاطه الكفاحي المسلح. مما أوقع - دون شك - السلطات الاستعمارية في حيرة : تعددت تأويلاتها واجتهاداتها في ترقب التأويل الصحيح (12).

2 - لم يكن أحمد الحنصالي معزولا ولا عفويا إزاء نشاط الحركة الوطنية. ولقد تمكنت سلطات الحماية من إبراك ذلك .

3 - تبرز مقاومة أحمد الحنصالي رد فعل المقاومة المغربية المسلحة ضد عرائض الباشا الكلاوي والجنرال جوان. كما تعبر عن شجب القبائل التادلية لهذا العمل. كما أن المقاومة نفسها كانت رد فعل عنيف ضد المحاولة الأولى لنفي الملك محمد الخامس.

4 - لقد برهن رد الفعل العسكري لسلطات الحماية حجم مقاومة أحمد الحنصالي في منطقة تادلا.

5 - تضع السلطة الاستعمارية في المنطقة مكافأة مالية. وبعد ذلك يسلم أحمد الحنصالي ورفيقه المقاوم " سميحة " لم يفصح الخطاب عن هوية من سلمهما!.

6 - من التصريحات الأولى لأحمد الحنصالي يتضح تشبعه بالروح الجهادية الإسلامية العليا، لم يكن لا أميا ولا جاهلا بفقہ الجهاد ولا بالتصور الكفاحي الوطني (13).

7 - أن يوضع أحمد الحنصالي في زنزانة ، قرب عبد الرحيم بوعبيد، يمنع مشروعية التساؤل : أية قرابة بينهما في النشاط الوطني ضد المستعمر ؟ لقد جعلت منه الانتفاضة في البنية الرمزية المغربية أول شهيد ضد الحماية الفرنسية.

يقرأ الباحث "تولانوي" - المذكور سلفا - مقاومة أحمد الحنصالي ضمن ترابط بين :

- النداء الأول لبونفاص المؤرخ ب تمارس ، ستة أيام فقط بعد ضربة جوان .  
- كل الأحداث الثمانية مع طلاقات أحمد الحنصالي مركزة في منطقة واحد ، تالفة .  
- لاحظت المؤسسة العسكرية الفرنسية نفسها ، بأن تعيين الإقامة العامة لموظفي السلطة ، كان أهم عامل للانتفاضات . بحيث نظر إليها المغاربة غير شرعية .  
ويضيف الباحث بصريح العبارة :

" لا يبرهن هذا الترابط على تغيير ما للاستراتيجية من قبل الإقامة فحسب ، وإنما كانت مكتومة بعناية عن الحكومة الفرنسية. وبالفعل لم ترسل أية من البرقيات المشار إليها سلفا والتي تظهر أهميتها السياسية ، إلى وزارة الشؤون الخارجية ولكن [ أرسلت ] مباشرة إلى château de Vincennes ( وزارة الدفاع ) " (م.ن: 129) وعليه، تفيد المصادر المباشرة المدروسة في بناء مرجعية مقاومة أحمد الحنصالي على شكل وقائع لها حجمها في التاريخ السياسي للمغرب الحديث المستقل . وأما رمزيته، فإن العديد من شوارع المدن المغربية حافلة باسم أحمد الحنصالي : رمز الشهادة الأولى للحرية ، والاستشهاد الخالص لأجل الاستقلال . وعندما نود مساءلة الخطاب الشعبي بهذا الصدد ، فإن رمزية الحدث تعلو إلى أن تصير بعدا



أسطوريا ، يظهر فيه الشهيد أحمد الحنصالي كائنا إنسانيا له قدرات وكرامات خارقة ، وذلك من خلال أشكال السرد الشعبي ، كما في الحكايات والأحاجي (14).

### على سبيل الإقتراح العملي :

إسألوا لي - أيها الحضور الكريم - أن أحشر نفسي ، لأقترح القرب بيننا يوما وبين تاريخ حافل بالمقاومة المغربية ضد الغازي :

1 - ألا يستحق منا الشهيد أحمد الحنصالي تسمية مدرج من مدرجات الكلية باسمه، مثلما لا تخلو أغلب مدن المغرب من شارع يحمل اسمه ؟

2 - ولم لا نفكر في توقيع ميثاق التعاون العلمي في مجال البحث العلمي التاريخي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي حول المقاومة المغربية بتادلا. وذلك بين كلية الآداب والعلوم الإنسانية ( مكتب أبحاث تادلا) والمندوبية السامية لقضاء المقاومين وأعضاء جيش التحرير؟

3 - ثم ، أليس من العملي وضع برنامج لإنجاز معجم للمقاومة المسلحة بتادلا بنقل كل ما كتب حولها في المصادر المباشرة خصوصا الموجودة بفرنسا بأرشيف القسم التاريخي للقوات العسكرية الفرنسية (Château de Vincennes) ؟

- هل بهذه الاقتراحات سنوفي حق أمثال أحمد الحنصالي والزرقطوني وموحى أو سعيد ومحمد العتابي(15) ؟ المقاومون المغاربة رموز قيم بها ترقى الأمم إلى قمم التاريخ مغرب الحرية والوطنية الخالصة لن يكون أبدا من صنيع الباشا الكلاوي بل هو عصارة مثل عليا جسنتها المقاومة المغربية ، سياسيا وعسكريا. سننكر المقاومين دائما. ولا عبر للأجيال اللاحقة نون نكري المقاومين . لا نملك إلا أن نقول ما قاله أبو الطيب المنتبي :

وتأتي على قدر الكرام المكارم

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتصغر في عين العظيم العظائم

وتعظم في عين الصغير صغارها

## الموامش :

- (1) — Delanoë , Guy 1988: lyauty , juin, Mohamed V : Fin d'un protectorat, Tome 1, l'Harmattan, p: 130.
- والعبارة — أصلاً — مستوحاة من نص لشارل أندري جوليان : « Le mythe du Bon Bled » : نحيل إلى :
- Julien , ch.A. 1978: Le Maroc Face aux imperialismes, p : 435.
- (2) — م.ن : 132 .
- (3) — ذلك ما يركز عليه الباحث المذكور سلفاً في فصل :
- Les conséquences de l'affrontement Juin – Mohamed V . Les premiers mouvements dans le Tadla
- (4) — من المقاييس الأكثر نجاعة في التمييز بينهما مقياس "المؤسسية" ولاستيعابه، نقترح الرجوع إلى قواميس العلوم الإجتماعية والإنسانية .
- (5) — ترجمة ل : Référentialité épistemologique et methodologique
- (6) — هذا هو المعمار العلمي الذي اخترناه أفقا لتحليل العديد من أنواع الخطاب.
- (7) — أنظر بعض دراستنا في هذا الصدد .
- (8) — يمنح هذا التحديد احتمال تعامل إجرائي مع موضوع العلوم السياسية.
- (9) — المرجعي : Le référentiel ، الرمزي : Le symbolique .
- (10) — عبد الرحيم العماري : انتفاضة وادي زم : مقاربة سمائية لخطاب تاريخي ، الندوة العلمية حول "المقاومة بإقليم خريبكة 1912-1956 ، المنظمة من قبل المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير وجامعة الحسن الثاني ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسك — الدار البيضاء ، بتاريخ 18 فبراير 1993. وحسب ما بلغنا ، فإن مؤلف الندوة قيد الطبع .
- (11) — هو الفرنسي Guy Delanoë المولود بالمغرب سنة 1916، بحيث طبعت الرسالة بباريس والدار البيضاء في الوقت نفسه ، وتم انتخابه — فيما بعد — رئيساً لجمعية "الضمير الفرنسي" ، الفكرة التي تمخضت عن الرسالة. وهو مؤلف الكتاب الذي عولنا عليه في بعض الاستنتاجات. بحيث أفادنا أيضاً في طريقة التأليف بين المصادر المباشرة التي تهم أحداث انتفاضة الأطلس المتوسط وتادلة. وله مؤلف آخر في السياق نفسه :
- Delanoë, Guy 1991 : Le retour du roi et l'independance retrouvée, l'harmattan, Paris.

- (12) - فهل يصح النظر إلى أحمد الحنصالي راعيا سلمت له بندقية ؟
- (13) - للعقيدة الإسلامية الدور الأساس في التشعب بمقومات وقيم الجهاد لدى أقطاب الحركة الوطنية المغربية والمقاومة المسلحة. ولقراءة اللطيف دلالاته العميقة.
- (14) - هكذا تكفل الثقافة الشعبية ذكريات أبطال الشعوب والمجتمعات.
- (15) - د. محمد بكرأوي : مساهمة منطقة تادلا في مناهضة الاستعمار الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى ، ندوة "تادلا": التاريخ ، المجال ، الثقافة" أيام 15-16-17 أبريل 1992 ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء 1993 ص ص : 123 - 128.

## مظاهرات 25 يوليو 1955 بمكناس

بوشتى بوعسرية \*

تميزت الأوضاع العامة في المغرب قبيل تعيين المقيم العام كرانفال Grandval باضطرابات في مختلف المدن المغربية وخاصة الدار البيضاء ، لأن المستعمرين بدأوا يتخوفون على مصالحهم مع اندلاع الانتفاضات في جل أنحاء البلاد خاصة بعد نفي السلطان سيدي محمد بن يوسف ، يوم 20 غشت 1953 فمنذ ذلك التاريخ لم يهدأ للمعمرين بال ولا ذاقوا طعم الراحة ، فتجنّدوا بوسائلهم الخاصة للدفاع عن مكتسباتهم والحفاظ عليها وإن اقتضى الأمر اللجوء إلى الأعمال الإرهابية والاعتقالات السياسية التي لحقت أبناء جلدتهم.

حاولت حكومة ايكار فور E. Faure التغلب على الموقف فعزلت المقيم العلم لاقوست La coste وعينت مكانته كرانفال لعله يتمكن من عودة الهدوء إلى البلاد

\* - المرحوم الأستاذ بوشتى بوعسرية ، كان أستاذا باحثا بكلية الآداب والعلوم الانسانيةمكناس.

وقبل مجيئه إلى المغرب عقد عدة لقاءات مع شخصيات فرنسية لها دراية بالشؤون المغربية ، وأخرى مغربية ، وحاول الاطلاع على ملف القضية المغربية في باريس قبل حلوله بالرباط . وأراد المقيم العام الجديد معالجة الأوضاع بنفسه في عين المكان فقرر القيام بجولات في أهم المدن المغربية مثل مراكش ومكناس وفاس وكانت « العاصمة الاسماعيلية » المحطة الثانية لزيارته بعد مراكش لكن هذه الزيارة لم تمر كما رسمت لها القيادة العسكرية والمسؤولة على الأمن بها ، فقد تحولت المظاهرات العنيفة التي قام بها المكناسيون إلى اصطدامات دموية أسفرت عن استشهاد العديد من السكان وجرح بعضهم واعتقال آخرين ، فألغى كرانفال زيارته لفاس.

### **الوضعية العامة بالمغرب قبيل تولية كرانفال الإقامة العامة:**

شهدت المدن المغربية بصفة عامة اضطرابات ومظاهرات قبيل تولية كرانفال الإقامة العامة وخاصة الدار البيضاء ، ففي النصف الأول من شهر ماي 1955 اندلعت أحداث دموية بهذه الحاضرة حيث تم تسجيل 150 عملية إرهابية أدت إلى مقتل 12 شخصا وجرح 28 ، في حين قتل 29 شخصا منهم 20 في يوم واحد و 98 جريحا في النصف الثاني من الشهر المذكور (1) ومن بين الشخصيات التي ذهبت ضحية الإرهاب الفرنسي والإرهاب المضاد التي كانت تتزعمه حركة الوجود الفرنسي *Présence Française* وذلك يوم يونيه 1955 أحد أرباب الصناعة الأغنياء الذي ينتمي إلى أسرة فرنسية مشهورة وهو: لوميجر دوبراي *Le Maigre* - *Dubreuil* الذي اعتبره مواطنوه خائنا للقضية الاستعمارية ، وقد شارك دوبراي في الحربين العالميتين وهو صهر الرئيس العام للشركة الصناعية لإنتاج زيت المائدة جورج لوسبور *Georges Lesieur* ، واشترى دوبراي من جان والتر *Jean Walter* بتاريخ 24 فبراير 1955 95% من أسهم جريدة *Marc Presse* وكان من أنصار الليبرالية بالمغرب ، فصارت جريدته منبرا حرا لنشر آراء بعض المغاربة كمولاي العربي العلوي وغيره مما جعلها عرضة لهجمات متكررة وزار

باريز يوم 10 يونيه 1955 وكانت له محادثات مع انكارفور E.Faure وخلال وداعه له أخبره أنه سوف يغتال من قبل الإرهابيين الفرنسيين ، وكذلك كان الشأن حيث أفرغ فيه أحدهم 13 رصاصة أثناء عودته إلى الدار البيضاء في اليوم الموالي (2) .

وأحدث مصرع دوبري رجة قوية أفادت القضية المغربية وخدمت الوطنيين فصارت صحف باريز تمتلئ بالتقارير عن اشتراك البوليس والمعمرين (Colons) الفرنسيين في نفس مقرات الجرائد في الوقت الذي كانت فيه كل التهم موجهة للفدائيين المغاربة(3) وأثناء التحقيق في اغتيال دوبري تبين أن هناك جماعتين إرهابيتين فرنسيتين .

- منظمة الدفاع ضد الإرهاب .
- الحرس الأمامي للأيديولوجية الجمهورية .

ولم يتمكن المحققون من الوقوف على علاقتهما بالجناح اليميني La Presence Française ، والخطير في الأمر أن رئيس الجمهورية الفرنسية روني كوتي René Coty (23 دجنبر 1953 - 8 يناير 1959) كان قد أخبر بأمر الاغتيال المحتمل لدوبري فعارض في ذلك بشدة واتهم البوليس والمعمرين باغتياله (4) ، كما اغتيل العديد من المغاربة الذين كانوا على صلة به ومنهم أبناء أسر غنية بالدار البيضاء. عقب اغتيال دوبري عين مقيم عام جديد للمغرب هو كرانفال كما تم نقل العديد من ضباط الأمن الفرنسي من الدار البيضاء وسرح البعض الآخر .

**تعيين كرانفال Grandval مقيما عاما بالمغرب (21 يونيه 28 غشت 1955) :**

استتكرت حكومة انكارفور الأعمال الإرهابية المضادة التي قامت بها عصابات الوجود الفرنسي Presence Française لكن في الوقت ذاته لم تستطع هذه الحكومة اتخاذ قرارات حاسمة تهدف من ورائها إلى القضاء على ذلك الإرهاب ولم تقبل بعودة محمد بن يوسف إلى المغرب واستقلال البلاد، واكتفت بدعوة البرلمان الفرنسي إلى تبني صيغة غامضة تدعو إلى إدخال نظم الحكم الحديثة في

المغرب وربط مصيره بفرنسا على أساس ما يسمى بالتكافل Interdependance وهو مصطلح يستعمل رسميا لأول مرة (5)، وقد أوكلت مهمة تطبيق هذه السياسة لـ كرانفال فمن هو هذا الشخص الذي تم تعيينه في وقت كان فيه المغرب كمرجل يغلي تجاوزت حراره أحداته المائة درجة ؟ . ولد كرانفال جيلبر سنة 1904 داخل عائلة يهودية تولى عدة مهام اقتصادية ، في مقدمتها إدارة شركة الاتحاد الفرنسي للمواد الكيماوية والأسمدة ولم يبلغ العقد الرابع من عمره ، وبذلك صار اقتصاديا وإداريا محنكا ، وإثر اندلاع الحرب العالمية الثانية التحق بالجيش التابع لفرنسا الحرة لمقاومة الاحتلال النازي لبلاده .

وبعد انتهاء الحرب المذكورة سنة 1945 اختير لمنصب الحاكم العام لمقاطعة الصار، ويعرف عليه استقلاله في الرأي والاعتزاز بشخصه ، وعلى إثر اشتداد الأزمة المغربية في صيف سنة 1955 وبعد اغتيال رجل الصناعة Dubreuil استدعاه رئيس الحكومة اديكارفور بواسطة إيميل روش Emil Roche رئيس المجلس الاقتصادي بالمغرب يوم 14 يونيو 1955 وعرض عليه منصب المقيم العام بالمغرب لتعويض لاقوست La Coste ( يونيو 1954 يونيو 1955 ) بعدما اقتنع بشخصه وفضله عن كل من بوايبي دولاتور Boyer de la Tour وروني دوبا René du bois بعد استشارة الجنرال دوكول Degaulle الذي زكى كرانفال (6) وبعد أسبوع من الاستقبال السالف الذكر (21 يونيو) تم تعيينه بصفة رسمية مقيما عاما بالمغرب، لكنه لم يلتحق للتو بمقر عمله في الرباط وبقي لما يزيد عن أسبوعين في باريس لأمرين اثنين ، أولهما لاختيار الجهاز الإداري الذي سوف يعتمد عليه في تطبيق سياسته ، وثانيهما للتعرف على الأوضاع العامة في المغرب والاطلاع على الملفات الخاصة بالمسألة المغربية في العاصمة باريس ، ولتحقيق هذين الغرضين اتصل كرانفال في إطار المشاورات بعدة شخصيات لها علاقة بالشؤون المغربية سواء الفرنسية منها أو المغربية.

وهكذا عقد جلسات عمل مع كل من : فرانسيس لاکوسط المقيم العام الذي سيعوضه، وإيريك لابون Eric Labonne ( مارس 1946 ماي 1947 ) المقيم العام الأسبق بالمغرب ثم عبد الرحيم بوعبيد من الحركة الوطنية المغربية وامبارك البكاي المناصر لسيدي محمد ابن يوسف . وهكذا انكب كرانفال على دراسة الملفات المتعلقة بالأزمة المغربية والأسباب الكامنة وراءها ، وبتوجيه من الحكومة الفرنسية التي كان يرأسها انكارفور جاء لتطبيق البرنامج الآتي :

- تنفيذ فصول معاهدة الحماية أي عدم مناقشة استقلال المغرب .
- لا عودة للسلطان الشرعي للبلاد سيدي محمد بن يوسف .
- رحيل بن عرفة ضروري.
- تأسيس مجلس للعرش أو اختيار ملك آخر .
- تغيير شامل في الإدارة الفرنسية بالمغرب (7) .

ووصل كرانفال إلى المغرب يوم 7 يوليوز 1955 ، وفي ظرف أقل من أسبوع على إقامته بالرباط وذلك يوم 12 يوليوز عمد إلى إقالة مجموعة من الموظفين السلميين الذين كانوا على رأس القطاعات الحيوية في البلاد صناعية كانت أم تجارية أم إدارية .(8). وعكس ما ذهب إليه عبد الكريم غلاب فإن المهدي بنونة نكر أن كرانفال لم يأت بأية تعليمات واضحة ولا برنامج محدد ، فتعرض لغضب غلاة الفرنسيين من جهة وانفجار الشعب المغربي من ناحية ثانية(9) والواقع أن رأي بنونة لا يستند على حجج أو أدلة ثابتة مما يجعل هذا الرأي لا يصمد أمام تصريحات كرانفال خاصة في كتابه المشهور كما سنرى في ما بعد .

ومما يفسر ما ذهبنا إليه ، أنه بمجرد وصول هذا المقيم العام إلى المغرب حاول الوصول إلى حل للمشكلة المغربية ، فلم يضيع وقته في التشاور مع ابن عرفة لأنه اعتبره منتهي وعليه الرحيل كما عمل على إطلاق سراح عدد كبير من المعتقلين السياسيين، ومع ذلك ظل المغرب في حالة حصار واستمر النشاط



الفرنسي المضاد لأعمال المقاومة رغم تراجع الأعمال الإرهابية نتيجة طرد زعماء الحركة البارزين (10) .

وكانت عملية 14 يوليوز 1955 بالدار البيضاء بمرس السلطان التي أدت إلى تفجير قنبلة بمقهى أغلب زبائنها من المعمرين حيث قتل على إثرها ستة أوربيين وجرح ما يزيد عن ثلاثين منهم ، واعتبر محمد اليزيدي هذه العملية من تدبير جماعة الوجود الفرنسي الإرهابية موجهة ضد المقيم العام كرنفال، في حين حمل شارل أندري جوليان مسؤولية انفجار هذه القنبلة للوطنيين الاستقلاليين (12) مما أدى إلى تظاهر ما يعرف بـ: Petits Blancs في المعاريف مردين شعارات معادية لكرنفال وبالمقابل هتفوا بحياة الكلاوي.

وأراد كرنفال التخفيف من تصعيد موجات العنف في باقي المدن فوضع جدولا زمانيا لزياراته لها في مقدمتها مراكش التي حدد تاريخ الزيارة يوم 21 و 22 يوليوز 1955 في حين قرر زيارة مدينة مكناس في يومي 25 و 26 من نفس الشهر وأخيرا التوجه إلى فاس يومي 28 و 29 ، وهكذا قبل زيارة مراكش وبالضبط يوم 20 يوليوز استقبل كرنفال امبارك البكاي في الرباط وتحادث معه حول ما يجري في البلاد . وصل كرنفال إلى مراكش على متن طائرة خاصة في التاريخ المحدد أعلاه وغادرها يوم 29 يوليوز دون حوادث دامية. وبعد عودته إلى الرباط التقى ثانية بالبكاي إضافة إلى بعض الوطنيين المنتمين لحزب الاستقلال وهم : عبد الرحيم بوعبيد العائد من باريس ومحمد اليزيدي والمهدي بن بركة ، كما استقبل أيضا عبد الهادي بوطالب ومحمد الشرقاوي والحاج أحمد معنيو عن حزب الشورى والاستقلال (13) . وبعد هذه الاستقبالات تابع كرنفال إنجاز برنامجه الخاص بالزيارات لباقي المدن المغربية المبرمجة في هذا الصدد فكانت وجهته المقبلة مدينة مكناس.

**زيارة كرنفال إلى مكناس 25 يوليوز 1955.**

قبل التطرق لهذه الزيارة لابد من إعطاء نظرة ولو موجزة عن الأوضاع العامة

التي كانت عليها المدينة قبيل قدوم المقيم العام كرانفال إليها ، فقد تميزت هذه الأوضاع بقيام المكناسيين بعدة عمليات فدائية داخل المدينة أو خارجها وكانت جلها بالأحواز منصبا على إحراق المحاصيل الزراعية في ضيعات المعمرين الذين استأسدوا على الأهالي وأصبحوا بدورهم ينظمون عمليات إرهابية تجاه المكناسيين ، كما لم يسلم من هذه العمليات المغاربة المتعاونين مع الفرنسيين (14). وكانت أهم الأعمال الفدائية الخاصة بإحراق منتجات المعمرين تلك التي نفذت في أكبر مزارع هؤلاء ونخص بالذكر منهم أشهرهم على الإطلاق بأحواز المدينة إيميل بانيو (15) Pagnom Emile وكوستاف أوكوتوريي Gustave Aucouturier وبالنسبة لهذا الأخير فقد كان رئيس الغرفة الفلاحية بمكناس ورئيس نفس الغرفة على صعيد المغرب ونائب رئيس الغرف الفلاحية في فرنسا وقد أوردت صحافة الوقت يوم 24 يونيو 1955 عدد هذه الأحداث فتم إحصاؤها منذ بداية هذا الشهر فقدرت بـ : 20 عملية في أحواز مكناس أهمها ما وقع يوم 10 من نفس الشهر إذ تم إحراق 160 هكتارا ، كما تم إتلاف مئات الأمتار من الخطوط الهاتفية وتفجير العشرات من القنابل (16).

وبالرغم من كل هذه الأحداث والعمليات الفدائية المقاومة للوجود الفرنسي بالمدينة وأحوازها ، فإن الجنرال أندري ميكل André Miquel حاكم مكناس والجنرال لوبلان Le Blanc أعطيا للمقيم العام الضمانات اللازمة لنجاح زيارته لأن المدينة كانت هادئة في نظرهما وليست هناك مظاهرات تتطلب استعمال القوة (17) مما شجع المقيم العام على المغامرة والإقدام على زيارة مكناس يوم 25 يوليوز 1955 صباحا . اتخذت السلطات الأمنية بمكناس التدابير اللازمة لمرور زيارة كرانفال في جو هادئ وبأقل تكلفة من حيث الخسائر البشرية والمادية وهكذا أعطى الجنرال ميكل أوامره لمختلف رؤساء الفرق العسكرية من مدفعية وقناصة ودرك وكوم وغيرهم بما في ذلك البوليس لوضع المتاريس والحواجز في كل الأبواب والطرقات التي تربط ساحة الهديم وزنقة دار السمن وحي روي

أمزيل بالأحياء المجاورة لهذه الساحة كقصبه سيدي عمرو ، وقصبه هدراش وسيدي بابا ، وابني امحمد والفخارين وتواركة وتولال ... والسماح لسكان المدينة القديمة فقط باستقبال المقيم العام ، وهكذا بدأت المناوشات الأولى بين قوات الأمن المرابطة في باب الجديد وبين سكان حي سيدي بابا القريب منها الذين أرادوا التوجه إلى ساحة الهديم وعددهم ما بين 600 و 700 شخص وأدت هذه الاصطدامات الأولية إلى سقوط قتلى وجرحى في صفوف المكناسيين مما اضطرهم إلى رشق قوات حفظ النظام بالحجارة والاشتباك معها في معركة حقيقية ، وتم نقل الشهداء والجرحى إلى مسجد باب بريمة . إن هذه الاصطدامات الأولية لم تمنع سكان بلقي الأحياء من التوجه إلى نفس الأماكن المخصصة لمرور الموكب المقيمي ، كما أن الدرك الفرنسي وضع حواجز في الطرقات المؤدية من المدن المغربية إلى مكناس وما إليها . ويذكر كرانفال في كتابه *Ma mission au Maroc* أنه توجه صباح يوم 25 يوليوز 1955 إلى مدينة مكناس حيث استقبله الجنرال ميكل عند حدود الإقليم غربا على بعد 20 كلم تقريبا في المكان المعروف بعين عرمة وأخبره بأن الأمن شاملا في المدينة (18).

ولما وصل المقيم العام إلى ساحة الهديم فوجيء بتلك الجماهير الغفيرة المحتشدة في انتظاره ، لا للترحيب به ولكن للتعبير له عن عدم رضاها على برنامج حكومته التي أوفدته لتطبيقه في الوقت الذي لم يعد فيه وقت للانتظار لتبث فيه فرنسا للمغرب استقلاله ورجوع ملكه الشرعي سيدي محمد بن يوسف.

حاول المسؤولون في مكناس تنظيم استقبال عادي لكرانفال حيث قدمت له فرقة عسكرية التحية بساحة الهديم في الوقت الذي استقبلته الجماهير برفع الرايات المغربية وصور السلطان ، وزغاريد النساء فوق السطوح كلما رفع شعار يحي الملك، وقد قام زعماء الحركة الوطنية بمكناس بدور رئيسي في تأطير السكان ومطالبتهم بالحضور بكثافة للضغط على ممثل فرنسا وإيلاغه عدم رضاهم عن بقاء فرنسا في بلادهم ، ورغم كل هذا الصخب ، فقد قدم باشا المدينة المختار بن حمو

التمر والحليب للمقيم العام على العادة في مثل هذه المناسبات كما أخبر الجنرال ميكل بأن الأحداث اندلعت منذ الصباح الباكر .

خلال حفل الاستقبال حاولت الجماهير التوجه صوب المقيم العام فعملت قوات الأمن على ردها ، لكن لما عيل صبرها أطلقت النار عليها مما أدى إلى سقوط عدد من الجرحى والقتلى أمام أعين كرانفال فكتب هذا الأخير في مذكراته .  
 Nous voilà loin du calme annoncé . ورغم هذه الأحداث انطلقت السيارات المرافقة للسيارة المقيمة بصعوبة أمام احتشاد المتظاهرين في الطريق المؤدية من الهديم إلى حمرية مرورا بدار السمن وروى أمزيل . وأثناء مرور سيارة كرانفال بصعوبة أمطره الجمهور بعرائض الاحتجاج والشعارات المعادية لفرنسا وللخونة لكن هذا لم يمنع من ترديد يحي كرانفال من قبل بعض العملاء المدفوعين من قبل سلطات الحماية بالمدينة فكان ثمن هذه الحماسة هجوم الجمهور عليهم وأشبعوهم ضربا ، وطردوهم من أماكنهم وبذلك تبين له أن الجنرال المكلف بضبط الأمن لم يتمكن من ذلك . ولما بلغت سيارة كرانفال إلى دار فرنسا بحمرية كانت الوحيدة صحبة سيارة الأمن التي سمح لهما الجمهور بمتابعة السير ، في حين تم حجز باقي السيارات المكونة للموكب المقيم وعددها 14 كسر زجاج بعضها وبداخلها شخصيات فرنسية ومغربية ، أرغمها المتظاهرون على ترديد شعارات يحي الملك وتسقط فرنسا وكان من بين هؤلاء الذين رضخوا للمكناسين المراقب المدني أودبير Audebert والقائد ميمون ابن الباشا المختار ، كما طوقت الجماهير الفرقة التي أدت التحية للمقيم العام المكونة من القناصة المغاربة Tirailleurs Marocains وشتموا أعضائها وبعثوهم بالخونة ورشقوهم بالحجارة مما أدى إلى تدخل الفرق الخاصة بالوقاية (G.S.P) (Groupe specials de protection) التي بدأ جنودها يطلقون الرصاص على السكان فضاغف ذلك من عدد القتلى والجرحى ، وفي هذا الوقت كانت طائرة تحلق على علو منخفض ترهب النساء اللاتي كن يشجعن المتظاهرين وترمين بالحجارة على القوات الفرنسية التي انتقل منها

للمركز في باب بوعماير منعا لصعود الجماهير إلى حمرية وبذلك تم فصل المدينتين القديمة والجديدة عن بعضهما ، في الوقت الذي تمركزت فيه قوات قناصة افريقيا Chasseurs d'Afrique في المناطق المرتفعة لنفس الهدف. وخلال هذه الأحداث تم إحراق مجموعة من سيارات المسؤولين بالمدينة وغيرهم كما هم بعض المتظاهرين بإحراق مستوصف بولان Poulain داخل المدينة القديمة لولا تدخل قوات الأمن. وعموما شملت المظاهرات كل أحياء المدينة القديمة دون استثناء واستمرت عمليات حرق السيارات ومتاجر بيع السجائر طيلة اليوم لدرجة أن بعض السكان كانوا يختفون بلهب النيران وكثرة الدخان .

وعند الزوال أخبر المقيم العام أن حصيلة الاضطرابات كانت 17 قتيلًا من المغاربة و 50 جريحًا منهم 10 من قوات الأمن حسب الإحصاءات الرسمية في حين أوردت جريدة الأهرام (19) الصادرة يوم 27 يوليو 1955 أن عدد القتلى بلغ 60 و 2500 جريحًا بينما بلغ عدد المعتقلين 30 مكناسيا وواحد من خارج المدينة . أما الخسائر المادية فلم يقدر ثمنها رغم جسامتها.

والواقع أن هذه الأرقام الرسمية لم تكن في غالب الأحيان حقيقية بل تقريبية مع مراعاة الأوضاع المحلية والوطنية والدولية ، والحقيقة هي أن هناك مئات من القتلى وما يفوقهم من الجرحى كما أكد ذلك المشاركون في هذه الأحداث (20) علما أن عدد المقبورين زوال الأحداث 20 شهيدا كما هو مثبت في مقبرة الشهداء أمام باب البرادعيين ، وتركت قوات الأمن للمكناسيين تنظيم جنازة الشهداء دون تدخل خوفا من اندلاع حوادث أخرى بل أن رئيس الفرق التي أوكلت لها مهمة المراقبة أدت التحية للجمهور أثناء مرور وفد الجنازة.

وقضى المقيم العام ليلة 25-26 يوليو عند الباشا المختار كما تقتضيه عادة الضيافة لكن خيم على هذه الليلة جو من الحزن على كل سكان مكناس. وبعد عودة الهدوء إلى المدينة أعلن الجنرال ميكل حالة الطوارئ ومنع التجول داخلها

من الساعة التاسعة ليلا إلى الساعة السادسة صباحا ، كما طالب من عدة قيادات تعزيزات عسكرية من فاس والقنيطرة وعين لوح والحاجب .

### 26 يوليو 1955

بالرغم من الأحداث الدامية التي عرفتها مدينة مكناس يوم 25 يوليو فإن ذلك لم يمنع المقيم العام من إتمام زيارته وإنجاز برنامجها كما سطر له ، ففي اليوم الموالي للأحداث زار كرنفال القطاع الفلاحي العصري لمجاط على بعد 10 كلم جنوب مكناس Secteur de Modernisation du paysannat de M'jatt وأعطيت له توضيحات حول سير أعمال هذا المركز . وتوجه فيما بعد إلى الضيعة النموذجية لأحد المعمرين واسمه Canitrot ورجع إلى مكناس لزيارة المدرسة العسكرية التي كان يسميها الفرنسيون سان سير Saint-cyr (21) المغرب، حيث استقبلا مديرها العقيد داي لهومو Delhumeau والقبطان سير عبد القادر رئيس قداماء هذه المدرسة الذي أخبر المقيم العام بموالاته تلاميذ هذه المدرسة للسلطان سيدي محمد بن يوسف لأنهم جزء من الشعب المغربي. وبعد حفل الغذاء الذي نظمه كرنفال ميكل على شرف كرنفال ومرافقيه ، استقبل أيضا 52 قائدا من إقليم مكناس، ومن بين الذين تم استقبالهم في هذا اليوم المحامي إدريس المحمدي عن حزب الاستقلال وإبراهيم الهلالي عن حزب الشورى والاستقلال ، وطالبا منه إطلاق سراح المعتقلين قلبى طلبهما . وعلى إثر هذه الأحداث ألغيت زيارته لفاس بعد استشارة الجنرال لوبلان Le Blanc.

### عواقب زيارة كرنفال مكناس .

جاءت زيارة مكناس بعد زيارة مراكش إلا أنها كانت متعبة ومكلفة للإقامة العامة، مما اضطر معه كرنفال إلى إلغاء زيارته لفاس، باعتبارها كانت تجربة قاسية فلاداعي لتكرارها، لكنه لم يحسم الموقف لصالح الإقامة العامة، فقد حدثت تطورات خطيرة ليس فقط في المدن ولكن في البوادي مما عجل باستقالة كرنفال يوم 22 غشت 1955 بعدما قضى بالضبط في مهمته 60 يوما لاغير .

وكان لأحداث مكناس يوم 25 يوليوز 1955 صدى قويا داخليا وخارجيا فأقيمت صلاة الغائب في المدن المغربية على شهداء مكناس.

وفي فرنسا استدعى رئيس الحكومة انكارفور المكلف بالشؤون المغربية والتونسية بيير جولي Pierre July وطالبه بفتح تحقيق في الموضوع، كما أن الصحافة الفرنسية والباريسية منها على وجه الخصوص أولت هذه المظاهرات أهمية بالغة وأفرنت لها صفحاتها الأولى وبأحرف بارزة وقارنتها بأحداث بوفكران (1937)، كما أن كرانفال فشل في إنجاز برنامجه ولم يحقق منه أي شيء ذلك أن ابن عرفة بقي حاكما صوريا ولم يتكون مجلس العرش ولم يتنازل سيدي محمد بن يوسف عن العرش، في حين ظل الشارع المغربي فوق فوهة بركان ومرجل يغلي مطالبا بعودة الملك الشرعي للبلاد.

والغريب في الأمر أن ابن عرفة أصدر نداء إلى المغاربة يطلب منهم فيه الهدوء واحترام النظام وعدم الاستماع إلى المحرضين ويقصد بذلك الوطنيين (22).

وحاول كرانفال تهدئة الأوضاع لكن الأحداث كانت أقوى منه لذلك كانت - كما قال هو نفسه ( الأيام 27 إلى 30 ) يوليوز من الأيام المشهودة في حياته السياسية بالمغرب بسبب ما عرفته القضية المغربية من تطورات Les quatre journées du 27 au 30 juillet vont être Parmi les plus chargées de celles que jamais connus au Maroc (23) وعاد كرانفال في بداية شهر غشت 1955 لإجراء محادثات مع حكومة انكارفور لإيجاد حل للأزمة المغربية، لكن كانت هناك قوى بارزة داخل هذه الحكومة وعلى رأسها بيناي Antoin Pinay وزير الخارجية تعارض أية تسوية أو رجوع سيدي محمد بن يوسف (24). ومن التطورات التي عجلت بتقديم كرانفال استقالته ما حدث بجبال الأطلس المتوسط والكبير، ذلك أن 55 قائدا مما كانوا قد وقعوا عريضة لعزل سيدي محمد بن يوسف تراجعوا عن موقفهم وطالبوا بعودته باعتباره السلطان الشرعي للبلاد فتعرض سكان الجبال الأطلسية للقصف بالطائرات التي كان على متن إحداها الجنرال دوفال Duval قائد القوات العسكرية في المغرب ( شتبر 1949 - غشت

(1955) فأسقط المقاومون المغاربة هذه الطائرة يوم 22 غشت فكان فيها حتفه ، وفي هذا اليوم قدم كرانفال استقالته نهائيا ليعوض بالجنرال بوايي دولاتور دومولان قدم فيه Boyer de la Tour du Moulin (31 غشت 1955 - نونبر 1955) وكما جرت العادة كلما تآزمت الوضعية داخل المغرب إلا وتولى منصب الإقامة العامة أحد العسكريين. ولكن لا هؤلاء ولا أولئك تمكنوا من كبـح جماح حركة التحرير المغربية التي عجلت بعودة سيدي محمد بن يوسف إلى وطنه وكان الأسبوع الفاصل بين استقالة كرانفال وتنصيب الجنرال بوايي دولاتور دومولان حافلا بالمشاورات والحوار مع بعض أعضاء الحركة الوطنية وبيناي والجنرال بيرملري كونيغ Koening وزير الدفاع وبيير جولي Pierre July وزير الشؤون التونسية المغربية وأجريت هذه المفاوضات ما بين :

— عن حزب الاستقلال : محمد اليزيدي وعبد الرحيم بوعبيد والمهدي بن بركة.  
 — عن حزب الشورى والاستقلال : محمد الشرقاوي وعبد الهادي بوطالب وأحمد بن السودة.

— غير المنتمين امبارك البكاي والفاطمي بين سليمان وعباس التازي.  
 كما شارك في هذه المفاوضات : محمد المقرري الصدر الأعظم (15 سنة) وعبد الرحمان الحجوي رئيس تشريفات بن عرفة والتهامي الكلاوي وعبد الحي الكتاني — وكانت المحادثات فيايكس لبيان (25).

كانت أحداث مكناس المرتبطة بزيارة كرانفال للمدينة مناسبة للتعبير للمسؤولين الفرنسيين عن رفض جزء من الأمة المغربية — وباقي الأمة أيضا — لسياسة فرنسا في المغرب وأن التعتت ومحاولة فرض الأمر الواقع لم يعد يجدي. كما أن هذه الأحداث — وغيرها — عجلت باسترجاع المغرب لاستقلاله، وملاحظة ثالثة وهي أن سكان مكناس كانوا دائما سباقين للاصطدام مع الفرنسيين في مناسبات متعددة ( أحداث بوفكران 1937 وأحداث سي عبد السلام 1956) فكانت نموذجا للتظاهرات الشعبية الدامية في تاريخ الحماية الفرنسية بالمغرب.



## الموامش :

- (1) Julien ( ch. An) : Le Maroc Face aux Imperialismes 1415-1956. Editions jeune - (1) .Afrique Paris 1978, P : 411
- (2) - المصدر نفسه .
- (3) - دوجلاس أي اشفورد : التطورات السياسية في المملكة المغربية ، ترجمة ذة : عائشة سليمان عارف - د. أحمد مصطفى . أبو حاكمة. دار الكتاب ، الدار البيضاء 1964 ، ص : 109.
- (4) جريدة Le Monde العدد المؤرخ بـ 19 يوليوز 1955 - وأنظر كذلك : المرجع السابق ص : 575 ، الهامش 45 ص : 576.
- (5) - بنونة (المهدي) : المغرب ... السنوات الحرجة - شركة للمدينة للطباعة والنشر - جدة - 1989 ص : 346.
- (6) - غلاب (عبدالكريم) : تاريخ الحركة الوطنية المغربية من نهاية الحرب الريفية إلى بناء الجدار السادس في الصحراء ، الجزء الثاني ، مطبعة الرسالة - مرجع سابق - .
- (7) - غلاب (عبدالكريم) : تاريخ الحركة الوطنية المغربية - مرجع سابق - .
- (8) - Le Monde n° 3256. du 14/7/1955.
- (9) - بنونة (المهدي) : المغرب ... السنوات الحرجة ... مرجع سابق .
- (10) - دوجلاس أي اشفورد : التطورات السياسية في المملكة المغربية - مرجع سابق ص : 110.
- (11) - غلاب (عبدالكريم) : تاريخ الحركة الوطنية المغربية ... مرجع سابق ص : 690 . ذ
- (12) - Julien(ch.An): Le Maroc Face aux Imperialismes Ibid. P / 427 .
- (13) - Grandval (gilbert): Ma Mission au Maroc, Libraire - Plon , Paris 1956.P :100
- (14) - للمزيد من التفاصيل عن هذه العمليات يمكن الرجوع إلى أرشيف المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير بمكناس أو لصحافة الوقت .
- (15) - للمزيد من التوضيح عن هذا المعمر وغيره يستحسن الرجوع إلى أطروحتنا حول : مكناس : المدينة الجديدة. للتأسيس - البنيات الإدارية - التناقضات (1911-1939) الفصل الخاص بالمعمرين - توجد نسخ منها بكلية الآداب الرباط.

- (16) - Julien (ch.An) : Le Monde Face aux Imperialismes Ibid - P : 418, note 133
- (17) - المرجع السابق ص : 429.
- (18) - Grandval (G) : Ma Mission au Maroc - Ibid - P : 110.
- (19) - Julien (ch.An) : Le Monde Face - Ibid
- (20) - أنظر لائحة بأسماء الشهداء في الملحق المرفق في نهاية البحث.
- (21) - للمزيد من التوضيح عن هذه المدرسة بمكناس يستحسن الرجوع إلى أطروحتنا السالفة الذكر الباب الثاني الفصل الثاني .
- (22) - La vigie Marocain du 26/7/1955 - Le petit Marocain n° 118777 du 26/7/1955.
- (23) - بوجلاس أي اشفورد : التطورات السياسية في المملكة المغربية مرجع سابق ص : 111.
- (25) - بنونة (المهدي) : المغرب ... السنوات الحرجة - مرجع سابق - ص ص : 348-349.

### ملحق رقم 1

#### (Appel au calme de S.M. le Sultan (1

à nos sujets dévoués.

A notre peuple et »

Notre Majesté cherigienne élevée par dieu le Très-haut est profondément attristée à la pensée des trop nombreux victimes et manifestations qui se sont succédé depuis quelques jours dans notre Empire ... Il nous apparut nécessaire de vous invites à faire à conserver le calme et la sagesse ... Nous vous invitons triompher la reflexion et la tranquillité et à ne pas vous laisser entraîner par les criminels qui vous trompent et ne cherchent que l'occasion favorable de consommer la perte de Marocain...

ملحوظة : أخذ هذا النص من مصدر الهامش رقم 22.

ملحق رقم 2 : لائحة بأسماء شهداء حوادث مكناس 25 يوليوز 1955.

- لالة خديجة . - عبد اللطيف القلمي . - أحمد التواتي . - محمد بن اليزيد  
الصحراوي . - عبد العلي التازي . - محمد الرجراجي . - محمد بن عبيد الصحراوي  
- لحسن لمنبهي . - بنعيسى المشتاق . - صالح بن بوعزة . - محمد عس الزرهوني .  
- الجيلالي بن الغزاوي . - عبدالسلام الصنهاجي . - أحمد الشقرني 15 - الغازي  
الصحراوي - اليزيد الصحراوي . - إدريس الوردني - عمر الفيلاي . - إدريس  
الهوري . - بوشتي المجاطي .

## من قضايا المقاومة

- المغاربة والدعاية الأجنبية
- أسئلة الكتابة عن تاريخ الحركة الوطنية



## المغاربة والدعاية الأجنبية أثناء الحرب العالمية الثانية

عبد الحميد احساين \*

تجدر الإشارة في البداية إلى أننا انطلقنا في كتابة هذا الموضوع مما سبق أن كتبه باحثون أبرزوا أهميته وخصوبته (1).. فكتاباتهم أنارت لنا بعض المعالم وزادتنا رغبة وحماسا لتناوله والكتابة فيه فهو مجال يسمح لنا بمقاربة قضايا ذات ارتباط بوسائل التواصل الجماهيري والتقنيات والوسائل العصرية التي استعملت في الدعاية . ويفسح لنا المجال، من جهة ثانية، لتجاوز ما هو حديثي واقتحام فضاءات ذات علاقة بالبعد الثقافي والذهني وبالعالم التمثلات والتصورات. ومن هذا المنطلق فإن السؤال الذي شغلنا في هذا البحث يتعلق بنوعية وطبيعة تعامل المجتمع المغربي، المتميز بخصوصية ثقافته والمُكبّل بقيود الاستعمار، مع الدعايات

---

\* - أستاذ باحث بكلية الآداب بنمسك الدار البيضاء

الأجنبية العصرية و الشرسة التي انتعشت ، بشكل مثير للانتباه، في نهاية الثلاثينيات وبداية الأربعينيات من القرن العشرين ، و كانت تعبيرا جليا عن التناقضات والتوترات التي طبعت المجتمع الدولي في تلك الفترة التي عرفت قيام الحرب العالمية الثانية العصبية ، ابتداء من صبيحة يوم الاثنين 3 شتبر 1939.

### حرب الدعايات

لم تكن الدعايات السياسية الأجنبية بالمغرب وليدة الحرب العالمية الثانية. فالسنوات والعقود التي سبقت فترة الحرب العالمية الثانية تركت لنا سجلا حافلا بالمعلومات التي ارتبطت فيها الأحداث بالحملات الدعائية. فالحرب العالمية الأولى مثلا فسحت المجال أمام القوى المتصارعة لنشر دعايتها بالمغرب. وكذلك الأمر بالنسبة لفترة الثلاثينيات التي عرفت صعود نجم النازية والفاشستية، والأنظمة الجمعية أو الكليانية بشكل عام. فقد تميزت هذه الفترة باشتداد الحروب الإيديولوجية والإعلامية واحتدام المنافسة بين وسائل الإعلام سخرت نفسها لخدمة مصالح الرأسمالية والبرجوازية الكبرى أو للدفاع عن المذاهب الإيديولوجية التي فرضت نفسها في فترة أزمة الرأسمالية الليبرالية. وكان صدى تلك التوترات السياسية والعسكرية والصراعات الإيديولوجية يصل إلى المغرب، بل كانت عدواها تفعل فعلها في الساحة السياسية المغربية. فمجلة " ليكو ديتاليا " الأسبوعية التي أشرفت عليها الغرفة التجارية الإيطالية بالدار البيضاء مثلا، كانت اللسان المعبر عن قضايا وانشغالات الجالية الإيطالية بالمغرب، والفضاء أو المنبر الذي استغلته الحركة الفاشستية للدعاية للدوتشي موسوليني وإطلاع القراء على خطب وأعمال المسؤولين الإيطاليون ونشر مقالات تمجد قوة الاقتصاد الإيطالي وتبرز مزايا الفاشستية وتنتقد فرنسا التي غرقت، في نظر الفاشستيين، في بحر من المشاكل الاقتصادية بسبب تبني النظام البرلماني الذي قاد إيطاليا من قبل إلى الهاوية .

ومع اقتراب الحرب العالمية الثانية، اشتدت وطأة الدعايات والدعايات المضادة وازدادت حدة التوتر داخل الجاليات الأوربية المقيمة بالمغرب(2). ولم

ينحصر أمر هذه الدعايات داخل نطاق الجاليات الأجنبية. بل تجاوزه ليشمل كل فئات وشرائح المجتمع المغربي. فقد دعم الاسبان دعايتهم وسط القبائل المغربية الشمالية محاولين إقناع أفرادها بالانخراط في الجيش الاسباني من أجل المشاركة في حرب تحريرية لا تنتهي إلا لانتهاه احتلال المغرب. وشدد الإيطاليون حملاتهم الدعائية المضادة لفرنسا وانجلترا. وسار الألمان في نفس الاتجاه. ففي المؤتمر الوطني الألماني المنعقد بمدينة "بريم" Brême، بين يومي 25 و 27 ماي 1938، أكد ممثلو الجيش والشؤون الخارجية، على أهمية دعم نفوذ الألمان خارج أوروبا، و خصوصاً "غينيا" والمناطق الخاضعة لإسبانيا، وعلى ضرورة ربط الاتصال بالوطنيين في المغرب والجزائر. وتم، في هذا الإطار، بعث بعض الضباط الألمان، بشكل سري، إلى بلدان المغرب العربي وتكثيف نشاطهم ودعايتهم بالمنطقة الشمالية الخليفية وبجزر الخالدات والمنطقة الصحراوية الجنوبية(3).

وبعد اندلاع الحرب العالمية، ازداد الأمر خطورة. فقد أخذت الأطراف المتصارعة تتسابق في البحث عن التحالفات ونقاط الارتكاز واستعمال كل الوسائل التي تضمن لها الفوز وتحقيق النصر. وكانت الدعاية السياسية من أخطر الوسائل التي لجأت إليها مختلف هذه الأطراف. وفي هذا السياق، حرصت ألمانيا، الراغبة في زعزعة الاستعمار الفرنسي بالمغرب، على استمالة رجال الحركة الوطنية وتأليب المغاربة ضد الفرنسيين. واستعانت في ذلك، ببعض الشخصيات الإسلامية والعربية البارزة. ومن أبرز هذه الشخصيات شكيب أرسلان الذي وصل في شتبر 1939 إلى برلين من أجل تكثيف الدعاية عبر الراديو في الأوساط الإسلامية(4). ولم تكتف ألمانيا بالخطب التي كانت توجهها باللغة العربية إلى كل الشعوب العربية. فقد عملت على إجراء اتصالات مباشرة مع الشخصيات البارزة في هذه المجتمعات. ففي المغرب، مثلاً، أجرى "لانكناهايم" Langenheim وهو من رجال "مانسمان" Mannesmann، اتصالات عديدة مع عبد الخالق الطريس

مباشرة بعد اندلاع الحرب. وكان الهدف، بناء على ما نكرته مصالح الاستخبارات الفرنسية التي نقلت الخبر، تهيئ حملة دعائية ضد فرنسا وانجلترا (5). ولجأت الاستخبارات الألمانية إلى أسلوب المناشير أيضا. ففي شهر أكتوبر من نفس السنة مثلا، وزعت منشورا بمدينة الرباط حرصت فيه على نفي تهمة الوثنية على أدولف هيتلر الذي كان، حسب نفس المنشور، يمر بمرحلة انتقالية قد تقوده إلى الإسلام (6)..

وكان الفرنسيون يتوقعون أن تلعب ألمانيا ورقة القومية العربية وأن تعمل على إنكاء روح الثورة في سوريا والمغرب العربي وتشجيع الحركات الوطنية والأفكار المعادية لليهود. ولمواجهة الأمر، حاولوا تنظيم حملات دعائية مضادة. ومن الوسائل التي استعملوها لتحقيق هذه الغاية، إذاعة الرباط التي عملت تحت إشراف المصالح الإعلامية التابعة للإقامة العامة. وقد بلغت هذه الحملة الإعلامية ذروتها... يوم إعلان الهدنة بعد انهيار خط ماجينو وهزيمة فرنسا واستسلام قائد قواتها المارشال فيليب بيتان Philippe Pétain في يونيو 1940 (7).

لكن انهزام فرنسا في الحرب لم يكن الحدث العابر الممكن تجاوزه بسهولة بل كان حدثا بالغ الأهمية. فترجع قوات الحلفاء وسقوط باريس بين أيدي جيوش هيتلر، لم يضعف موقف فرنسا بالمغرب فحسب، بل إنه أعطى الفرصة للكويديو فرانكو، الذي فضل الانضمام إلى صف دول المحور، للاستيلاء على مدينة طنجة الدولية و شجع الحزب الفاشستي الإسباني على القيام بمظاهرات، في جميع أنحاء إسبانيا، مطالبا بالاستيلاء عسكريا على المناطق المغربية الخاضعة للحماية الفرنسية. وانسجاما مع هذه التطورات الخطيرة، فسح فرانكو المجال للقوات الألمانية لإجراء التدريبات العسكرية في المنطقة الخلفية واحتلال بعض المواقع المغربية (8).

وكان أمرا طبيعيا أن تقل وتتقلص حدة الدعاية الفرنسية بعد استسلام فرنسا وقيام نظام فيشي وتشكيل لجان الهدنة. لكن ذلك لم يعن أبدا انتهاء مفعول ونشاط

الدعايات المختلفة؛ ولو أن صيرورة النشاط الدعائي تأثرت بشكل كبير بنزول الحلفاء بالسواحل المغربية في 8 نونبر 1942 ، وبتقلص خطر وتأثير الدعاية الألمانية التي بعد أن أخذت جيوش هيتلر تتقهقر وتتراجع جيوشها في إفريقيا الشمالية أمام زحف قوات الحلفاء (9).

### النخبة المغربية والدعاية الأجنبية بالمغرب

استعانت فرنسا في حملتها المضادة للدعايات الأجنبية على شخصيات مغربية وبعض عناصر المخزن والنخبة المغربية. فقد جندتهم، في إطار برنامج إذاعي كان يقدم كل يوم خميس (10) للتعبير عن ضرورة تضامن المغاربة مع فرنسا في حربها ضد دول المحور، ولإبراز محاسن ومزايا الوجود الفرنسي بالمغرب أو على الأقل للتأكيد على ضرورة التزام المغاربة بالعهد أو الميثاق الذي يشدهم إلى فرنسا البلد الحامي. وإذا كان بعض الوزراء قد شاركوا في هذه الحملة المؤيدة لفرنسا، فإن ذلك انسجم مع موقف السلطان سيدي محمد بن يوسف الذي أعلن الحرب رسميا على ألمانيا في 3 شتبر 1939 ، واختار التضامن مع فرنسا في حربها ضد دول المحور، ومناهضة " الحركات العنصرية المضطهدة للشعوب" (11). كما انسجم أيضا، مع موقف الحزب الوطني الذي فضل ، بعد القمع والاضطهاد اللذين عانت منه الحركة الوطنية برمتها، على يد الجنرال نوكيس سنة 1937، تأييد موقف السلطان والتعبير عن تضامنه مع الإقامة العامة ممثلة فرنسا بالمغرب.

وقد شكل هذا الأمر عنصرا إيجابيا بالنسبة لإدارة الشؤون السياسية التي أقيمت عليها مسؤولية تتبع حركات وسكنات المغاربة. فإذا كانت هذه الإدارة تتبّع بقلق وحذر شديدين نشاط الاستخبارات الألمانية بالمغرب (12)، فإنها وجدت في مواقف النخبة المغربية المتضامنة معها، خصوصا في فترة ما قبل يونيو 1940 ما جعلها تشعر ببعض الاطمئنان. وتدعم هذا الشعور أو الإحساس في نفوس مسؤولي هذه الإدارة لاعتقادهم أولا، بأن انضمام تركيا ، " القوة الإسلامية



الكبرى التي اشتهرت بواقعتها، للحلفاء ، عزز الشعور بالارتياح لدى النخب المغربية التي زادت اقتناعا، في نظر الفرنسيين، بضرورة الثقة في الحلفاء و في مزايا التضامن مع الاستعمار الفرنسي (13)، ولاقتناعهم ثانيا، بضعف تأثير الدعاية الألمانية على المغاربة . فهؤلاء، في نظرهم، كانوا متشبهين بدينهم وثقافتهم الإسلامية ومحصنين ضد " الآراء الإلحادية والوثنية الجديدة " الألمانية و الروسية (14). وتأكيدا على هذا المعطى، أشارت بعض التقارير الفرنسية إلى أن أحد الأعيان المغربية والوطنيين البارزين بالرباط نكر في أحد المجالس ، أن النازية تتناقض الإسلام وتعد من أشد أنواع الاستعمار خطورة. وفضل عليها الاستعمار الفرنسي الذي كان في رأيه أكثر نعومة وأقل فظاظة . ولم ير في تأييد المغاربة لفرنسا تعبيراً عن الولاء للدولة الحامية فحسب، بل أيضا نضالا من أجل الحرية والنزعة الإنسانية اللتين تتمثلان في الديموقراطيات الغربية (15).

لكن هذه الرؤية لا ينبغي البتة أن تدفعنا إلى الاعتقاد بأن النخبة المغربية كانت موحدة الرأي فيما يتعلق بمسألة التضامن مع فرنسا أثناء الحرب(16). ويتجلى ذلك بشكل واضح في أوساط الوطنيين الذين التزم بعضهم الصمت أو مالوا، كما فعلت الحركة القومية ، إلى أسلوب التحفظ والحذر (17). ولم يقف الأمر بالنسبة للبعض عند هذا الحد، ففي مراكش مثلا، كان السجن والاعتقال مصير العناصر التي فضلت التعبير عن رفضها لفكرة " التضامن " (18). وتدعم هذا الاتجاه بفكرة سرت بين الناس ، وهي فكرة الاعتماد على ألمانيا لضرب فرنسا. فسياسة "الحماية الهوجاء " ، التي أثارت امتعاض الوطنيين وأجبت مشاعر الحقد ضد فرنسا تسببت في تعاطفهم مع " أعداء الغاصب " (19)، وخصوصا مع الألمان الذين اكتسبوا ونالوا ، لقوتهم وسياستهم المعادية لليهود، عطف وإعجاب شرائح واسعة في المجتمعات العربية(20).

وقد وجد هذا الخيار صداه، بشكل جلي، في المنطقة الشمالية الخاضعة لاسبانيا. فبعد الاتصالات التي جرت مع الوطنيين ، وخصوصا مع عبد الخالق

الطريس ، وبعد الوعود التي قدمت لهم من أجل تلبية مطالبهم، استعمل هؤلاء "راديو شبيلية" و "جريدة الريف" (الطريس) و "الوحدة المغربية" (المكي الناصري) لشن حملة واسعة ضد النظام الاستعماري الفرنسي بالمغرب والمطالبة بإطلاق سراح الوطنيين المعتقلين وتطبيق خطة الإصلاحات المغربية والتعبير عن الاستعداد للدفاع عن حرية المغرب وبرنامج الحركة الوطنية.

ولم يشكل الاعتماد على الحركة الوطنية بالشمال إلا عنصرا من عناصر الخطة التي هيأتها اسبانيا لضرب الفرنسيين بالمغرب. فالدعاية الاسبانية نشطت حتى داخل المنطقة الخاضعة "للحماية" الفرنسية. بل إن بعض المغاربة أنفسهم ساهموا في ذلك وجعلوا من أنفسهم أدوات في أيدي النظام الفرنكوي. فقد أوردت بعض التقارير الفرنسية أخبارا غير مؤكدة تفيد بأن دعاية لصالح اسبانيا وصل تأثيرها إلى مدينة سلا، كانت تنهيا وتتنظم على يد تجار أو شخصيات تنتمي لمنطقة الغرب بناحية سوق أربعاء الغرب(21).

ولا يجب من جهتنا ، أن نبالغ في الحديث عن تأثير وخطورة هذه الدعايات المناوئة لفرنسا وبريطانيا. فرغم حرص إسبانيا ودول المحور على تقوية وسائل الدعاية المضادة للفرنسيين ونشر مجال امتدادها، فإنها لم تعمل على تعزيز حملاتها الإعلامية والدعائية بإجراءات فعلية ومبادرات عملية تساعد على تقوية الحركات الوطنية في المغرب العربي. فألمانيا مثلا، لم تحاول أبدا تجاوز مجال الحرب السيكولوجية، ورفضت منذ البداية الحرب، مساندة هذه الحركات بالسلاح أو المال. فهي لم تكن تسعى إلا لكسب ثقة سكان المنطقة وزعزعة ثقتهم في الحلفاء وإضعاف المواقع الفرنسية و فشلت نتيجة ذلك، رغم كل الجهود التي بذلتها و"الأكانيب" التي لجأت إليها، في إثارة الاضطرابات خطيرة بالمنطقة(22). وذلك لا يعني عدم انتفاء العلاقة بين امتداد الحركات الوطنية بالمغرب الكبير والدعايات المضادة للفرنسيين ، وخصوصا الدعاية الجرمانية الواسعة والقوية. فهذه الأخيرة حسبما أشار إليه بعض الباحثين، ساهمت، وبشكل خاص بعد انهزام الفرنسيين في

يونيو 1940، في خلق بعض الدينامية في العمل الوطني المناهض للاستعمار الفرنسي(23). فقد كان للدعاية الجرمانية أثرها في نفوس المغاربة. ونستدل على ذلك بما أورنته بعض التقارير الفرنسية من معلومات عن نشاط الوطنيين. فالتحريات التي أجرتها السلطات الفرنسية بمدينة الدار البيضاء وسلطات لم تكشف عن وجود تطور أو نمو في نشاط "العناصر الإصلاحية" (والمقصود بهم الوطنيين) ، لكن الأخبار التي حصلت عليها الاستخبارات الفرنسية من "إحدى الشخصيات المغربية الواسعة الاطلاع" جعلتهم يعتقدون بأن "عش الثعابين الحقيقي" لم يعد موجودا بفاس وإنما انتقل إلى الرباط ، وخصوصا إلى سلا التي نشأت بها بناء على ما ألفت عليها التقارير الفرنسية، إحدى الخلايا المتميزة بنشاطها الكبير وبميلها للألمان. وقد بلغ هذا الميل درجة جعلت البعض يقبل على تعلم اللغة الألمانية(24).

ولم تكن فكرة الاستقلال غائبة عن الأذهان في تلك الفترة. ففي الوقت الذي راجت فكرة تتعلق بإمكانية حصول المستعمرات الإنجليزية على الاستقلال ، في نهاية سنة 1939، أكد بعض الوطنيين على ضرورة تهيئ دفتر للمطالب من أجل تقديمه للسلطات الفرنسية عند الضرورة(25). وأشار علال الفاسي ، من جهته، إلى أن لجنة الهدنة التي قدمت إلى المغرب بعد انهزام فرنسا في يونيو 1940، لم تجد "في الأوساط الوطنية أنى صدى لدعايتها" ، إذ أخذت تنتشر في تلك الأوساط، منذ ذلك الوقت، " فكرة الاستعداد للقيام بحركة جديدة" (26). وبموازاة ذلك، شرع قادة الحزب الوطني ، مباشرة بعد انهزام الفرنسيين أمام الألمان، في إعادة تنظيم حزبهم بفاس وإعداد برنامج عملهم. وانشغلوا بمسألة جمع الأموال لدعم عمل الحزب. وانتخب، في هذا الإطار، أحمد مكوار أمينا على مالية الحزب. ونظرا لوعيهم واقتناعهم بضرورة القيام بعمل جاد يمكنهم من تفعيل نشاطهم ومضاعفة قدرتهم على الضغط على الفرنسيين، فقد توجهوا إلى الأسواق بالبايعة ، تحت نريعة المتاجرة، لممارسة الدعاية للحزب(27). ودعما لهذه الفكرة أكد علال الفاسي ما يلي:

"منذ سنة 1940، أخذ تيار عام يجري وسط الحزبيين كما يسمونهم، وينكرهم بما قامت به فرنسا من فظائع، وكيف أنها لم تتأثر بالظروف ولا اتعظت بالأحداث ولا راعت الدماء المغربية التي تسيل في صفوفها، واتجهت الأنظار إلى ضرورة الخروج من نظام الحماية والبحث عن وسائل التحرر والانعقاد" (28). وكانت كل هذه الأمور تجري في ظرف انشغل فيه المغاربة قاطبة بتتبع أخبار الحرب. ولذلك، فإن تأثيرها شمل كل الفئات ولو أن رد فعل الوطنيين والنخبة اختلف بعض الشيء عن ردود فعل الفئات الشعبية والبسيطة التي ظلت ملتصقة في نظرتها للاستعمار، بهوم حياتها اليومية.

### رد الفعل على المستوى الشعبي

كان المغاربة يتتبعون أخبار أوروبا والسياسة الدولية. وتزايد اهتمامهم بتتبع أخبارها بعد قيام الحرب العالمية الثانية واشتداد حرب الدعايات التي حمي وطيسها بين الأطراف المتنازعة. ولم تكن الفئات الشعبية تعرف شيئاً عن فلسفة هيتلر العنصرية ونواياه التوسعية؛ كما أنها لم تكن تأبه بالتحليلات السياسية. لكنها كانت شديدة الاهتمام بالوقائع والأحداث وبأخبار الانتصارات والانهزامات. فقد كان الناس يتداولون فيما بينهم أخبار "راديو برلين" والمعلومات المتعلقة بانتصارات جيوش دول المحور، بانبهار شديد أحياناً. وتدعم هذا الانبهار بمشاعر الحقد التي خالجت صدورهم ضد الفرنسيين.

وكان هؤلاء، من جهتهم، منشغلين برصد حركات المغاربة بالمدن والبوادي المغربية، لكنهم كانوا، استناداً إلى ما ورد في تقاريرهم، يشعرون بارتياح كبير لـ "الهدوء" الظاهر الذي ساد مختلف أرجاء البلاد. فقد ألقت هذه التقارير على أن الفلاح المهتم بتتبع أطوار الحرب انشغل بشكل أكبر بأسباب معيشته اليومية. وحرصت على تسجيل وتثبيت كل المناسبات التي عبر فيها المغاربة عن تضامنهم مع الفرنسيين. وتدخل في هذا الإطار، عمليات الاكتتاب أو حملات التبرع بالأموال لدعم الجهود الحربية وعمليات التجنيد أو انخراط المغاربة في الجندية

ومشاركتهم في الحرب. وعملت ، من جهة ثانية، على اختراق المجتمع بوسائلها الدعائية. ولم تكتف في هذا المجال بالوسائل المكتوبة أو السمعية، بل استعملت أيضا الأشرطة السينمائية التي كانت تعرضها القوافل السينمائية في الهواء الطلق . واستقبلت الفئات الشعبية تلك العروض المصورة التي كانت تقدم أخبار الحرب بمنظور فرنسي، بتلقائية وحماس كبيرين. واقتحمت الصورة بذلك، فضاءات تقليدية ومجالات لم تتخبط بشكل قوي في مسلسل التغييرات التي مست المدن الساحلية الكبرى. وكان الهدف من تكثيف الدعاية ووسائل الاتصال الجماهيري وتوزيع أساليبها قولبة الأذهان والتأثير على المواقف والسلوكيات(29). فخطة الإقناع عن طريق التواصل كانت ، في فترة الحرب العالمية الثانية ، بمثابة موضة تتبني على فكرة التحكم في الوسائط ووسائل الإعلام والتواصل للتمكن من التحكم في المجتمع لكن المجتمع المغربي ، مع ذلك، لم ينسق مع معطيات هذه الدعاية، انساقا تاما يفقده قدرته على التمييز والانتباه. ويرجع ذلك ، أولا، لتسبته بخصوصية ثقافته وتقاليد الاجتماعية والدينية التي ميزته عن القوى الامبريالية الكبرى المتصارعة في الحرب ؛ وثانيا، لضعف تغلغل وسائل الاتصال والإعلام في المجتمع المغربي لأسباب تقنية ومادية . وذلك لا يقلل من أهمية انتشار الدعاية الأجنبية في الأوساط المغربية . وفي هذا السياق ذكر الأستاذ جامع بيضا أنه من الصعب الإجابة عن السؤال المتعلق بحجم المستمعين إلى الدعاية الألمانية الراديو فونية بالمغرب، لكنه علق على ذلك قائلا بأننا إذا " كنا نعرف أن عدد أجهزة الراديو بالمغرب لم يكن يتجاوز 4660 جهازا في أوائل أكتوبر 1938، فإنه لا شك أن لهذا الرقم المتواضع أثر مضخم في مجتمع ترسخت فيه التقاليد الشفوية. فالخبر في بادئ الأمر لا يمس إلا فئة قليلة من الناس التي تتولى تناوله في الأسواق والجوامع وغيرها، فتتوسع بذلك دائرة أصدائه.." (30).

وكان لذلك تأثيره على المغاربة في تلك الظروف التي اشتدت فيها معاناتهم وتواترت فيها الأحداث العسكرية والسياسية وتكاثر فيها الحملات الدعائية . وقد

أثر ذلك، بقوة على المخيلة و الذهنية الجماعية المشبعة بمعطيات الثقافة الشفوية. فالأخبار الحربية والسياسية امتزجت بالشائعات التي حملت بصمات المغاربة وأصبحت معطى يقابل، إن لم يكن يناقض أحيانا، الدعاية الفرنسية. وكمثال على ذلك، الانفجار الذي وقع في ربيع سنة 1940، بسفينة كانت راسية بمرسى الدار البيضاء. فهذا الانفجار أدى بشكل سريع إلى رواج أقاويل وإشاعات، شبيهة بالتي راجت بعد انفجار السفينة "بلوتون" Pluton قبل ذلك. فقد شاع بين المغاربة أنهما تعرضتا للقصف من طرف طائرات أو غواصات ألمانية(31). وفي الوقت الذي انشغل فيه الانجليز بمدينة الدار البيضاء، ، بالدعاية لصالح الجنرال ديغول "ممثل فرنسا الحرة"، في شهر شتبر من نفس السنة، أخذت تروج إشاعات قوية عن قرب احتلال الألمان والإيطاليين لإفريقيا الشمالية(32). وفي مدينة الدار البيضاء دائما، رأى المغاربة في العرض العسكري الذي نظم بمناسبة عودة بعض الفرق العسكرية إلى "إفريقيا الغربية الفرنسية"، في شهر فبراير 1941، دليلا على قرب انسحاب الفرنسيين من المغرب. فالجيش الفرنسي، وفق ما شاع بين الناس وقتئذ، كان يستعد لحمل أعلامه حتى لا يستولي عليها الألمان. وأثار خبر هذه الإشاعة التي راجت بالمدينة غضب السلطات الإقليمية الفرنسية التي طلبت من مدير الشؤون السياسية إصدار تذييب ب"راديو-المغرب" يفند هذه الإشاعة المغرضة التي كانت وراءها، حسبما أشارت إليه، الدعاية الألمانية في الغالب(33).

ولم تكن الإشاعات العنصر الوحيد الذي عبر من خلاله المغربي العادي أو البسيط عن رؤيته للأمور في ظل الحرب. فالأغنية أيضا كانت وسيلة استغلها للتعبير عن مشاعره وآلامه. وكانت المصالح الفرنسية المتتبعة لحركات وسكنات المغاربة تسجل بقلق، كل الأغاني أو الكلمات التي تلمس فيها تناقضا مع مضمون دعايتها وأعمالها بالمغرب. ومن جملة ما سجلته مصالحها بناحية الأطلس المتوسط (مركز قصبة تادالا) في شهر مارس من سنة 1940 أغنية أمازيغية أنشدها أحد المغنين المتجولين في أراضي آيت خويا احمد المنتمين ل " آيت عبيدي " ب(ناحية ) كوسير

Coucer. والمثير للانتباه هو أن صاحب هذه الأغنية ، " التافهة " حسب قول الفرنسيين، اعتقل وسُجن لمدة ستة أشهر؛ فهي كانت ترمز ، في نظرها ، إلى "حالة ذهنية" أو عقلية جدية بأن تُرصد عن كثب وتراقب عن قرب(34). ولم يكتفِ واضعو بمركز قصبة تادلا بتقديم هذه المعلومات ، بل إنهم أرفقوها وعززوها بورقة ملحقة تضمنت كلمات المغني المتجول أو المقطع الذي أثار قلقهم. واستعملوا في نقلهم لذلك النص الأمازيغي الحروف الفرنسية. ونقدم فيما يلي مضمونه:

Ad-inser rebbi wadèh d-idan a-dig jawi sa irden i-sa

ونقدم، من جهتنا، ترجمةً للترجمة التي وضعوها للمقطع الأمازيغي. وهو كما يلي:

" لينصر الله ذلك الذي يأتي من أجل أن يتمكن الجار من سلب قمح جاره ".  
وفي ناحية بني ملال ارتأت السلطات الإقليمية ضرورة أن تبليغ إلى الإدارة المركزية مضمون أغنية كان الناس "يتنغمون" بها في تلك النواحي(35). وتقول الأغنية:

الكيرا لهبيلا دات القبيلة \*

•• ما حسيو حتى تشرجيتو

••• كولو لمي كلتي الجبري

\* ما تشوفي قبري

\* بغيتي ميتين

\* هذا العام تجيك كيتين

إن الدعاية الفرنسية كانت تحاول أن تبرز تحمس المغاربة للالتحاق بالجيش لمحاربة الألمان، وتعبّر عن رغبة الفرنسيين في ضمان استمرار تأييد المغاربة لهم في محنتهم ،خصوصا بعد سقوط باريس في براثن الاحتلال النازي في يونيو 1940. لكن هذه الأغنية تظهر زيف هذه الدعاية. فهي تظهر لنا الوجه الآخر المتمثل في المعاناة من القهر والبؤس والعسف . وتعبّر عن انفعالات ومشاعر الناس الذين اضطروا لإرسال أبنائهم للحرب ، لمواجهة مصير مجهول

محفوف بالمخاطر، لأسباب ارتبطت بضغط الظروف الاقتصادية القاسية أو الإكراه الذي كان يمارس عليهم من طرف القواد و الباشوات، ممثلو السلطة الاستعمارية. وهذه الأحاسيس والمشاعر ازدادت حدة بعد انهزام فرنسا في الحرب ضد الألمان. فالهزيمة كانت ضربة قاسية بالنسبة للاستعمار الفرنسي بالمغرب. وهذا ما نلمسه من هذه الأغنية التي انتشرت في دائرة الشاوية الجنوبية، في صيف نفس السنة. ومضمونها ما يلي:

العسكر بقى مكرس

مع فرنسيس المفلس

بحرا تكلمت الكورا

والفرنسيس كبض الطريق و مشى

وهي أغنية تتحدث عن اندحار الجيش الفرنسي وخيبن الفرنسيين الذي انسحبوا (من ساحة المعركة؟) بمجرد ما انطلقت أصوات المدافع (36). لم تعبر هذه الأغنية وحدها عن مثل هذه الأحاسيس. فقد ورد في تقرير رئيس دائرة الشاوية الجنوبية، مثلا، أن أطفالا ب"سطات" رسموا على فوق الطريق المعبدة صور جنود ألمانيين وانجليز ورسوم دبابات وطائرات. وكتبوا أسفل الرسوم عبارة "تحى فرنسا" وإلى جانبها كلمة بالعربية تحمل معنى honteuse. وقد يكون المقصود، بشكل عام: "تحى فرنسا الملطخة بالخزي (خزي أو عار الهزيمة)؟ ويسير في نفس الاتجاه ما أورده نفس الوثيقة من معلومات تفيد بأن الناس في سوق الحد المنعقد في قبيلة أولاد زيان يوم 21 يوليوز لم يكونوا يقبلون التعامل بورقة خمسة فرنكات فرنسية. وذلك لأن الإشاعات المتعلقة بتدخل الألمان في شؤون الوطنيين المغاربة وصلت أيضا إلى سطات والدار البيضاء (37). وفي الوقت الذي توالى فيه الأخبار عن تزايد انتشار دعاية دول المحور في مناطق المغرب الداخلية، انتشرت، في مواقع ومراكز مختلفة، "حكاييات وأغاني تنذر بقرب انتصار الألمان وحلول الفرج والازدهار". هذا ما لمستته الاستخبارات



الفرنسية ، وسجلته تقاريرها، بشكل واضح عند حدود ناحية وادي زم، في بعض مراكز الدير ، وخصوصا ب " بني ملال " ، حيث كانت تتعقد كل سنة مواسم هامة. ولمواجهة هذا الأمر طلبت السلطات الفرنسية من رء .ء المركز تشديد المراقبة على " الشيخات " والفرق الموسيقية والمغنين ومنظمي اللعاب البهلوانية (38).

وهكذا، فقد كانت فترة الحرب العالمية الثانية فترة عصيبة بالنسبة للمغاربة الذين عانوا من ثقل الظروف الصعبة ومن ويلات الاستعمار والاستغلال . لكنها كانت أيضا فترة لزداد فيها انفتاح الوعي المغربي على المحيط الخارجي والبعد الدولي ومرحلة نشاط الدعايات المختلفة التي استعملت، بنوع من الحنكة والخبرة وسائل متطورة و تقنيات تركز على أسس ومناهج عقلانية. وانعكس ذلك على المغربية، وخصوصا الفئات الشعبية والكادحة التي كانت تعيش حالة توتر وانفعال وترقب وانتظار؛ مما أدى إلى خلق مناخ ملائم لظهور أغاني شعبية وإشاعات وتمثلات تناقض أهداف ودعاية المستعمر وتعبير عما كان يختلج في صدورهم من انفعالات وتوترات وطموحات.

وإذا كانت الحركة الوطنية قد التزمت، بشكل عام، بمبدأ " التضامن " مع المستعمر الفرنسي بعد اندلاع الحرب. فإن الجو العام الذي ميز أطوار الحرب العالمية الثانية وسمح ب بروز تلك الأشكال التعبيرية التي عبر المغربية من خلالها عن آلامهم وطموحاتهم ، ساعدت على إيقاظ الهمم ومغازلة فكرة الاستقلال التي راودت نخبة من الوطنيين ، ابتداء من نهاية سنة 1939، قبل أن تنمو وتتضج لتتبلور في عريضة المطالبة بالاستقلال في 11 يناير 1944.

## الموامش:

(1) — أنظر: جامع بيضا، المغرب والدعاية النازية، ص 9- 30

J. Baida, Perception de la période nazie au Maroc: quelques indices de l'impact de la propagande allemande sur l'état d'esprit des Marocains, in Marocains et Allemands: la perception de l'autre, Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Série colloques et séminaires n° 44,

pp. 13-19;ibid., Le Maroc et la propagande allemande , hespéris-Tamuda, volume 28, 1990, pp. 91-106; CH. R. Ageron, "contribution à l'étude de la propagande au Maghreb pendant la deuxième guerre mondiale", Revue d'histoire Maghrébine, n° 7-8, janvier 1977, pp. 16-32; ibid., les populations du Maghreb face à la propagande allemande, Revue d'histoire de la 2<sup>ème</sup> guerre mondiale, XXIX, n° 114, 1979, pp. 1-39...

(2) — كانت عناصر الجالية الإيطالية، المقيمة بمدينة خريبكة مثلا، عرضة للقلق والانفعال المتزايدين. أما المجموعة الشيوعية الإسبانية الموجودة بالدار البيضاء ، البالغ عددها 600 عضو، فقد كانت تقوم، حسب ما ورد في التقارير الفرنسية، "بنشاط مثير للاستفزاز" Direction des affaires politiques( Section politique), Bulletin d'informations, 22 septembre 1939, p. 1-2, (Bulletins d'informations, Bibliothèque générale, Rabat)

(3) — Bulletin d'informations, juin 1938, p. 2

(4) — أنظر فيما يتعلق بوسائل ومراكز الدعاية النازية J. Baida, Perception de la période nazie au Maroc... وأيضا مقاله السابق الذكر "المغرب والدعاية النازية".

(5) — Direction des affaires politiques( Section politique), Bulletin d'informations, n° 115, le 22-09- 1939, (Bulletins d'informations, Bibliothèque générale, Rabat).

(6) — Bulletin de renseignements (Région de Rabat), n° 76, Rabat 4 octobre 1939,( Bulletins de renseignements, Bibliothèque générale, Rabat).

(7) — عبد الهادي بوطالب، زكريات ، شهادات ووجوه، الجزء الثاني، الشركة السعودية للأبحاث والنشر، 1993، ص 23.

(8) — علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، عبد السلام جسوس، طنجة، د.ت.، ص 231 .

(9) — وتأسيسا على ذلك، أصبحت الدعاية التي كانت تقوم بها ذات طابع دفاعي ، في الوقت الذي لم يعد بمقدور الألمان أن يقدموا شيئا للوطنيين .أنظر: CH. R. Ageron, "contribution à l'étude de la propagande au Maghreb pendant la deuxième guerre mondiale", p. 21.

(10) — عبد الهادي بوطالب، م س، ص 23-24.

(11) — علال الفاسي، م س، ص 229.

(12) — ذكر "شارل روبير أجيرون" أن الاستخبارات الفرنسية بالغت، في تقاريرها، في التأكيد على خطورة الدعاية الألمانية. م س، ص 17-18.

- (13) — أفادت بعض التقارير الفرنسية أن المفاوضات الروسية التركية أثارت قلق النخبة المغربية. لكن فشل هذه المفاوضات وتوقيع الاتفاق بين الفرنسيين و الانجليز والترك مباشرة بعد ذلك وبدء المحادثات العسكرية بين الجنرال "فيكان" Weigand القائد العام للقوات الانجليزية بالمشرق والقيادة التركية كان لها صدى قويا في نفوس هذه النخبة التي استحوذ عليها الشعور بالارتياح لانضمام تركيا للحلفاء. Section ( Direction des affaires politiques( Bulletin d'informations, n° 144, 21 oct. 1939, (Bulletins d'informations, Bibliothèque générale, Rabat).
- (14) — Direction des affaires politiques( Section politique), Bulletin d'informations., n° 124, oct. 1939, (Bulletins d'informations, Bibliothèque générale, Rabat).
- (15) — Bulletin de renseignements, (Région de Rabat), 5 octobre 1940, (Bulletins de renseignements, Bibliothèque générale, Rabat).
- (16) — عبد الهادي بوطالب، م س، ج 2، ص 30-31.
- (17) — ن م، ص 29.
- (18) — ن م، ص 28-29.
- (19) — م ن، ص 31.
- (20) — à l'étude de la propagande au Maghreb CH. R. Ageron, "contribution ...pp 16-17; J.Baida, Le Maroc et la propagande allemande , p. 91. ذكر جامع بيضا أن "ألمانيا كانت تتمتع إبان الثلاثينيات برصيد من التعاطف في المغرب. ويرجع عهده إلى العقد الأول من القرن العشرين، عندما أخذت نخبة من الكتاب المغاربة تبدي تعاطفها مع "الدولة الغليومية".. وتعزز هذا الرصيد أثناء الحرب العالمية الأولى عندما كانت ألمانيا تحارب في نفس صف العثمانيين.. ("المغرب والدعاية النازية، ص 9).
- (21) — Direction des affaires politiques( Section politique), Bulletin d'informations n° 210, le 26 sept. 1940 (Bulletin d'informations, Bibliothèque générale, Rabat)
- (22) — à l'étude de la propagande au Maghreb, CH. R. Ageron, "contribution pp. 18,21,31.
- (23) — م ن ، ص 32.
- (24) — أنظر : عبد الهادي بوطالب، م س، ج 2، ص 32.
- (25) — Bulletin de renseignements, (Région de Rabat), n° 133, Rabat le 4 - 12 - 1939, (Bulletins de renseignements, Bibliothèque générale, Rabat).
- (26) — علال الفاسي، م س ، ص 231.

- (27) Direction des affaires politiques( Section politique), Bulletin d'informations, le 23 août 1940
- (28) — علال الفاسي، م س، ص 230.
- (29) J.Baida, le Maroc et la propagande ..., p. 105
- (30) — جامع بيضا، المغرب والدعاية النازية، ص 13.
- (31) Bulletin de renseignements, (Région de Casablanca), n° 24, — Casablanca le 5 avril 1940, (Bulletins de renseignements, Bibliothèque générale, Rabat).
- (32) Bulletin de renseignements, (Région de Casablanca ),n° 64, — Casablanca le 17septembre 1940
- (33) Bulletin de renseignements du 14 février 1941
- (34) Bulletin de renseignements, signé par le Colonel Hurel, chef du territoire de l'Atlas central (Bureau regional ), Kasba- Tadla , le 30 mars 1940, 2p(Bulletin de renseignements de l'Atlas central, Bibliothèque générale, Rabat).
- (35) Bulletin de renseignements,, région de Casablanca, Casa le 5 avril 1940, n° 24
- \* — أي إن الحرب المجنونة ذهبت بالقبيلة (إلى الأسوأ)
- \*\* — لم تحسوا بخطورتها حتى فات الأوان وامتأ الكأس
- \*\*\* — قولوا لأمي بأنها أكلت الجبر أي بذور القمح التي كان الباشا يقدمها للفلاحين تعبيرا عن التضامن الأخوي في فترة الحرب
- ⊙ — لن تري قبري
- ⊙ — أردت مائتين (أي أن أمه أرادت أن تقبض المبلغ الذي يدفع للمجندين بعد التحاقهم بالجندية. وفي النص الذي كتب بالفرنسية سجل رقم 1000 فرنك فرنسي
- ∞ — تجيك كبتين تعني حرفيا تصيبك مصيبتان وهذا يعني — أن أمه طمعت في المبلغ الذي يدفع لمن يجند في الحرب فرزئت في ابنها
- (36) Bulletin de renseignements, Région de Casablanca, Casablanca, le 23 juillet 1940, B.R. n° 56, 2 p.
- (37) — م ن.
- (38) Bulletin de renseignements, n° 28 A, Casablanca, le 26 avril 1941

## أسئلة الكتابة عن تاريخ الحركة الوطنية

عبد اللطيف حسني \*

لقد بات الوقت سانحا ، لطرح مسألة الكتابة عن تاريخ الحركة الوطنية المغربية في إطار فكر تاريخي ، نقدي ، فكر متقدم ، غير مرتبط بالواقعية الظرفية ، ملم بشروطها مشكك في بداياتها ، ضمن هذا السياق ، سنمثل لما ننوي القيام به بنموذجين للكتابة عن هذا التاريخ ، الأول يمثل المرحوم علال الفاسي والثاني يمثل عبد الله إبراهيم بديهي أن اختيار هذين النموذجين ، تقف من ورائه اعتبارات متعددة ، لعل أكثرها وجاهة ، القواسم المشتركة التي تجمع بين هذين المفكرين فضلا عن كونهما ساهما بشكل أساسي في معركة الوطنية المغربية وكتابتهما من هذا الموقع عنها ، فإن تكوينهما المعرفي يبدو متشابهها إلى حد ما ، إذ

تلقى عبد الله إبراهيم تكوينه الأساسي بمدرسة ابن يوسف بمراكش في الوقت الذي تلقى فيه علال الفاسي نفس التكوين بجامعة القرويين الأمر الذي متعهما بتقافة تقليدية متينة ، لم تحل دون انفتاحهما معا على الثقافات العصرية.

من هذه المواقع ، سيكتب كلا منهما عن الحركة التي انخرط فيها ، وستتمتع كتاباتهما بسميات مشتركة ومنازع مختلفة .

هدفان متباينان ، يستهدفهما كل من علال الفاسي وعبد الله إبراهيم من وراء كتاباتهما عن تاريخ الحركة الوطنية المغربية .

فبالنسبة لعالل الفاسي ، تتدرج رؤاه للكتابة عن تاريخ الحركة الوطنية ، في إطار أعم وأشمل ، تستمد مقوماتها من النظرة الإسلامية للتاريخ، فالتاريخ من حيث هو عبرة. والتاريخ من حيث كونه حجة . يبدو ان كهاجس محوري لدى مؤلف " الحركات الاستقلالية في المغرب العربي " ، يكتب "سي علال" في مقدمة كتابه هذا ، مستوحيا التاريخ في معنى العبرة قائلا :

" وقد توخيت في هذا العمل غايات قومية مفيدة ، أولاها أن أعرف الناشئة العربية عموما، والمغربية خصوصا بالأطوار التي مرت فيها حركة بلادنا. والمجهودات التي بذلها مؤسسو هذه الحركة ومعدوها، المتعاقبون ليكون لهم في ذلك عبرة طيبة وقدوة حسنة..."(1).

فالتاريخ للحركة الوطنية هنا، أو بصياغة أكثر تاريخية، بعث أخبار الماضي هنا ليس الهدف منه تسجيل للإنجاز المدهش قصد حفظ ذكر الماضي فقط بل إن رواية أخبار ووقائع الحركة الوطنية ، هي هنا بهدف استخلاص العبر المختلفة خلفها وهذه النظرة للتاريخ لدى علال الفاسي، تبدو في أساس التصور الإسلامي لهذا الحقل المعرفي ، يبدو ذلك جليا في عناوين المؤلفات التاريخية الإسلامية. إذ تتمحور جلها حول مفاهيم " العبر" و" مرايا الزمان " ، ويبدو أن التاريخ في معناه هذا ، ليس نتيجة تأمل المسلمين في الحوادث، بقدر ما هو نتيجة الكيفية التي

بمقتضاها توجب على المسلمين النظر إلى التاريخ وفق النظرة التي جاء بها القرآن والتي مفادها الاهتمام بما كان يعتبر تاريخا وقت نزوله : " قل سيروا في الأرض وانظروا كيف كانت عاقبة المجرمين " ، انطلاقا من هذه الرؤية سيتولى " سي علال " استجلاء نواقص الحركة الوطنية المغربية في نهايات تأليفه إذ كتب في هذا الشأن يقول : "... مواطن النقص ، أولها ما يرجع لتكوين النظرية وأعني به ما يتعلق بخلق برنامج مفصل للنظام السياسي والاقتصادي الذي يجب أن يكون عليه المغرب في وقت استقلاله..."(2).

وإذ نصرف النظر عن هذا المعنى للتاريخ ، إلى معنى الحجة فإن ذلك يبدو واضحا أكثر فأكثر لدى علال الفاسي الذي كتب يقول : "... أما الثالثة فهي إقامة الحجة أمام الرأي العام الدولي ، على أن شعوب المغرب العربي لم تقبل أبدا الاحتلال الأجنبي ... وهذا للصراع الذي يجليه للناس هذا الكتاب دون أن يكتفم بواعثه وعوامل تطوره أعظم حدة ، على أن مشكلات المغرب العربي ليس لها إلا حل واحد ، هو الحل المعقول العادل غياب عهد الاستعمار ، وإشراق عصر الاستقلال التام الكامل..."(3).

هذه النظرة للتاريخ هي كسابقتها ، نظرة ذات عمق إسلامي ، فالمتمأمل في كتب التاريخ الإسلامي الكبرى من " الطبري " إلى " ابن الأثير " لا يمكنه إلا أن يلحظ هذا المعنى ، إذ تنقسم هذه الكتب عموما إلى ثلاثة أقسام : الأول منها يتحدث عن الذي حدث قبل ظهور الإسلام ، ويمكن القول أن هذه الأحداث قد رويت بدافع تقديم المثل عما كانت عليه الشعوب المعنية بتلك الأحداث من ضلالة القسم الثاني ، وهو الأصل في التأليف يعنى أساسا بتاريخ الرسول ، أما القسم الثالث ، فهو عبارة عن إضافات ، غير أنها لا تعدو كونها توضيح للقسم الثاني(4) فالتاريخ المقترح علينا إذن من قبل علال الفاسي تاريخ ليس مجانيا ، تاريخ تمتزج فيه معاني الحجة ، والعبرة .

لدى " عبد الله إبراهيم " ينعق تاريخ الحركة الوطنية المغربية من أسر هذه الرؤية التقليدية للتاريخ ، ففي آخر مؤلفاته بهذا الشأن يكتب قائلا : " ... التقاطعات ، والتزيد وعمليات البتر والمغالطات ، تظافرت لجعل تاريخ النضال الوطني من أجل الحرية في المغرب تاريخا ممزقا ، مشوها ، وغير مفهوم ، إذ ليست له بداية معروفة ولا منطامح إنسانية مسلم بمشروعيتها ، ولا فضائل عليها معترف بها ، لتستطيع الذاكرة الجماعية أن تصهر الأحداث الوطنية عندئذ في الوعي العام ، وتوجهها مع بعضها ، وبالتالي أن تربط المغاربة مع أنفسهم باعتبارهم مسكونين جميعا في شروط مجتمعهم ، بتجربة وطنية واحدة يتشاطرون فيما بينهم آثار إيجابياتها وسلبياتها في تفكيرهم ، وفي ظروف حياتهم وآفاقهم المستقبلية . إذ المجتمع الذي لا يستطيع أن يرتفع بمجموعه إلى مستوى القدرة الذاتية على أن يتمثل تجربته الوطنية المشتركة ، فيتبوضع فيها ، وتنعكس أهدافها في حساسية أفرادهم وإراكمهم العام — لا يستطيع بالتالي أن يستفيد من تلك التجربة في تقييماته ورؤاه — " (5).

هنا نضع اليد عن إحدى الإشكالات الهامة في الكتابة التاريخية بصورة عامة والكتابة عن تاريخ الحركة الوطنية المغربية بصورة خاصة ، فبحسب ما ذهب إليه " عبد الله العروي " ، فإن ما يميز المجتمعات التاريخية وغير التاريخية ، ليس التاريخ باعتباره وقائع ، لأن هذه تحدث بدون انقطاع ، ولكن بوجود أو انعدام وعي تاريخي وهذا بدوره إنما يتعلق بذهنية العموم لا بإنتاج المؤرخين ، قد يوجد في البلد عدد كبير من هؤلاء ، يؤلفون كتباً كثيرة ، ولا يشاركون بشيء في رفع مستوى الوعي بتقلبات التاريخ إذ يفتقدون أنفسهم ذلك الوعي ، هناك مجتمعات تعيش التاريخ عفويا ، تكتب عنه تلقائيا تعتقد أنه في المتناول ، قابل للفهم بدون وساطة ، يكتب المؤرخ في ذلك المجتمع بدون إشكال ، لأن فكر العموم المتحكم في جميع المباحث ، غير نقدي ... " (6).



وفق هذا المنظور ، تبدو الكتابة عن تاريخ الحركة الوطنية المغربية لدى "عبد الله إبراهيم" كتابة هادفة إلى رفع وعي العموم ، بتجربتهم الوطنية، وعي من شأنه أن يؤهلهم لتمثلها بصورة أفضل ، بقصد نبذ نواقصها، وتبني فضائلها الأمر الذي جعلنا في مواجهة كتابة تنظيرية ، أكثر من كونها مهوسة بكرونولوجيا الوقائع.

لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا ، أننا لسنا أمام مؤرخين محترفين فـ "سي علال" و"عبد الله إبراهيم" هما قبل كونهما مؤرخين، رجلا سياسة، همومهما السياسية تطغى عن سائر الهموم الأخرى ، إن السياسي غالبا ما يجد في التاريخ ملجأ دافئا ، خزانا هائلا للتجارب لا ينضب معينه ، إن التاريخ هو بنظر أحد المعنيين العلم الذي ينبغي عليك أن تستقي منه على الدوام، فلا تقرأه لتتعلم سرد القصص ، بل لتتعلم الحرب والأخلاق السياسية ، فنحن إذن أمام سياسيين يقرأون تاريخا معيناً ، أو بالأحرى يتأملون تجربة انخرطوا فيها والسياسي في قراءته للتاريخ يبدو مسكونا ومهوسا بأسئلة الآن بقضايا راهنة ، ينتهي علال الفاسي إلى الإقرار بالفقر النظري للحركة الوطنية المغربية بمعنى افتقادها لبرنامج مدقق ومفصل لما ينبغي أن يكون عليه المغرب المستقل ، في الوقت عينه ينتهي "عبد الله إبراهيم" إلى التساؤل حول التعثر في شروطنا السياسية الراهنة والتردي في أوضاعنا الاجتماعية باعتبارهما غرامة باهضة في المغرب المستقل ، يرتفع التاريخ عند هذا الحد إلى التساؤل عن مكان المسؤولية في هذه الاخفاقات..."

أولا تقع المسؤولية الكبرى في هذا على القيادات السياسية لمرأوغتها أو لقصورها عن إدراك طبيعة الربط العضوي بين صدمة الاستعمار من جهة ، وصدمة الغرب من جهة أخرى ، للعلاقة الجدلية القائمة حضاريا بين الاثنين؟؟..."(7).

ينضاف إلى هذه الملاحظة ملاحظة أساسية أخرى، إذ لا يمكن أن نتناسى أن مؤلف " الحركات الاستقلالية ... وضع في سنة 1948 أي في ظل ظروف وشروط الحركة ذاتها بينما مؤلفات "عبد الله إبراهيم" وضعت في شروط وظروف مغايرة

فمؤلفات " صمود وسط الإعصار " و " ثورة تقدمية ذات طابع حضاري " و " تداء الحرية " هي مؤلفات تأخذ من زمن الأحداث مسافة معينة .

تأخذ الأحداث في مؤلف " الحركات الاستقلالية في المغرب العربي " طابعا كرونولوجيا ، تتتابع وتتوالى في الزمن ، بينما تحضر الوقائع والأحداث عينها في مؤلفات عبد الله إبراهيم ، ضمن قضايا أعم وأشمل ، فالرجلين معا ينظران للحركة الوطنية في سياقاتها التاريخية، فهي لم تتبع من عدم بل تمتد عميقا في تاريخ المغرب ، من هذا المنطلق يخصص علال الفاسي الصفحات الأولى من تأليفه للحديث عن مجمل تاريخ المغرب، وفي نفس السياق ، يضع عبد الله إبراهيم مؤلفه "صمود وسط الإعصار" كمحاولة لتفسير تاريخ المغرب الكبير ، منذ 3000 سنة ممسكا بزمام المشاكل والقضايا الكبرى لهذا التاريخ ، يلتقي المؤلفين معا، ففي محاولتهما تحرير التاريخ الكبير للمغرب من أسر النظرة الاستعمارية الأمر الذي يسم كتاباتهما في هذا الشأن، بحس وطني لا يلغي ولا ينفي حسهما التاريخي يلتقي المؤلفين مرة أخرى ، في إحالة الحركة الوطنية في إرهاباتها الأولى إلى أعمال المقاومة المسلحة التي عرفها المغرب مباشرة بعد عقد الحماية سنة 1912 ، كما يلتقيان أيضا في الدلالة التاريخية لسنة 1930 و 1944 كمنعطفات حاسمة في تاريخ الحركة الوطنية ، تتردد نفس الأحداث ونفس الوقائع ، فيما بين السنتين سالفتي الذكر ( ثورة الريف كتلة العمل الوطني – مطالب الشعب المغربي – الحركة الوطنية لتحقيق المطالب – الحزب الوطني – ) ، هذا الالتقاء ، لا ينفي وجود فراغات بيضاء في تاريخيهما ، تتجسد هذه الفراغات لدى عبد الله إبراهيم ، في تجاوزه للمعطى الفكري الثقافي ، المتمثل في الفكرة السلفية ، التي يوليها علال الفاسي أهمية قصوى في مؤلفه ، كما تتجسد هذه الفراغات لدى علال الفاسي ، في تأريخه لوقائع الحركة الوطنية التي عايشها ، إذ تغيب هذه الحركة أو تتعدم ، طيلة سنوات المنفى في الغابون ، أو بحكم التواجد في القاهرة .

إذا تجاوزنا نقاط الالتقاء هذه ، والفراغات البيضاء ، بكل ما تحمله من دلالات نصل حتما إلى نقاط الاختلاف ، فالنظرة الكرونولوجية لتاريخ الحركة الوطنية لدى علال الفاسي تتحكم لا محالة في تحليله للأحداث ، بل قد لا نكون مبالغين إذا قلنا بأن الهم الأساسي لدى مؤلف الحركات الاستقلالية في المغرب العربي " هم تاريخي محض استعراض أكبر ما يمكن من شواهد تاريخ الحركة الوطنية، وربطها بسنوات حدوثها بينما اقتضى التنظير والتأمل في تاريخ الحركة الوطنية لدى عبد الله إبراهيم، تجاوز الأحداث والوقائع ، إلى محاولة الإمساك بالخطوط الموجهة لها ، ومن هذا المنظور اعتبرت الحركة الوطنية المغربية حركة تاريخية ، حركة جاءت مستجيبة في الزمان والمكان لطموحات ورغبات مجتمع متطلع لحياة أفضل ، إنه أحد أسرار النجاحات المتوالية التي حققتها الحركة ووجهت المغرب نحو الاستقلال ، يتقابل المغرب العميق ممثلا في جماهير البوادي المغربية مع المغرب الجديد ممثلا في جماهير المدن ونخبها ، ويتواصلان ويلتقيان عبر معبر الحركة الوطنية. مغرب البوادي حمال بنساق ، ومغرب المدن ، أو بالأحرى نخب المدن مهوسة بالعمل السياسي ، فينتصر الشعار على البنديقية ، وفي ذلك أحد أسرار انطلاق الحركة الوطنية ، واستمراريتها . لم يكن ذلك ممكنا في رأي عبد الله إبراهيم ، لولا الحس التاريخي للنخب الموجهة لهذه الحركة ، أو بتعبير أدق لو لم تكن الحركة المعنية ، حركة تاريخية.

يتوارى عبد الله إبراهيم خلف الأحداث عند كتابته عن تاريخ الحركة الوطنية لا يحضر إلا بمقدار ما يقتضيه التعليل والتأويل ، منطلقا من فهم معين للتاريخ باعتباره من صنع البشر ، لا من صنع الأشخاص. في الوقت الذي يكتب فيه علال الفاسي " الحركات الاستقلالية " ، من موقع ضمير المتكلم ، "...نظمت عدة دروس شعبية ومحاضرات عامة في المدارس والمساجد والاجتماعات الخاصة ، كنت أشرف عليها بنفسي وأشارك فيها بما أستطيعه من كتابة وإلقاء . وهكذا حصل الحزب الوطني على فوز باهر ، وشعبية أخافت المستعمرين في كل جهات البلاد "

"...ولقد فكرت في أن الحركة المغربية بعد أن بعثت الوعي القومي في نفوس الناس يجب أن تعمل بكل قواها للحصول على الاستقلال، وأن تصرف جهودها وتحصرها على هذا الاستقلال..."

حين يحضر ضمير المتكلم لدى علل في تاريخه للحركة الوطنية المغربية نصبح في مواجهة إشكال حقيقي أيضا إذ يغيب التاريخ، وتحضر المذكرات، لكن أليست المذكرات هي شكلا من أشكال كتابة التاريخ؟ أو ليس الرصيد التاريخي المكتوب حتى الآن في الحركة الوطنية، في أغلبه مشكل من مذكرات الوطنيين؟.

### الموامش :

- 1 — علل الفاسي : الحركات الاستقلالية في المغرب العربي . طبعة تطوان بدون تاريخ . ص . أ — من المقدمة .
- 2 — الحركات الاستقلالية ... ص : 440 .
- 3 — الحركات الاستقلالية ... ص . ب .
- 4 — د. نيقولا زيادة : لماذا تعثرت كتابة تاريخنا على أيدينا ؟ مجلة الفكر العربي المعاصر . العدد 12 . ماي 1981 . ص . 81-82
- 5 — عبد الله إبراهيم : نداء الحرية . ص : 7-8 الطبعة الأولى ، الدار البيضاء 1995 .
- 6 — عبد الله العروي . تاريخ المغرب ، ج 1 . ص : 24 . الطبعة الثانية — الدار البيضاء — 1992
- 7 — عبد الله إبراهيم : نداء الحرية . ص : 6 .

## من أسئلة المقاومة والاستقلال في الخمسينات

- المقاومة والاستقلال خلال النصف الأول  
من الخمسينات
- البحث عن المخاطب السياسي في مرحلة  
البحث عن حل الأزمة
- حكومة البكاي الأولى ومحاولة  
تقعيد الاستقلال

## المقاومة والاستقلال بالمغرب خلال النصف الأول من الخمسينات مقدمات من أجل مقاربة سوسيولوجية

• عثمان أشقرا

المداخلة التي نقترح المساهمة بها في هذه الندوة العلمية الهامة والكبرى هي محددة من حيث الموضوع، نقصد بذلك بالضبط المقاومة المسلحة وأعمال الفداء في المغرب الجنوبي أي تلك المستعمر من طرف فرنسا، سوف لا أتكلم عن منطقة الشمال ليس لأنه لا علاقة لها بالموضوع ولكن في اعتقادي تلك إطار آخر يحتاج إلى معطيات أخرى وربما إلى منهج في التحليل آخر. المداخلة إذن محددة من حيث الفترة الزمنية في النصف الأول من الخمسينات وبالضبط من سنة 1951 إلى 1955، ومحددة ثالثا من حيث منهج المقاربة وهو ما سميت بمقاربة سوسيولوجية وهنا لابد من التوقف مليا : لماذا مقاربة سوسيولوجية ؟ و ما فائدة

---

• أستاذ باحث بالمدرسة العليا للأساتذة تطوان

القيام بهذه المقاربة السوسيولوجية لحادث ولواقعة أساسا تهم التاريخ. ففي اعتقادي أن السوسيولوجي يمكن أن يتدخل في موضوع مثل هذا لا لينافس المؤرخ في عمله على مستوى تاريخ الأحداث والتدقيق فيها وتقديم كل الحثيات المتعلقة بهذه الواقعة أو تلك وضبط المصادر المكتوبة والشفوية ، ولكن انطلاقا من هذا العمل الذي هو عمل المؤرخ يمكن للسوسيولوجي أن يدلوا بدلوهم على مستوى مسألة الإطار العام السوسيواقتصادي ، السوسيوثقافي ، السوسيوسياسي الذي أدى إلى انبثاق هذه الوقائع، وخضوعها لمنطق معين وبالتالي فالتاريخ كما يقال هو مختبر السوسيولوجيا على أساس أن السوسيولوجي لا يمكنه أن يمارس عمله بدون حد أدنى من تراكم أعمال تاريخية حول موضوع الاهتمام، وهذا ما أعتقد شخصيا أنه قد تحقق نسبيا فيما يخص ظاهرة أو واقعة المقاومة المسلحة وأعمال الفداء في المغرب الفرنسي ، إذن ماذا سيكون مضمون هذه المقاربة السوسيولوجية التي أقترحها، مضمونها سأحدده في طرح إشكالي محوره حول تساولين : تساؤل أول: ماذا بالضبط تمثل ظاهرة المقاومة المسلحة وأعمال الفداء فيما يخص تاريخ العمل الوطني وتاريخ الحركة الوطنية ككل ؟ هل نحن إزاء نوع من الاستمرارية ؟ أم بالعكس نحن إزاء نوع من القطيعة ؟ وبالتالي يلزم التساؤل قطيعة إزاء ماذا ؟ وقطيعة بالنسبة لمن ؟ التساؤل الثاني الذي يمكن أن يثير فضول السوسيولوجي في هذا الصدد ، هو ما آلت إليه المقاومة المسلحة في سنة 1955 وما بعد 1955 ؟ ما آلت إليه من تشتت ، من تبعثر، ما آلت إليه في عجزها الموضوعي على أن تفرز ما يمكن أن يعتبر نوعا من المشروع التحريري الجذري والعميق لما كانت تطمح إليه وما كان في أساس انطلاقها . إذن التساؤلان المركزيان هما اللذان — في حدود الوقت المسموح به — سينصب عليهما تحليلي ، ومن أجل أن يكون هذا التحليل موضوعيا وخاضعا لقواعد البحث العلمي الدقيق والصرف لابد من تقديم معطيات دقيقة والإتيان بوقائع موضوعية، ولا أعتقد أن الوقت سيسمح لي بتقديم كل ما أعدته في هذا الصدد ، ولكن سأركز بطبيعة الحال على ما اعتبره

جوهرية وأساسيا . وضعت سؤاليين وسأكشف فورا ليس عن الجواب ولكن عن الأطروحة أو الفرضية التي أعتبر من خلال تعاملي مع الوقائع كما سأعرضها بعد حين أنها تصلح كإطار لممارسة البحث في هذا الصدد، منذ الآن أقدم أطروحتي أو فرضيتي ثم أعود إلى تقديم الحثيات والمعطيات التي يمكن أن تبنى عليها مصداقية هذه الفرضية . فبالنسبة إلي تمثل المقاومة المسلحة وأعمال الفداء امتدادا ونتيجة لما آل إليه الوضع الاستعماري القائم بمغرب الحماية الفرنسية ، وفي نفس الوقت تمثل قفزة خارج دائرة العمل الوطني الحزبي بالشكل الذي كان عليه الأمر في مطلع الخمسينيات وعليه فهي واقعة / ظاهرة تجد تفسيرها أساسا في احتداد التناقضات الاستعمارية وبلوغها مرحلة ما يعبر عنه سوسيولوجيا " بالوضعية الاستعمارية " أكثر مما تجد تفسيرها في نضج معطيات العمل الوطني الحزبي وبلوغه مرحلة إفران المشروع الوطني العنفي المتطور . ومن هنا في تقديري، من جهة ، وقوع سوء الفهم الأصلي بين قيادات العمل الوطني السياسي والحزبي والمبارزين إلى أعمال المقاومة والفداء، ومن جهة أخرى، ما يمكن اعتباره الهشاشة النسبية للفكر والإيديولوجية التي قامت عليهما حركة المقاومة والفداء. هذا حكم عام يحتاج إلى تفسير ويحتاج إلى تبريرات، والتبريرات يمكن تقديمها انطلاقا من تقديم نوعين من المعطيات، معطيات أولية تتعلق بما آل إليه الوضع الاستعماري والواقع الاستعماري في مغرب الخمسينيات في المنطقة الخاضعة للحماية الفرنسية ، ثم ما وصلت إليه حالة الحركة الوطنية الحزبية في نهاية الأربعينات ومطلع الخمسينات. فيما يخص النقطة الأولى أي ما آل إليه الوضع الاستعماري في نهاية الأربعينات ومطلع الخمسينات سوف أنطلق مما تميز به الاستعمار الفرنسي كخصائص. هذا الاستعمار تميز أساسا بأنه قام على نوع من الاستيطان الاستعماري، وأنه أنشأ ما يمكن اعتباره نوعا من الجهاز السلطوي العسكري الإداري أو مركب سياسي عسكري. فيما يخص نقطة أن الاستعمار الفرنسي هو استيطاني فهذه حالة لم تعرفها تجارب استعمارية أخرى في مناطق



أخرى من العالم . بالنسبة للاستعمار الفرنسي في المغرب يمكن القول أن دخول فرنسا إلى المغرب لم يأت فقط بالجيش ووسائل القهر المادي ولكنه جاء أيضا بجالية سعت إلى الهيمنة والسيطرة على ما يمكن اعتباره حيرات البلاد الممكنة والقائمة. فماذا كان حال هذه الجالية في نهاية الأربعينيات ومطلع الخمسينيات ؟

لحسن الحظ تتوفر على إحصاء رسمي عام أجري في المغرب سنة 1951 : في سنة 1951 : قدر عدد السكان غير المغاربة 357,38 منهم 321,858 فرنسيون أي نسبة 98 % والبقية من جنسيات أوروبية أخرى . ومن جهة أخرى فـ 36% من هؤلاء السكان غير المغاربة ولدوا بالمغرب بمعنى أنه مضى جيل وجاء جيل آخر من المعمرين ولد بالمغرب ، وهذا شيء أساسي وهم ستترتب عنه نتائج . كما أن 80% يعيشون بالمدن و9% بمراكز حضرية تتجاوز 2000 نسمة مقابل 11% فقط في البوادي هذا على المستوى الديمغرافي، أما على المستوى الاجتماعي فيمكن القول أن جزءا كبيرا من هذه الجالية كانت تقوم بعملية التآطير والاستغلال وكانت تستحوذ على ما يمكن اعتباره النسبة العليا في الدخل الوطني المغربي آنذاك، فخلال سنة 1952 بلغ الدخل الوطني 486 مليار فرنك نال منه المغاربة المسلمون فقط 320 مليار مقابل 136 مليار للأوربيين وهذه الإحصائيات دائما مأخوذة من الإحصاء العام الفرنسي الذي أشرت إليه . ما دلالة هذه الإحصائيات وهذه المعطيات؟ دلالتها سوسيولوجيا تتمثل في أنه في نهاية الأربعينات ومطلع الخمسينات حصل في المغرب ما يمكن اعتباره الوضعية الاستعمارية بامتياز وهذا مصطلح أو مفهوم أستعيره من الباحث الفرنسي المعروف جورج بلانديني . ففي سياق تطور الأوضاع الداخلية بالمغرب وهذا شيء لم يخطئ إدراكه لا السلطان ولا الوطنيون، طرح المقيم العام الجديد ، مخطط إصلاح جديد يمثل بدون جدال النتيجة السياسية والمنطقية والمآل الطبيعي لمسلسل التطور الاقتصادي والاجتماعي بالمغرب إبان الثلاثينات وما بعد أي التطور نحو قاعدة الوجود الاستعماري بالمغرب من نطاق الحكم المباشر بمقتضى الأمر الواقع إلى نطاق الحكم المباشر

بمقتضى الشرعية والمشاركة القانونية في السيادة ، فالمخطط الإصلاحي الذي طرحه الجنيرال جوان طرح تغييرات همت أساسا حكومة المخزن ومجلس الشورى الحكومي، والمجالس البلدية ، وهذا ما سيشرع في تطبيقه بالنسبة لحكومة المخزن انطلاقا من 21 يونيو 1947 بمقتضى ظهير شريف صدر آنذاك. أما بالنسبة لإصلاح مجلس شورى الحكومي والمجالس البلدية فالجدير بالذكر أن معارضة السلطان والوطنيين كانت أبرز وأقوى - من موقع الدفاع عن السيادة المغربية ذلك أن مشروع مجلس شورى الحكومة طرح فكرة تكوين مجلس شوري مختلط نصفه من المغاربة ونصفه من الفرنسيين مع إعطاء الفرنسيين حق الانتخاب الحر المباشر، وإعطاء المغاربة حق الانتخاب على درجتين . أما مشروع إصلاح المجالس البلدية فطرح منح المعمرين الفرنسيين بالمغرب حق التصويت لانتخاب ممثليهم في بلديات في تساو من حيث الأصوات وعدد الممثلين مع المغاربة وهذا يعني عمليا اكتساب المعمرين حق وممارسة السيادة المشتركة ، هذا التغيير الجذري والنوعي فيما يخص واقع الحماية أي بروز ما أسميته بالحالة الاستعمارية بامتياز وبرز ما يمكن اعتباره مشروع لهذه الجالية لأن تحكم وتسود ليس بمنطق استعماري ولكن بمنطق يمكن أن نقول سيتخذ نوعا من الغطاء القانوني وغطاء الشرعية، هذا ما انتبه إليه الوطنيون وانتبه إليه السلطان بالدرجة الأولى، السلطان من حيث هو المؤتمن وفق معاهدة 1912 ، على السيادة المغربية كاملة وبدون منازع ، فيما يخص العنصر الثاني وهو الوضع الذي آلت إليه الحركة الوطنية سأختصر الكثير بحكم أن المعطيات تعرفونها لأشير فقط إلى معطى واحد اعتبره أساسيا، وهو أنه بعد 1944 وواقعة تقديم وثيقة الاستقلال التي أصبحت مطلبا شعبيا وجماهيريا برز عنصران فيما يخص الوضع الخاص بالحركة الوطنية ، العنصر الأول تمثل في بروز نوع من البرجوازية المغربية التي منحتها ظروف الحرب نوعا من الانتعاش الاقتصادي المهم جدا ، ويتعلق الأمر هنا بالنسبة لهذه البرجوازية المغربية بأفراد لا يتعدى عددهم بضع آلاف منحدرين أساسا من

عائلات تجارية فاسية استقروا خصوصا بمدينة الدار البيضاء التي تطورت إبان الحماية تطورا هائلا مراكمين أموالا ومكونين ثروات من جراء تملكهم لاحتياطات نقدية هامة استعملوها بطرق شتى ، فقد اشترى البضائع والمجوهرات والأمالك القروية ، واشتروا الأراضي والفيلات وعمارات الإيجار بالأحياء الأوربية ، كما أنهم استثمروا الرساميل في الشركات التجارية بالاشتراك أحيانا مع الرأسماليين الفرنسيين والأمريكيين إنها إذن نوع من فئة التجار التقليديين التي انقلبت وتكيفت مع الظرفية الجديدة بدون أن يعني هذا أنها انخرطت تماما في سيرورة التحديث المفترضة، فمن جهة ، فمساهمتها الاستثمارية في الشركات الشريفة لم تتعد قط % 5 حيث أنه مع نهاية الاستعمار وجد فقط 12 صناعي مغربي في قطاعات هي قريبة على أية حال مما كان موجودا تقليديا أي مطاحن ونسيج ، ومن جهة أخرى ، وبالاستناد إلى بحث ميداني أجري لدى الأبنك وقتئذ من أجل معرفة مدى مساهمة الرأسماليين المغاربة في الاقتصاد القائم كانت الحصيلة هي التالي : هناك إجماع فيما يخص الجواب ، بأن هؤلاء الأخيرين هم فقط مجرد مساهمين وليست لهم أية ابداعات ولا يقومون بأية عمليات تنقلية لأريد أن أسترسل في تقديم المعطيات وهي كثيرة، ولكن فقط أريد انطلقا مما أشرت إليه الإشارة إلى أنه في هذه الفترة انتعشت وضعية فئة اجتماعية معينة وبرز طموحها لأن تتقدم أكثر فيما يخص منافسة الرأسمال الأجنبي . هذا ستكون له تأثيرات على الحركة الوطنية ككل لأنه في هذه الفترة يمكن القول أن الحركة الوطنية اشتد عودها ، وأحست بأنها يمكن أن تحلق بجناحها أن يصير لها ليس البرنامج لأن مسألة البرنامج حسمت سنة 1934 ، ولكن أن يصير لها نوع من المشروع التاريخي التحديثي الحضاري الكبير . فبالإضافة إلى مطلب الاستقلال سنجد لأول مرة بروز ما يمكن اعتباره النواة المركزية والأساسية للمشروع الوطني التحديثي التنويري وأشير هنا إلى نمونجين فقط : النموذج الأول معروف وهو كتاب النقد الذاتي الذي جاء في إطار ما أشار إليه أحد الزملاء سابقا من

انتقاد الأستاذ علال الفاسي للحركة الوطنية بأنها لم تكن تمتلك هذا المشروع كتاب النقد الذاتي معروف ، ولكن هناك كتاب آخر غير معروف ولا يقل أهمية في نظري من الناحية التاريخية عن كتاب النقد الذاتي وإن كان لا يساويه من حيث القيمة المعرفية ومن حيث عمق التحليل وبقية الأفكار، وهو كتاب "باقة نظرة" للتهامي الوزاني الذي نشره آنذاك في جريدة الريف ابتداء من 1947 نشره على شكل حلقات وعلى شكل مقالات ، نفس الشيء كان يعمله المرحوم علال الفاسي في مجلة أخرى. إن في هذه الفترة الحركة الوطنية كانت بصدد إحداث نوع من الطفرة والتحول النوعي في بنيتها الاجتماعية وفي أفقها النظري العام ، ولكن أحداث ووقائع معينة جاءت لتجهض هذا المسلسل في بداية الخمسينات لنجد أنفسنا من جهة إزاء واقع استعماري تقوى وأصبح يطمح إلى أكثر مما لديه، وحركة وطنية رفرقت وقتا ما بجناحين ولكن سرعان ما وجدت نفسها محبطة . عنصر آخر ينبغي الإشارة إليه ، وهو عنصر مهم جدا. وهو بروز فئات اجتماعية هي عبارة عن الفلاحين الذين هاجروا من البادية إلى المدن وبالتالي كونوا ما يمكن اعتباره نوعا من البروليتاريا التي ستسكن في ضواحي المدن ، في هذه الفترة سيبرز مشكل الأحياء القصديرية والأحياء الهامشية وابن مسيك واحد منها، وفي هذه الفترة سيقوم روبير مونتاني وهو استعماري فرنسي ، سيقوم بتوصية من الإقامة العامة بإنجاز أول عمل وأهم عمل حول ميلاد الطبقة العاملة بالمغرب والنتائج التي سيتوصل إليها أن هذا التنامي الكبير لهذه الفئات الهامشية ولهذه الفئات الفلاحية المبلترة من شأنه أن يشكل خطرا على المجتمع القائم لماذا ؟ لأنه مجال لتفريخ العنف والعنف المضاد. الحركة الوطنية لأسباب موضوعية وأسباب ذاتية عجزت عن أن تستوعب هذه الجماهير كلها، سندخل في الخمسينات لنجد أنفسنا أمام هذه الوضعية المتفجرة من جهة الجالية الأوربية بالشكل الذي حاولت وصفه والإقامة العامة بالشكل الذي حاولت الإشارة إليه، وهي أنها أصبحت تطمح وتتحدى أحيانا السلطة المركزية وسلطة الميتروبول في فرنسا، ومن جهة أخرى

حركة وطنية بمختلف أجنحتها وأحزابها وقعت في نوع من الإحباط ، ومن جهة أخرى جماهير عمالية جماهير الفلاحين المهجرين من البادية هذه كلها عناصر اجتمعت ليبدو أن فتيل العنف هو على وشك أن يشتعل، ومن هنا سأصل إلى الخلاصة سوف تتطرق حركة المقاومة وأعمال الفداء باعتبارها ليست عملا يمكن القول أنه كان منظرا له وكان مبرمجا وكان يدخل في سياق تطور نوعي وموضوعي للحركة الوطنية ، ليست حركة وطنية انتقلت من عمل سياسي معين إلى عمل عنفي معين ، لم تكن هناك استراتيجية ولا منظور في هذا الإطار، وإنما حركة مقاومة وأعمال الفداء سوف تتفجر من تلقاء نفسها على أساس أنها تشكل نوعا من الامتداد لما سبق ونوعا من القطيعة في نفس الوقت له، لماذا؟ لأنه إذا رجعت إلى بعض الوقائع سأجد مثلا بأن فتيل المقاومة الذي لم يبدأ في 1953 بحيث يمكننا الرجوع إلى 1947 إلى 1951 ، مثلا في 1951 هناك ما أشار إليه الزملاء صباحا ، من العمليات التي قام بها البطل الحنصالي، هناك مجموعة أحمد البقال بمراكش وقد تحدث عنها بتفصيل الأستاذ الحبيب الفرقاني في كتابه " الثورة الخامسة " ، هناك شهادات كثيرة لدي نصوصها تشير إلى أن أعمال المقاومة انطلقت ليس بتوجيه حزبي ولكنها انطلقت على أية حال في سياق معين، ( مثلا أشير هنا إلى ما كتبه العرايشي في كتابه المعروف انطلاق حركة المقاومة بالمغرب أنه كان هناك صراع وتنافس وتناقض داخل حزب الاستقلال بالخصوص لماذا؟ لأنه كانت هناك لجنة تسمى لجنة " التزيين " تأسست أساسا من أجل إعداد حفلات عيد العرش الذي كان رمزا وطنيا كبيرا جدا وهذه اللجنة كبرت وصارت في نظر القيادة السياسية آنذاك مصدر حيطة وحذر، ثم كانت هناك لجنة "الجنوب" التي كانت مهمة أساسا بما يمكن اعتباره تقديم يد المساندة والمساعدة للمعتقلين السياسيين ولضحايا القمع ، هذه اللجنة نفسها كبرت وكبر حجمها وتولت إلى مصدر قلق لبعض القيادات السياسية.

إن حاولت ما أمكن في هذه العجالة أن أقدم ما اعتبره الإطار الموضوعي السوسيو اقتصادي، والسوسيو ثقافي، السوسيو سياسي، لبروز ما سميت به بظاهرة المقاومة وأعمال الفداء في المدن بالأساس، إن هذه الظاهرة أو هذه الحركة ولدت وهي تحمل في ذاتها بذور ضعفها إذ بقدر ما أنها كانت قوية في بطولاتها وفي تضحياتها فهي كانت ضعيفة وهشة فيما يخص الإطار الذي كانت تتحرك ضمنه لهذا لا غرابة أن تحل سنة 1955 ويعود محمد الخامس رحمه الله إلى أرض الوطن وبهذا تحقق مطلب مهم جدا وأساسي من المطالب التي رفعتها حركة المقاومة هذه. ولكن أتساءل أين هو المشروع التاريخي؟ أين هي الدولة الوطنية التي كانت - يمكن القول - في أساس عمل الحركة الوطنية ككل؟ بعد 1955 سيدخل المغرب في مسلسل آخر وتكفي الإشارة فقط إلى أنه بعد 1955 تبين أن ثمن المقاومة رأس مال الفداء كان غالبا جدا ولكن المحصول والنتيجة لم يكونا في مستوى البطولات ومستوى التضحيات.

## البحث عن المخاطب السياسي في مرحلة البحث عن حل الأزمة

محمد العربي المساري \*

تقريبا سأبني على الأرضية التي بينها الأستاذ أشقرا الذي قام بتشخيص الأزمة ووصف لنا المشهد كما كان في الخمسينات. وسأتحدث من جانبي عن الآليات السياسية التي تحركت وأحدثت التفاعل في ذلك المشهد. نفي محمد الخامس ففتح سلسل جديد ووقع تفاعل فيما بين أطراف المشهد الذي سمعنا وصفه منذ قليل . وكل نزاع لا بد أن ينتهي بحسم تبعا لميزان القوى. وفي الحالة التي نحن بصدها كانت المبادرة في لحظة أولى بيد الإدارة الاستعمارية. وحينما وجدت أنها وقعت في مأزق أخذت تبحث عن مخاطب. وحينذاك اشتغلت آليات معقدة للبحث عن مخرج. يجب القول إن الأزمة التي أدت إلى نفي محمد الخامس هي نتيجة تعارض إرادتين. الجانب الفرنسي كلن يريد فرض الاتحاد الفرنسي وسياسة الاستيطان

---

\* أستاذ باحث من الرباط . سياسي وصحافي سفير ووزير سابق

والجانب المغربي كان على العكس يطمح إلى الاستقلال واستعادة الدولة الوطنية. في هذا السياق كان محمد الخامس يرفض التوقيع على ظهائر كانت تسير في اتجاه السياسة الفرنسية وكذلك كانت المنكرات التي كان يوجهها إلى باريس للمطالبة بمراجعة الحماية. ولمواجهة ذلك كانت سياسة جوان الذي وصل به الأمر إلى التهديد بالعزل إذا لم يلب محمد الخامس بعض المطالب ومنها التخلص من حزب الاستقلال. ونتيجة تعارض الموقفين حدثت سلسلة من الأحداث كان أهمها أحداث ديسمبر 1952 التي اغتتمتها الإدارة للتخلص من حزب الاستقلال. وبعد ذلك جاء 20 غشت 1953.

حينما فتح ذلك الفصل الجديد من الأزمة بدأت مواجهة المشروع الاستعماري بأسلوب آخر. كان محمد الخامس في المنفى بكورسيكا ثم بمدغشقر مبعداً بآلاف الكيلومترات مما جعله في حالة استحالة للقيام بأي مجهود مباشر. وانتقلت المبادرة إلى مجال آخر استدعت القيام بأعمال في الداخل كما في الخارج. ومعلوم أن تدبير الأمور أصبح بيد قادة العمل الوطني. فبعد ثلث ساعة من النفي كان " نداء القاهرة " الذي كان منعطفاً كما نجد في " التحدي " .

نشأ حينئذ منطق جديد في التعامل بين الجانب الفرنسي وبين الحركة الوطنية بكل فصائلها. في الجانب الفرنسي كانت هناك باريس وكانت هناك الرباط. في باريس كانت الحكومة تتصرف نظرياً في ملف المغرب عن طريق الخارجية. وليس معنى هذا أن وزير الخارجية هو الذي يرسم السياسة المتبعة في منطقة الحماية. إن هذه السياسة كانت هي المعدل الذي تتفق عليه الحكومات التي كانت تفرزها الجمهورية الرابعة وهي حكومات ائتلافية أحياناً من وسط يمين وأحياناً من وسط يسار . وكان هناك دائماً اضطراب في السياسات الفرنسية بسبب الصراعات التي كانت تنشب بين مكونات الحكومة. وكان وزير الخارجية يتصرف أحياناً وفق قناعاته الشخصية. وفي حكومة جوزيف لانبييل كان وزير الخارجية جورج بيدو مقتنعاً بأن الوسيلة الوحيدة لفرض الاتحاد الفرنسي والاستيطان هي التخلص من



محمد الخامس ومن الحركة الوطنية. واعتقد الفرنسيون أنه بعد ضربة ديسمبر 1952 وحظر حزب الاستقلال قد أمكنهم التخلص من الجسم الرئيسي للحركة الوطنية باعتقال القيادات كلها وبتصفية الجهاز وإسكات الصحافة. وبعد التخلص من محمد الخامس صفا لهم الجو وانتهى الغموض .

وإذا كان هذا هو تصور الحكومة في باريس ففي الرباط كان هناك جهاز الإقامة العامة وإلى جانبه قوة ضغط كبيرة يمثلها المعمرون وأصحاب المصلح. إلا أن الفرنسيين في المغرب لم يكونوا على شاكلة واحدة. كان هناك العاملون في اتجاه سياسة القوة كما كان هناك من يعمل من أجل التعايش والحوار. فكانت هناك الكنيسة التي كانت تطالب بسياسة رحيمة وكان هناك ليبراليون ينادون بالتفاهم مع الوطنيين.

ومع هؤلاء وأولئك كان هناك المتعاونون من المغاربة مثل جهاز القواد والباشوات الذي كان ضالعا مع الإدارة وكان العوبة في يد الاستعمار.

إزاء هذا الوضع كانت هناك خطة جاهزة. وكل شيء يدل ، حسب ما أصبح بأيدينا من وثائق ، على أن الأمور لم تكن تتطور بكيفية عشوائية أو نتيجة مزاج هذا القائد أو ذاك وبالأحرى ثمرة عمل فردي. إن الأمور كانت تسير نتيجة تطور أفرزته تراكمات عديدة تواصلت منذ سنة 1930 حتى الخمسينات. كانت الحركة الوطنية قد أصبحت قوة. كان لها صيتها وحضورها المتعدد الأشكال في الحياة الوطنية . وكان جهازها مؤهلا للعمل . وهكذا لم تنتظر نداء القاهرة لكي تتحرك . فإن النفي والنداء كانا الإشارة المتفق عليها والمقررة في اجتماع المجلس الأعلى لحزب الاستقلال حيث أبلغ الفقيه غازي قرار القيادة بأن تبدأ خلايا العمل المسلح بمجرد المس بمحمد الخامس. كانت سياسة القوة واضحة المعالم منذ جوان. وإذا لم يتمكن هو من تطبيق كل بنودها تولى غيوم تنفيذ العزل الذي كان منتظرا من قبل. وهكذا كانت الخواطر جاهزة للانتقال إلى مرحلة القوة. أي أن الأمور التي سنراها فيما بعد لم تكن عشوائية ولكن وفق ترتيب مبيت ولهذا سنرى أن هناك تسلسلا

منطقيا في الأحداث. وحينما أفرج عن اللجنة التنفيذية للحزب في عهد لاكوسط في 1954 فإنها تولت ضبط التطورات التالية وفق ما كان مرتبا وهو ما عبر عنه "تداء القاهرة" بأن السلاح لن يلقى إلا إذا تحقق غرضان هما عودة محمد الخامس إلى عرشه وتحقيق الاستقلال الوطني .

ولابد أن نشير هنا إلى العمل الذي قامت به الحركة الوطنية في الخارج وخاصة بباريس وفي القاهرة وفي نيويورك حيث كان لابد من تأليب الرأي العام الدولي ضد سياسة القوة التي طبقها الفرنسيون في المغرب. وسنرى من نتائج العمل في نيويورك بروز تحالف عربي أفرو - آسيوي حول القضية المغربية. وحدث تصعيد في الحملة على فرنسا إلى درجة طرح القضية المغربية، وبالذات قضية عزل محمد الخامس، على مجلس الأمن وهو أمر لا يحدث إلا بشأن ملفات تكون طرفا فيها حكومات مستقلة .

وكانت حكومة فرنسا تجد نفسها ضعيفة إزاء الحملة الشاملة التي كانت تواجهها في نيويورك والقاهرة. وفي باريس نفسها تمكن الوطنيون من تأليب الرأي العام السياسي ضد سياسة القوة. وتحرك البرلمان وبعث إلى المغرب فيما بين سبتمبر 1953 ومايو 1954 ثلاث بعثات للاستطلاع. إذ كان لنفي محمد الخام وقع كبير في السياسة الفرنسية. وتمكن الوطنيون من تكوين لوبي قوي قادت له لجنة فرنسا / المغرب برئاسة الكاتب الكاثوليكي فرانسوا مورياك . كما استطاع الوطنيون اكتساب شرائح متنوعة من الوسط السياسي الفرنسي من اليمين الليبرالي في MRP إلى الحزب الاشتراكي. وكان الحزب الشيوعي يعارض سياسة القوة في المغرب من منطلقات أممية ولكنه لم يستوعب ما كانت تمثله قضية العرش بالنسبة للمغاربة وبسبب صعوبات في المفاهيم لم يقو قادة الحزب الشيوعي الفرنسي على أن يؤيدوا بكيفية واضحة قضية عودة الملك إلى العرش ولم يفعلوا ذلك إلا في آخر لحظة .

ونجح الوطنيون في أن يوظفوا جيدا الخطاب المعتدل لسياسيين مغاربة من معسكر محمد الخامس مثل المرحوم البكاي. وكانت تلك إضافة مهمة لعناصر الحملة التي تمت في باريس. وأدى كل ذلك إلى إحداث اضطراب في الساحة الفرنسية وأخذ الفاعلون السياسيون في البحث عن مخرج للأزمة. وفي هذا الخضم وقع تحرك مهم في الداخل بالرباط والدار البيضاء تصدرته جماعة الفرنسيين الأحرار. فعلى إثر مقال في ماروك بريس للكومندان سارتو في وقت مبكر (سبتمبر 1953) وقعت ردود فعل سريعة وحماسية للتديد بالنفي كعمل شنيع وبسياسة القوة كخطأ يجب الإقلاع عنه. وعبر عن هذا الموقف أساتذة ومحامون ورجال أعمال. وتألف تيار سمي بمجموعة الـ 75 على إثر توجيه رسالة إلى رئيس الجمهورية الفرنسية في فبراير 1954 وكانت نداء حارا من أجل مراجعة سياسة القوة والبحث عن حلول مع المغاربة.

جاءت النتائج الأولى في شكل تحية كيوم رجل الأزمة وتعيين ديبلوماسي في مكانه هو فرانسيس لاكوسط. وأتى هذا بمقاربة جديدة قوامها تطعيم الإدارة بالمعتدلين والتخلي شيئا فشيئا عن سياسة القوة بإطلاق الحريات ورفع الأجور لكن مع الأسبقية للأمن بتصفية الإرهاب. ولكن الإصلاحات التي جاء بها لاكوسط لم تعمر طويلا، وإن كانت قد أسفرت عن نتيجة سيكون لها ما بعدها وهي الإقراج عن اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال التي كانت في السجن منذ ديسمبر 1952.

وعلى الفور انتقل العمل إلى باريس حيث تولى ع.ب. بوعبيد مكتب الحزب هناك وأخذ يوطد القنوات التي كانت قائمة منذ أوائل الخمسينات بقصد مواصلة الحوار مع الأوساط الفرنسية وجمع التأييد للمشروع الوطني المغربي. وكانت الأفكار ناضجة للبحث عن مخرج بمفعول المبادرات المختلفة التي كانت قد ملأت الأجواء ومنها أعمال قام بها مغاربة لم يكن ممكنا رميهم بالتطرف مثل السادة البكاي والفاطمي بن سليمان والقايد العيادي. كما كانت هناك مجهودات حزب الشورى والاستقلال الذي وجه وفدا إلى باريس في سبتمبر 1954. وتوخت كل

الجهود تركيز الضغط على البرلمان والأحزاب والصحافة إلى أن ظهرت في غملاز تكوين حكومة مانديس فرانس في يونيو 1954 معالم مترددة من جانب الفرنسيين للبحث عن مخرج. إذ أن م.فرانس انشغل بقضية الهند الصينية وأقدم على بعض الأفكار الواضحة فيما يخص تونس. أما بخصوص المغرب فإنه لم يكن قد أسفر عن تحرك حاسم. وفي أثناء المناقشة البرلمانية لبرنامج حكومته ظهر أن الرجل كان غير قادر بعد على معالجة الملف قبل إنهاء الملف التونسي . وعلى أي حال فإنه كان ضد عودة محمد الخامس إلى عرشه .

هذا هو الشيء الواضح الوحيد الذي ورد في خطاب التصيب. ومع ذلك ظهرت في مجلة " ليكسبريس " مقالة للباشا البكاي. واعتبرت جريدة " الأمة " الصادرة بتطوان أنه نظرا لقرب المجلة الفرنسية المذكورة من الرئيس م.فرانس فإن المقالة ربما كان موعزا بها . إذ أن البكاي بعد أن دافع بقوة عن الصداقة المغربية الفرنسية والتبشير بالتصالح وإعادة صياغة العلاقات بين البلدين دعا بوضوح إلى معالجة قضية العرش ولو بالتدريج. وتصورت " الأمة " أن هذه الأفكار التدريجية ربما تجد قبولا من لدن م.فرانس. ونكرت " الأمة " بأن فكرة التدريج مرفوضة وأن شعار الشعب المغربي يتلخص في مطلبين العودة والاستقلال .

لكن كان هناك إيراك لكون المسألة تتطلب تمهيدا. وفي غمرة التطورات السريعة التي اكتتفت المسألة المغربية وقع حادث كان له أكبر الأثر في فرنسا. ذلك أن المعمرين الفرنسيين كانوا قد تجمعوا في هيئة سموها " الوجود الفرنسي " دخلوا في مرحلة جديدة لمواجهة الاتجاه إلى الانفراج فشكّلوا ميليشيات مسلحة وجهت عدة ضربات ومن ذلك اغتيال رجل أعمال فرنسي ليبيروالي كان يعمل من أجل الوفاق هو لوميغر دو بروي. وإزاء هؤلاء هؤلاء كان هناك تنظيم آخر لفرنسيي المغرب هو " الضمير الفرنسي " الذي كان يبشر بالتصالح ويعمل على مد الجسور وتسهيل العثور على مخرج.

وبعد اغتيال دوبروي ، وكان قد حدث في ظل حكومة إدغار فور ، في صيف 1955، اتجهت الحكومة الفرنسية إلى إعطاء الأسبقية للملف المغربي. ولنا شهادات مباشرة تتحدث عن استدعاء إ.فور لبوعبيد إلى منزله حيث استقبله بمعونة مساعده في مكتب باريس للحزب امحمد بوسنة، وأسر لهما بأن النخبة الفرنسية عازمة على مراجعة المسألة المغربية من أساسها وأبلغهما أن الأمر يتطلب إعدادا وأنه لا بد من إقناع المترددين من نوي القرار بمصادقية التصور الوطني لمستقبل العلاقات بين المغرب وفرنسا. وأدى الحوار إلى تكوين لجنة من خمسة وزراء فرنسيين للاستماع إلى عدة أطراف مغربية قصد التعرف على تصوراتها ومواقفها. وهذا ما يعرف بموائد الحوار في إيكس لبيان.

ويجب القول إن إيكس لبيان لم تكن في الحقيقة تفاوضا ولا مؤتمرا وإنما كان لقاء بين لجنة وزارية فرنسية وبين مغاربة يمثلون مختلف الحساسيات. وأحاطت بتلك اللقاءات حالة ضخمت صداها. ولكنها كانت دلالة واضحة على أن الفرنسيين قد أدركوا خطأهم. وكانوا قد تلاقوا دائما الاعتراف علانية بالخطأ وحاولوا بكل أسلوب أن يدخلوا في تفاوض مع المعسكر الوطني وبحثوا بلا كلل عن معتدلين. وسنرى فيما بين أبريل 1954 ويونيو 1955 مجموعة من الوفود تتوجه إلى باريس بقصد " التداول في قضية بن يوسف " . وسنرى الجانب الفرنسي يلمع بعض تلك الوفود أملا في تكوين "طرف ثالث"، كان يرجى أن يتألف من "المعتدلين" الذين يمكن أن يتألف منهم فريق مؤهل ليكون مخاطبا.

ولكن كان هناك شيء حاسم أحبط تلك المحاولة إلى حين وهو أن المقاومة المسلحة استهدفت بالذات العناصر المتعاونة مع الإدارة والمتدبسين. وأورد ستيفان بيرنار في كتابه الجامع عن الأزمة المغربية أرقاما يجدر التنكير بها هنا. إذ كسان هناك 761 قتيل مغربي ماتوا برصاص المقاومة في حين بلغ عدد الأوربيين 159. كما أنه كان هناك 1409 من الجرحى من بين من استهدفتهم المقاومة كلهم مغاربة وأما الأوربيون فكانوا 598. وهذه الأرقام تدلنا على وجود توجيه مبيت لقطع

الطريق على بروز قوة ثالثة ولتتبيه المغاربة بقوة إلى مغبة التعاون مع الخطط للفرنسية. فالمتعاونون كانوا معزولين وكان الكلاوي والكتاني ومن معهما من القواد والباشوات الذين وقعوا على عرائض مناوئة لمحمد الخامس كانوا معزولين والمخزن لم يكن له أي اعتبار، فوقع الرهان على المعتدلين .

ولأن الموقف كان يتحرك بمنطق موحد فإن عمل المقاومة ومواقف القيادة السياسية كان متكاملًا . فبمناسبة توجه المرحوم الزغاري إلى باريس ضمن وفد وهو كما هو معروف من الموقعين على عريضة المطالبة بالاستقلال، صدر بيان لرئيس الحزب في القاهرة يقول إن السيد الزغاري لم يكن مخولاً من لدن الحزب لإجراء أي محادثات. وجاء في بيان آخر لزعيم التحرير صدر في أكتوبر 1954 أن المخاطبين هم حصراً محمد الخامس والحركة الوطنية والعلماء. وقد أدرج العلماء على سبيل الاحتياط لأن الأطروحة التي قامت عليها مناهضة 20 غشت هي أنه لا يحق إلا للعلماء تنصيب ملوك المغرب. ووفق هذا أدرج العلماء ضمن لائحة المخاطبين .

وبعد أن فشل الفرنسيون في إيجاد مخاطب من صنع أيديهم لم يبق أمامهم سوى أن يتحدثوا مع المخاطب الحقيقي أي الحركة الوطنية ولكن مع تعويمها ضمن ما لا يعد من الشرائح التي قد تكون لها تمثيلية ما في الأفق المغربي. وقيل للوطنيين عندئذ صحيح أنكم أنتم الذين تحركون الأحداث وأنتم المعول عليكم في الحوار بشأن المستقبل والشؤون الاقتصادية ولكنكم لستم وحدكم في الميدان. وهذا في الواقع هو مصدر كل النقاش الذي لم ينته بعد حول أسلوب إيكس لبيان. فقد حضر موائد الحوار إذ ذاك إلى جانب الوطنيين علماء وقواد وباشوات وممثلو المخزن . وتبلورت هناك فكرة أسبقية مسألة العرش مع الاتجاه إلى صياغة جديدة للعلاقات المغربية الفرنسية. ولكن الحكومة الفرنسية كانت عاجزة عن أن تتقدم بحل آخر غير الحل التدريجي.

وتمخضت الاستشارات عن معالم حل يقوم على مجيء محمد الخامس إلى فرنسا وتكوين مجلس لحفظ العرش يتضمن ممثلاً عن محمد الخامس وآخر عن تيار الكلاوي وثالث عن المخزن. وكان معروفاً أن تيار الكلاوي يقبل أي شيء وأن تيار المخزن على شاكلته. وكانت المشكلة تتمثل في أن يقبل الوطنيون ذلك الحل المطروح. وما سمعه الفرنسيون دائماً هو أنه لا يقبل سوى عودة محمد الخامس إلى عرشه .

واضطر الجانب الفرنسي إلى تعديل خطته فيما بعد تحت ضغط الأحداث التي حفل بها صيف وخريف 1955. فكانت المهمة التي قام بها الجنرال كاترو في أنتسير لبي بجزيرة مدغشقر وما تلاها من محاولات كانت ترمي إلى بيان مصداقية الحل المرحلي. وهناك مقال كتبه المحامي جورج إيزار عن محادثات مدغشقر جاء فيه أن محمد الخامس أبلغ مخاطبيه رسمياً بأنه يقبل الحل المرحلي مبدئياً ولكن يجب الرجوع إلى حزب الاستقلال.

جئت في أثناء ذلك تطورات منها تعيين مقيمين عامين في فترة قصيرة هما غرانفال وبوايي دو لاتور. وكان ما كان من انفراط مجلس حفظ العرش، وانقلاب الكلاوي حينما قرأ بوضوح تام مجريات الأحداث، وبدء عمليات جيش التحرير في تيزي أسلي وأكنول وبوريد، وشريط طويل أخذ ليس هنا مكان استعراضه . وفي كل التفاصيل المحيطة بذلك يبرز أن الأحداث اتخذت مساراً يدل على أنه كان هناك طرف يتحكم في المسلسل كله وفق منطق موحد هو الذي فرض نفسه في ساعة الحسم. أي أن المخاطب كان هو الجانب الذي كان يحرك الأحداث.

وأختتم هذا العرض بلائحة طريفة تركها لنا جيلبير غرانفال في كتابه "مهمتي في المغرب" « Ma Mission au Maroc » سبق لي أن استشهدت بها في فصول كتبتها عن الفترة التي نحن بصدها. وهي اللائحة التي تتضمن أسماء من كانوا مقترحين لكي تختار منهم حكومة تتولى التفاوض بشأن مستقبل العلاقات المغربية الفرنسية. وتتنمي الأسماء إلى تسع فئات . منهم أربعة قال إنهم تقليديون من قبيل الكلاوي

والكتاني والقواد والباشوات، ثم تقليديون من بعض رؤساء الغرف التجارية والفلاحية، ثم بعض الوطنيين الذين يعتبرهم معتلين من قبيل الباشا عباس التازي ومولاي حفيظ ومحمد عمر الحجوي، ثم مستقلين عن الأحزاب مثل أبا حنيني ورشيد ملين والمحامي كديرة وعبد العزيز الفيلاي رئيس محكمة في الدار البيضاء وأخيرا ثلاثة من حزب الاستقلال وواحد من حزب الشورى وواحد من مسلمي طنجة، وواحد من الطائفة اليهودية. ومن هؤلاء الأربعة عشر تتألف حكومة من تسعة أفراد .

وهذه اللائحة في الواقع تبين عن وجود قديم لنظرية التعددية المدبرة كأساس للخريطة السياسية في المغرب. وهي نظرية تقوم على منطقتين مرتبكتين. فحينما يتم تحريك الشارع (منذ 1930 حتى الكتلة الديمقراطية) يقال إن الحركة الوطنية هي المسؤولة. أما حينما يتعلق الأمر بخريطة سياسية فيقال إن الوطنيين ليسوا وحدهم في الميدان. وقد طبقت هذه النظرية من لندن وإسبانيا وفرنسا معا. وكما قلت في بحث لي حول التجربة التي تمت في الشمال فإن الأمر هناك اجتاز ثلاثة أطوار. في طور أول وجدت إسبانيا أنه لا مناص من التعامل مع الوطنيين، وأنه خير أن يتحركوا وهم تحت النظر ويكون مضمونا ألا يخرجوا عن الطور. حدث هذا حتى آخر الثلاثينات. وحينما قامت حركة فرانكو ووجدت أمامها قوة منظمة ممثلة في الطريس عمدت إلى تشجيع قيام حزب مناويء وهكذا ظهر حزب الشيخ المكي الناصري، ولما ظهر أن ضرب الحزبين الوطنيين أحدهما بالآخر لم يفد مخططات الإدارة إذ أن حزبي الوحدة والإصلاح ألفا فيما بينهما تحالفا وطنيا اتجهت الإدارة في مرحلة تالية إلى تكوين حزب إداري محض هو حزب المغرب الحر. أي أن إسبانيا هي التي ابتدعت فكرة التعددية المدبرة بقصد التحكم في الخريطة السياسية. وهي بدعة استعملها قوم آخرون من بعد، وهذه قصة أخرى ولكن لها بعض الصلة بما كنا فيه .



## حكومة البكاوي الأولى ومهمة تفعيل الاستقلال

محمد معروف الدفالي \*

كانت الأعمال الفدائية للمقاومة الوطنية المسلحة، وانتقامات المقاومة المضادة التي تزعمها غلاة الاستعمار ضد مطامح الشعب المغربي، وأصوات عدد من الشخصيات الفرنسية من رجال الثقافة والسياسة والمال والأعمال، بفرنسا والمغرب، الداعية إلى تسوية الخلاف الفرنسي بصورة تضمن المحافظة على الصداقة الفرنسية المغربية، إلى جانب التصورات التي بدأت تتبلور في أفق مقاومة مسلحة واحدة ضد النفوذ الفرنسي بالشمال الإفريقي، وعدد من مشاكل فرنسا الداخلية والخارجية ... كلها عوامل فرضت على المسؤولين الفرنسيين منذ أواخر سنة 1954 نوعاً من التفكير والتحرك في أفق حل ما للقضية المغربية. واتخذ هذا التحرك عدة مظاهر تراوحت بين جس نبض زعماء الحركة الوطنية السياسية التي

\* - أستاذ باحث بكلية الآداب - عين الشق - الدار البيضاء.

أصبحت بكل مكوناتها تمثل تياراً معتدلاً مقارنة مع حركة المقاومة المسلحة، وبين سلسلة تغييرات في منصب المقيم العام بحثاً عن الرجل الصالح لمساعدة الحكومة الفرنسية على الوصول لأهدافها، وبين سلسلة من اللقاءات والمناقشات السرية والعلنية التي أفضت إلى اجتماعات "إيكس لبيان" وما تلاها.

اعتبر الفرنسيون لقاءات "إيكس لي بان" التي جمعت بين أطراف متناقضة "عملية سياسية" و"بداية حوار جاد وصادق"<sup>(1)</sup>، كما اعتبرها أحد فصائل الحركة الوطنية المشاركة، وهو حزب الاستقلال "بمثابة لقاء تمهيدي لتشييد مستقبل أفضل"<sup>(2)</sup>. ويبدو من خلال المحاضر الرسمية لتلك الاجتماعات، أن الهدف منها لم يكن واضحاً في البداية، بما فيه الكفاية، وأنها كانت أقرب إلى عملية جس نبض، واستئناس بمختلف الآراء للاستفادة منها فيما سيأتي من مخططات.

إن أي نقاش إيديولوجي حول مسألة قبول بعض فصائل الحركة الوطنية السياسية المشاركة في تلك اللقاءات، إلى جانب توجهات وتيارات لها رؤى مختلفة وأهداف مختلفة، يبدو مجانياً واستهلاكيًا، ليس إلا، ذلك أن الأحزاب السياسية الوطنية نفسها أصبحت منذ أواخر سنة 1952 شبه عاطلة عن العمل، وبدأت تظهر شبه متجاوزة أمام ما حققته المقاومة المسلحة من قرض لمضاجع الاحتلال، وأمام استقلال تلك المقاومة عن كل ما هو حزبي. وتبعاً لذلك الواقع لا يمكن استبعاد أن تكون لقاءات إيكس لي بان، قد شكلت للأحزاب الوطنية فرصة، وجب الاستفادة منها لرد الاعتبار والعودة إلى الواجهة، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، قبل ضياع ما راكمته من مواقف نضالية بين سنوات 1930 - 1952 ... إن التقاء بعض مصالحي فرنسا الراغبة في إيقاف حركة المقاومة المغربية المسلحة، والتخفيف من حالة العنف التي كان يعيشها المغرب، مع بعض مصالحي الأحزاب الوطنية كما بينه الواقع أعلاه، لا يذهب إلى حد اتهام الأحزاب الوطنية بالتواطؤ ضد حركة المقاومة المسلحة، بقدر ما يضع نصب العين مصلحة رجال السياسة، وتخوفهم من التهميش الممكن لحساب

حركة أخرى، هي المقاومة المسلحة ، التي صنفوا لنضالاتها، لكنهم ما لبثوا بين الفينة والأخرى يعتبرون تتكبل فرنسا بهم، وإيقاف الحوار والتعامل معهم أحد أسباب بروز تلك الحركة ... ومهما كان الأمر حول هذه المشاركة التي لا يمكن اعتبارها سوى طبيعية بالنظر للظروف التي أحاطت بها، نشير إلى أن جدول الأعمال الذي طغى على لقاءات "إيكس لي بان" تضمن ثلاث نقط رئيسية هي مسألة العرش، وتشكيل حكومة تمثيلية، وتحديد آفاق مستقبل العلاقات الفرنسية المغربية. وهي نقط كانت الاختلافات حولها، بين الأطراف المشاركة أفقية أحيانا، وعمودية أخرى، إلا أن النتائج المباشرة للنقاش والحوار، أفضت إلى نقل السلطان محمد بن يوسف من منفاه بمدغشقر إلى باريس أواخر أكتوبر 1955 ، وإشراكه في مشاورات نتج عنها توقيع تصريح مشترك بينه، وبين وزير خارجية فرنسا "انطوان بنبي Pinay" بقصر "سيل سان كلو" ، بتاريخ 6 نونبر 1955 ، كما نتجت عنها عودة السلطان إلى المغرب وإلى العرش عشرة أيام بعد ذلك، أي بتاريخ 16 نونبر.

لقد اعتبر السلطان محمد بن يوسف "تصريح لا سيل سان كلو" المشترك بمثابة اتفاق على المبادئ العليا بين المغرب وفرنسا(3) وبمثابة بث روح جديدة في العلاقة بين البلدين قوامها الحرية وحب التطور(4) واعتراف من حكومة جمهورية فرنسا للمغرب باسترجاع استقلاله(5) وبذلك صنفه أساسا للاستقلال. أما القوى الحزبية الوطنية ، فرغم تحفظ بعضها إزاء مرجعيات ذلك التصريح، وإزاء بعض مضامينه، فإنها عبرت عن لرتياحها لتوقيعه، واستقبلته تعهدا من قبل الحكومة الفرنسية لقيادة المغرب نحو نظام دولة مستقلة " في دائرة علاقات تبادل التبعية يتفاوض عليها وتحدد بكل حرية"(6).

إن الانطباع والشعور بالاستقلال، الذي خلفه تصريح "لا سيل سان كلو" وعودة السلطان إلى عرشه، لم يتجاوز مستوى المحسوس، حيث كانت معاهدة 30 مارس 1912 ما زالت متحكمة في طبيعة علاقة المغرب مع فرنسا. لهذا ومن أجل تحويل المحسوس إلى ملموس، وطبقا للاتفاقات الفرنسية المغربية تشكلت حكومة

مغربية تعددت نعوته، كما تعددت مهامها التي كان من بينها التفاوض من أجل الاستقلال وتحويله إلى واقع.

### تشكيل حكومة البكاي وبرنامجهما:

عاد السلطان محمد بن يوسف من باريس إلى المغرب منوطا بعدة مهام، نصت عليها اتفاقات إيكس لي بان وانتسرابي وباريس، ولاسيل سان كلو، كان من بينها تشكيل حكومة مغربية : تتمثل فيها جميع عناصر الرأي العام المغربي<sup>(7)</sup> يكون من بين مهامها مفاوضة الفرنسيين حول موضوع إعادة النظر في معاهدة الحماية، وماهية علاقة الارتباط والأوراق التي ستبنى عليها العلاقات المغربية الفرنسية الجديدة. لذلك ما لبث السلطان إثر عودته أن بدأ استشارات مع "ممثلي الرأي العام من مختلف الأوساط السياسية والنقابية"<sup>(8)</sup> وخصوصا منها الحزبين الوطنيين الرئيسيين: حزب الاستقلال، وحزب الشورى والاستقلال. ارتكز مضمون تلك الاستشارات حول الشخصية المقترحة لرأس الحكومة، وجهاز الحكومة، والعناصر التي ينبغي أن تمثل في ذلك الجهاز، وعدد الوزارات، مع اقتراح برنامج للحكومة.

وتجدر الإشارة إلى أن الحكومة الفرنسية، كانت منذ لقاءات إيكس لي بان، متوفرة على تصور فيما يخص من يرأس الحكومة المغربية المتناقش حولها، ومن أبرز الأسماء التي كانت في تصورهم، اسم الفاطمي بن سليمان باشا فاس السابق، واسم مبارك البكاي، باشا صفرو السابق. ويبدو أن النقاش والحوار مع الفعاليات الوطنية المغربية، رجح كفة البكاي، لهذا اقترحه السلطان في استشاراته رئيسا لوزراء الحكومة المرتقبة.

لقد رأى حزب الاستقلال أن الواجب يقضي بإسناد مهمة رأسه وتشكيل الحكومة إلى أحد رجاله، كما رأى حزب الشورى والاستقلال أن المرشح الطبيعي للمهمة هو الأمين العام للحزب محمد بن الحسن الوزاني، نظرا لماضييه الوطني ودوره في تأسيس الحركة الوطنية<sup>(9)</sup>. وبما إن اسم "البكاي" على ما يبدو كان متفق

عليه مسبقا، فإن الحزبان زكياه كتابية، ووعدا بتأييده ومساعدته على النجاح في مهمته. أما فيما يخص جهاز الحكومة، فمتلما كان مطمح حزب الاستقلال، رأسية الحكومة، كان مطمحه في تحمل مسؤوليتها والاستفراد بها، استنادا إلى نظرتة لنفسه، وموضعة ذاته حزبا "يعبر عن إرادة الأغلبية الساحقة للشعب المغربي". وانطلاقا من هذه النظرة لم يقبل المساهمة في تشكيل حكومة ائتلافية إلا امتثالا لتصريح لاسيل سان كلو، ونداء الملك، كما اتبع "تنازله بالمطالبة لرجاله بنصف مقاعد الحكومة، ولم يقبل بتخفيض تلك النسبة إلى 45% إلا على مضض، حيث اعتبرها نسبة دنيا لا تعبر عن الأهمية الحقيقية لمكانته في البلاد. كما يستحيل عليه المشاركة في الحكومة بفعالية في حالة تخفيضها إلى أقل منها. وعلى العكس من "ترجسية" حزب الاستقلال وتحفظاته، رأى حزب الشورى والاستقلال أن "الاتحاد الوطني هو وحده الكفيل بتنسيق الجهود بين المغاربة" متلما أن نجاح "المفاوضات وتطورها لصالح الشعب المغربي" رهين "بالوئام وبالوحدة". ومن هذه الرؤية اقترح حكومة وطنية ائتلافية موزعة بين ثلاثة مكونات هي : حزب الشورى والاستقلال، وحزب الاستقلال، و"المستقلون الصالحون والقادرون على تحمل المسؤوليات"، بنسبة الثلث لكل منها. واعتبر الشوريون اقتراحهم نوعا من العدل التام، في انتظار تهية الشروط لحكومة مقبلة مشكلة على أساس انتخابات حرة، هي وحدها الكفيلة بالكشف عن الأهمية الحقيقية لكل عنصر من العناصر. وإذا اختلفت رؤى الحزبين معا حول كيفية توزيع نسب المشاركة داخل الحكومة، فإنهما اتفقا في ضرورة إبعاد أعضاء المخزن المعزولون، وأعوان السلطة التنفيذية من باشوات وقواد وغيرهم عن هيكلها. وقدم كل منهما تصورا لهيكل الحكومة وعدد الوزارات بها، ومهام كل وزارة.

لقد حدد تصريح لاسيل سان كلو مهمة الحكومة المغربية المرشحة في أن تكون مهمتها الأولى إعداد مشروعات إصلاحية، تمهيدا لإنشاء دولة مغربية ديمقراطية، ذات نظام ملكي دستوري، وأن تتفاوض هذه الحكومة مع الحكومة

الفرنسية على رفع المغرب إلى مرتبة الدولة المستقلة، المتصلة مع فرنسا بروابط دائمة تحدها الدولتان بمطلق حريتهما"، والتزاما بهذا التصريح وزع الملك في أول خطاب للعرش بعد عودته مهام تلك الحكومة ثلاثا: مهمة تدبير شؤون البلاد، ومهمة وضع أنظمة ديمقراطية، ومهمة التفاوض مع الحكومة الفرنسية. وضمن موافقة حزب الشورى والاستقلال على مضمون خطاب العرش في 18 نونبر 1955، وافق على تلك المهام، وأضاف إليها اقتراح مهمة رابعة هي التفاوض مع الدول الأخرى، أما حزب الاستقلال فلم يعترف للحكومة المزمع تشكيلها سوى بمهمة واحدة، هي مهمة التفاوض مع فرنسا، إذ اعتبرها "المهمة الأساسية" والمهمة التي تبرر وجود تلك الحكومة. ومن هذا المنظور استمر في خطابه وأدبياته ينعتها بـ "حكومة التفاوض" أحيانا و"الحكومة الانتقالية" أحيانا أخرى، وهي نعوت لا تخفي مضمونها، وتبريرا لهذا الموقف اعتبر الاستقاليون الحديث عن مهمة الحكومة في تسيير شؤون البلاد قبل القبض على زمام الحكم نوعا من مغالطة النفس. إلا أن انتباههم إلى أن الحكومة لا يمكن أن تبقى مكتوفة الأيدي طيلة مدة المفاوضات، التي يمكن أن تطول، وأن مصالح البلاد لا يمكن أن تبقى في قاعة الانتظار، جعلهم يعترفون بحق تلك الحكومة في القيام ببعض الإصلاحات، التي ميزوا فيها بين ميدان يمكن العمل داخل نطاقه دون انتظار المفاوضات وميادين لا يمكن ولوجها إلا بعد تحرير السيادة الوطنية وكانت "المسألة الديمقراطية"، ضمن الاختلافات الواضحة في التصور والرؤى بين الحزبين، ضمن رؤيتهما لمهام الحكومة، فقد ألح الشوريون على مهمة إيجاد مؤسسات ديمقراطية، ورأوا أن تقترح الحكومة على الملك في الوقت المناسب تعيين لجنة من ثلاثين عضوا، يختارون من جهات المغرب الستة، بمعدل خمسة عن كل ناحية، تكون مهمتها تهييء مشروع دستور مغربي على أساس مبدأ الملكية الدستورية، في غضون ستة أشهر من تأليفها، كما رأوا أن يقوم النظام الجديد بالمغرب على أفكار تطمح إلى إيجاد دولة مغربية ديمقراطية وذات سيادة، وحكومة مغربية تمثيلية، قائمة على فصل السلطات

والمساواة بين جميع المواطنين بقطع النظر عن عقائدهم ، وحرية الاجتماع، وتأليف الجمعيات، والصحافة والأخبار، بينما لم يكن حزب الاستقلال متحمسا لهذه المسألة، فاستنادا إلى تصوره الخاص لمهام الحكومة ، اقترح تأجيل إقامة نظام ديمقراطي مبني على أساس الملكية الدستورية إلى ما بعد إتمام المفاوضات مع فرنسا، وتسلم جميع مظاهر السيادة. مقترحا أن يظل الملك في الفترة ما قبل نهاية المفاوضات "هو المؤتمن الوحيد على السلطة التشريعية". غير أنه في برنامجه حاول تدارك الأمر نسبيا، فاقترح تأسيس مجالس محلية منتخبة (جماعات وبلديات)، وتأسيس مجلس استشاري مؤقت، يلغى بمجرد تحرير السيادة المغربية لفائدة مجلس وطني منتخب، يكون عدد أعضائه مائة، وتكون مهمته استشارية في كل مشروع قانون يكلفه به الملك، وتزويد الحكومة، بأرائه في مشاريع الإصلاح التي تقدم له، ودراسة وتحرير مشروع دستور مغربي، يكون من حق الملك والمجلس الوطني المنتخب قبوله أو تعديله أو رفضه.

إن اختيار مبارك البكاي، لتشكيل الحكومة، ورأسه وزرائها كان وليد عدة اعتبارات خلقت شبه إجماع حوله، وسهلت مأموريته نسبيا. فاعتدال هذا الرجل، وعدم تحزبه، وخدماته السابقة في الجيش الفرنسي، وفقدانه أحد رجليه في الحرب العالمية الثانية دفاعا عن فرنسا، كلها حيثيات جعلته الرجل المناسب للمنصب من طرف الفرنسيين، ودور هذا الباشا السابق لمدينة صفرو في مناوئة سياسة المقيم العام جوان، وسياسة المقيم العام كيوم، ولخط التهامي الكلاوي، وموقفه من نفي السلطان في غشت 1953 ، المتجلي في تقديم استقالته، ودفاعه على الشرعية، إضافة إلى نشاطه منتصف الخمسينات، منذ الاتصالات الأولى بين الفرنسيين والمغاربة، جعلته الشخص المقبول في نظر الملك، كما جعلته في نظر حزب الاستقلال "رجل الساعة" وفي نظر حزب الشورى والاستقلال، الرجل الذي "أقام الدليل على إخلاصه للقضية الوطنية، وعلى تجرده واستقلاله، وابتعاده عن روح التحزب". ويبدو من خلال تتبع ظروف المرحلة وشروطها، وما أحاط بذلك، أنه لم

يكن هناك شخص يمكن أن يحصل على نفس الإجماع والموافقة التي حصل عليها البكاي، كما يبدو أن مميزات الرجل وموافقة الأطراف الرئيسية على إسناد المهمة إليه، ساهم في إزاحة معظم العراقيين من أمامه، وجعله ينتهي من مشاوراته وتشكيل الحكومة في حوالي أسبوع من الزمن.

ففي 28 نونبر 1955، كلف الملك السيد مبارك البكاي بإجراء مشاورات، وتشكيل حكومة، وفي 6 دجنبر الموالي كان الرجل قد أنهى مهمته ليقدّم حكومته للملك يوم 7 دجنبر.

كانت حكومة البكاي الأولى، ائتلافية، حسبما سمحت به الظروف، أبعد عنها الحزب الشيوعي المغربي، لأسباب إيديولوجية وليست سياسة، ولم يشارك فيها حزب الإصلاح الوطني وحزب الوحدة المغربية، لأن أمر المنطقة الخلفية كان ما زال معلقاً. فتوزعت حقائبها الإحدى والعشرين بين حزب الاستقلال بتسعة حقائب، وحزب الشورى والاستقلال بستة، والمستقلون أي اللانتمون حزيباً بخمسة، وحزب الأحرار المستقلين بحقيبة واحدة لتأتي نسب هذه الأحزاب بالتتابع هي: 42,8% و 28,5% و 23,8% و 4,7%. وتوزعت المهام بين هؤلاء الوزراء بين رئيس وزراء ونائبه، وأربعة وزراء دولة، وثلاثة عشر وزيراً، وكاتبان للدولة.

وزراء حزب الشورى والاستقلال		وزراء حزب الاستقلال	
وزير دولة	محمد الشرقاوي	وزير الدولة	إبريس المحمدي
وزير المالية	عبد القادر بن جدلون	وزير دولة	عبدالرحيم بوعبيد
وزير الإنتاج الصناعي والمعادن	التهامي الوزاني	وزير العدل	عبد الكريم بن جلون
وزير البناء والتعمير	محمد بن بوشعيب	وزير الأوقاف	المختار السوسي
وزير الشغل والشؤون الاجتماعية	عبد الهادي بوطالب	وزير التجارة والصناعة	أحمد اليزيد
كاتب الدولة في الشبيبة والرياضة	أحمد بن سودة	وزير الفلاحة	أحمد منصور النجاعي



		وزير الأشغال العمومية	محمد الدويري
		وزير التـهـنـيب الوطني	محمد الفاسي
		كاتب الدولة في الأبناء	عبد الله إبراهيم

حزب الأحرار المستقلون		الوزراء اللامتمون	
وزير دولة	أحمد رضا كـبـيرة	رئيس الوزراء	مبارك البكاي
		نائب رئيس الوزراء	محمد الزغاري
		وزير الداخلية	الحسن اليوسي
		وزير الصحة العمومية	عبد المالك فرج
		وزير البريد والتلغراف والتلفون	ليون بنزاكين

وبتاريخ 13 دجنبر 1955، أدلت الحكومة بأول تصريح لها، تحدث فيه رئيس وزرائها عن الأهداف والخطوط العريضة في البرنامج فأكد أن حكومته هي حكومة مفاوضة وتسيير وتصرف، وأن همها الأساس في مجال التسيير والتصرف سينصب على المطامح المشروعة للمغاربة عن طريق استثمار الموارد المالية والأدبية، استثمارا يؤدي إلى ارتفاع مستوى معيشة أغلبية سكان البلاد، وتنفيذ إصلاحات تهم الإدارة والقضاء، والحريات العامة. واتخاذ تدابير عاجلة لإفراغ الدولة المغربية في قالب ديمقراطي، وقد طلب رئيس الوزراء من كل وزير برنامج عمل دقيق للمصادقة عليه من طرف الحكومة(10).

ولتحديد اختصاصات هذه الحكومة، تم اجتماع بمقر الإقامة العامة حضره عن الجانب المغربي رئيس الوزراء، ووزراء الدولة الأربعة ومستشار الحكومة المغربية "فوجير"، وعن الجانب الفرنسي: المقيم العام "دوبوا"، والوزير المفوض المعتمد للإقامة العامة "لالويط" والمستشار العدلي للحماية "مايرا" (11). انتهى إلى اتفاق بين الطرفين، أسفر عن بروتوكول وقعه مبارك البكاي وأندري دوبوا بتاريخ 11 فبراير 1956، ومذكرتين ملحقتين به. لقد استند مضمون هذا البروتوكول والمذكرتين إلى المذكرات المتبادلة بين الحكومة الفرنسية والمسؤولين المغاربة، بين 30 نونبر 1955، و5 فبراير 1956، فيما يخص نقل سلطات التسيير إلى الحكومة المغربية، ومباشرة الإقامة العامة للاختصاصات المنقولة عليها في المدة الانتقالية، التي تنتهي بنهاية المفاوضات المزمع إجراؤها. واستنادا إلى البروتوكول والمذكرتين أكد الاتفاق على صدور ظهير ملكي يحدد النظام المؤقت للسلطات العامة، واختصاصات الوزراء، توضح وتفسر مواد باتفاق بين الطرفين الفرنسي والمغربي (12). أما المفاوضات مع فرنسا، التي كانت أحد مهام الحكومة، فقد أولاها التصريح الحكومي الأول أهمية كبرى، إذ اعتبرها المهمة الجوهرية للحكومة، من أجل تحديد اتفاق جديد يرمي إلى صيانة السيادة المغربية في دائرة وحدة التراب. وفي هذا السياق تم إسناد مهمة التفاوض مع فرنسا، إلى وزراء الدولة الأربعة، فبدأ وكان المهام توزعت بين رجال الحكومة الأولى ووزراء الدولة لإنجاز مهمة التفاوض مع فرنسا حول مستقبل العلاقات المغربية الفرنسية، والباقون لمهمة التسيير والتدبير.

### مفاوضات باريس واستقلال 2 مارس 1956 :

اقترحت الحكومة الفرنسية، إثر مجلس وزاري عقده بتاريخ 3 فبراير 1956، على ملك المغرب، تدشين المفاوضات الفرنسية المغربية، في منتصف نفس الشهر. واستنادا إلى تحديد تاريخ بدأ المفاوضات شرع الوفد المغربي في التهيء، وكان مكونا من رئيس الوزراء مبارك البكاي، وخليفته الزغاري، ووزراء الدولة

الأربعة إدريس المحمدي، وعبد الرحيم بوعبيد ومحمد الشرقاوي وأحمد رضا كديرة وقد عين الملك، هذا الأخير ناطقاً رسمياً باسم الوفد المغربي في المفاوضات كما تم تكليف محمد الزغاري، بمهمة الانتقال بين باريس والرباط لربط الصلة بين الوفد الحكومي المفاوضات وبقية الوزراء. أما الوفد الفرنسي فكان برئاسة "كريستيان بينو" وزير خارجية فرنسا، وعضوية "آلان سافري" كاتب الدولة المكلف بالشؤون المغربية والتونسية، و"روني ماسيكلي"، و"أندري بوبوا"، و"جورج لالويط". وللمشاركة في حفل تدشين المفاوضات، والوجود قريباً من الوفد المغربي، للشلور، سافر محمد بن يوسف إلى باريس بتاريخ 13 فبراير.

إن الشعارات التي كانت تطلقها وتروج لها الحركة الوطنية والمقاومة المسلحة في فترة الكفاح الوطني، وهي الشعارات التي ربطت بين الاستقلال وشخص الملك، جعلت المغاربة - في معظمهم - يعتبرون أنفسهم منذ عودة هذا الأخير إلى العرش، شعباً مستقلاً. ونفس الأمر كان بالنسبة للمسؤولين، مع فارق واحد تجلّى في أن هؤلاء الأخيرين كانوا على بينة، من خلال اتفاقات ما قبل عودة السلطان، من أن الأمر موقوف على ضرورة مفاوضات حوله. ولهذا سافر الوفد المغربي المفاوضات، بهدف محدد هو "التفاوض في دائرة الاستقلال" (13). والعمل على جعل استقلال المغرب حقيقة ملموسة عن طريق إلغاء معاهدة فاس لسنة 1912، وتمكين الدولة المغربية من مزاولة اختصاصات سيادتها (14) غير أن هذا الهدف، لم يكن ليبلغى التزامات المغرب، بأن التفاوض سيشمل كذلك طبيعة "الترابط" في العلاقات المغربية الفرنسية، الذي سيؤطر تلك الاستقلال (15) ومثلما حضرت النقطتان في دهن وبرنامج المفاوضات المغربية، حضرتنا بالضرورة في دهن المفاوضات الفرنسيين، لأنهما في الأساس طرحا واقتراحا فرنسيا. فقد حضر الوفد الفرنسي في المفاوضات بهدف "الوصول بالمغرب إلى وضعية دولة مستقلة مرتبطة مع فرنسا بروابط مستمدة من التكافل المقبول والمحدد بكل حرية" (16) وعلى ضوء هذه القناعة، التي أصبحت مشتركة، تم افتتاح المفاوضات بين المغلوب

وفرنسا، بقصر الاليزي بباريس يوم 15 فبراير 1956 ، بحضور رئيس الجمهورية الفرنسية "روني كوتي"، ومحمد الخامس، ملك المغرب، في جلسة تشييع علنية قصيرة، لم تستغرق سوى حوالي ثلاثين دقيقة، تناول فيها الرئيس الفرنسي والملك المغربي الخطوط العريضة لهدف اللقاء، ومستقبل العلاقات الفرنسية المغربية. وبعد جلسة الافتتاح بدأت جلسات العمل، التي اعترضتها بعض الخلافات، حول المسطرة، لم يقع التغلب عليها، إلا بعد حين. كان مضمون الخلاف مركزا حول استعجال الوفد المغربي للاعتراف بالاستقلال، وإلغاء عقد الحماية، من طرف الفرنسيين، ولو في تصريح أولي، إذا تعذر عقد معاهدة في الأمر منذ البداية. وهو استعجال تم تبريره بعدد من المبررات، من بينها ضرورة توفر الوفد المغربي على الكفاءة الشرعية التي تؤهله للتفاوض. فالمحجور - حسب الناطق الرسمي للوفد - لا يسوغ التعاقد معه، ولا يمكن أن يكون للاتفاقات الفرنسية المغربية قيمة قانونية إلا إذا تم الاعتراف للمغرب بالرشد(17). هذا التصور الاستعجالي، قدم الوفد الفرنسي في حقه ثلاثة اعتراضات استندت إلى أن الدستور الفرنسي لا يخول الحكومة حق البث في عقد الحماية، الذي هو من حق البرلمان، وأن عقد فاس لا يمكن أن يلغى إلا إذا أبرمت اتفاقات جديدة بين فرنسا والمغرب تقوم مقامه. كما أن إعلان أي تصريح باستقلال المغرب دون تحديد الروابط يؤدي إلى نشوء فراغ قانوني وعملي(18). كاد هذا الخلاف أن يؤثر على سير المفاوضات، وهو ما اضطر الوفد المغربي إلى تقديم عدة اقتراحات، كضمانة لتقريب وجهتي النظر. ويبدو أن الجلسة العلنية بتاريخ 22 فبراير حملت معها الانفراج، الذي جعل منها منعطفًا عبق الطريق ليس نحو حل الخلاف فقط، بل نحو التسريع بنهاية المفاوضات.

كان الوفد المغربي يتوقع أن تستغرق المفاوضات مع الفرنسيين مدة تتراوح بين خمسة أو ستة أشهر(19)، إلا أنها لم تستغرق أكثر من حوالي نصف شهر، فقد تم التوصل بتاريخ 2 مارس 1956 بمقر وزارة الخارجية الفرنسية، إلى بيان فرنسي

مغربي مشترك، اعترف باستقلال المغرب، وقعه رئيسا الوفدين "كريستيان بينو" و"مبارك البكاي"، كما تم التوقيع على بروتوكول خاص بمدة الانتقال.

اعترف البيان المشترك (2 مارس 1956)، ان عقد الحماية المبرم في فاس بتاريخ 30 مارس 1912، أصبح لا يتلاءم مع مقتضيات الحياة العصرية، ولا مع مستقبل العلاقات الفرنسية المغربية، وبأن حكومة الجمهورية الفرنسية تقر للمغرب بالاستقلال، الذي يقتضي دبلوماسية وجيشا، ويقتضي احترام وحدة ترابه المضمونة بالمعاهدات الدولية. كما أشار إلى الأوافق الجديدة التي ستبرم فرنسا والمغرب لتحديد الترابط بين البلدين في الميادين مشتركة المصالح، والتعاون في شؤون الدفاع والعلاقات الخارجية والاقتصاد والثقافة، إلى جانب ضمان حقوق الفرنسيين بالمغرب وحقوق المغاربة بفرنسا(20) وفي البروتوكول الذي ألحق بهذا التصريح المشترك، اتفق رئيس الجمهورية الفرنسية، وملك المغرب على بناء العلاقات المغربية الفرنسية الجديدة على مقتضيات ما جاء في مضمونه، ريثما يتم الاتفاق حول الأوافق. وقد نص هذا البروتوكول على أن يمارس السلطان في المرحلة الانتقالية، السلطة التشريعية بكامل السيادة شريطة اطلاع ممثل فرنسا على الظهائر والقرارات، وحقه في إيداء ملاحظاته حولها في حالة إذا ما كانت تمس بمصالح فرنسا، والفرنسيين والأجانب. وأن يتصرف السلطان في جيش وطني، إلى جانب استمرار الجيش الفرنسي في وضعيته بالمغرب، إلى جانب حفاظ الموظفين والمستخدمين الفرنسيين في المغرب على الضمانات التي يتمتعون بها... (21).

وفي نفس يوم توقيع التصريح المشترك، حول استقلال المغرب، تبادل مبارك البكاي، مع كريستيان بينو، عددا من الرسائل، ألحقت بالبيان المشترك، والبروتوكول الملحق به. في هذه الرسائل طالب الطرف المغربي، من الطرف الفرنسي مواصلة الإشراف على تسيير علاقات المغرب الخارجية، وتمثيل وحماية الرعايا المغربية، ومصالحهم بالخارج في انتظار اتفاق الحكومتين على إجراءات جديدة، كما أكد للحكومة الفرنسية موافقته على عدم إدخال تغيير على نظام النقد

والمالية، ريثما تحدد كيفية التعاون بين البلدين في هذا الميدان. واقترح البكاي، في هذه الرسائل كذلك، وتطبيقا للمادة الثالثة من بروتوكول 2 مارس على بينو تشكيل لجنة من ممثلين فرنسيين ومغاربة، تجتمع يوم 10 مارس بالرباط، لدراسة نقل سلطات التسيير المحتفظ بها من طرف الفرنسيين، باستثناء المسائل النقدية والمالية والعسكرية والدبلوماسية المؤجل البث فيها إلى حين إبرام توافقات حولها(22).

انتهت المرحلة الأولى للمفاوضات المغربية الفرنسية، بالتصريح المشترك، والبروتوكول الملحق به، والرسائل المتبادلة بين رئيسي وفدي التفاوض. وأصبح مضمون هذه الوثائق أساس العلاقات المغربية الفرنسية، إلى حين البث فيما استمر عالقا. لقد صنف المسؤولون المغاربة بلدهم، منذ هذه المرحلة، حرا من جميع القيود لزاء فرنسا، وأنه لرتقى إلى وضعية دولة مستقلة، استرجعت المقاليد الأساسية للسيادة التي تؤهله لمباشرة أموره، بما فيها بدء المفاوضات المقترحة مع باريس، وإمضاء الاتفاقيات الجديدة التي ستحدد الترابط بين المغرب وفرنسا في ميادين المصالح المشتركة(23) كما صنفوا نهايتها، نقطة تبديد للشكوك وتوضيح ما كان غامضا، وخروجا بالمغرب " من طور التساؤل والرجاء إلى مرحلة اليقين"، والاطمئنان على مصير البلاد(24).

وعلى العموم كان إمضاء بيان 2 مارس 1956، صيغة للحصول على الاستقلال بشكل رسمي، كما كان مرحلة أولى في طريق تحرير باقي تراب المغرب. فمنذ بدايات جس النبض، والحوار الأولي مع الفرنسيين نبهت الفعاليات الوطنية المغربية إلى شمولية التراب المغربي، والرغبة في التخلص من التجزيء. ومنذ عاد السلطان إلى المغرب ما فتى ينكر من استقبلهم من الفعاليات الفرنسية، بأن السيادة المغربية، والقطر المغربي، وحدة لا تتجزأ، وأن هدف المغاربة هو الاستقلال الشامل داخل حدود البلد التاريخية(25)، كما نكر في كلمة افتتاح مفاوضات باريس، فرنسا والدول الموقعة على عقد الجزيرة، بأن هذه المعاهدة وغيرها من المعاهدات الدولية تشكل ضمانا صريحا لوحدة المغرب(26) واعتبر في

خطاب 7 مارس 1956 " عملا ناقصا وجهدا فاشلا" في حالة عدم توحيد المغرب، ورد الأمور إلى نصابها(27).

### استرجاع المنطقة الخليفة:

كان احتلال إسبانيا لجزء من التراب المغربي في إطار الحماية، ذو وضعية خاصة لا يربط فيها المغاربة مع الإسبان، أية معاهدة أو اتفاق. حيث استحوذ الإسبان على ما استحوذوا عليه من تراب في إطار اتفاقهم مع الفرنسيين في 27 نونبر 1912. لهذا اعتبر الوطنيون المغاربة باستمرار وضعية إسبانيا بمنطقة نفوذها (المنطقة الخليفة) وضعية مستأجر(28) أو مكتر من الباطن(29) وبناء على هذا الفهم كانت نهاية العمل بمعاهدة فاس 1912 مع فرنسا، تعني قانونيا ومنطقيا، وبشكل آلي، نهاية الاحتلال الإسباني، الذي لربط أصله بها. ولعل هذا الفهم أحد الأمور التي تفسر لماذا كانت حملات الحركة الوطنية بالشمال أشد وأقوى مقارنة مع حملاتهم ضد الإسبان مستعمرهم المباشر. وعلى كل حال فقد كان هذا الوضع الخاص، حاضرا لدى كل الأطراف طيلة مدة الاحتلال وحضر بشكل أقوى منذ أن بدأت فرنسا أواسط الخمسينات تفكر في حل ما إزاء القضية المغربية.

ورغم الاضطرابات التي أصابت السياسة الإسبانية، والموقف من المتغيرات، منذ عاد السلطان محمد بن يوسف إلى المغرب، فإن الأمر الواقع -على ما يبدو - كان أقوى، من أي انحراف قد يخسر فيه الإسبان، مستقبل علاقتهم مع المغرب ومع فرنسا على السواء. لهذا وبعد أن تم رفض إشراك الإسبان في المفاوضات الفرنسية المغربية بباريس. اضطر الإسبان إلى التصريح في حق تلك المفاوضات بأنها لا تهم سوى المغرب وفرنسا، لأنها ستجري على أساس عقد الحماية المبرم بين البلدين بفاس سنة 1912 ، مكتفين بالتنبيه إلى ضرورة عدم المساس بالفقرة التي تضمنت حقوق الإسبان، بالفصل الأول من تلك المعاهدة، وإلى ضرورة الاتفاق بشأن ذلك بين فرنسا وإسبانيا (30) ، وكانت الطريقة التي سارت بها المفاوضات بين المغرب وفرنسا، أحد الأسباب التي جعلت الإسبان يسلكون طريق

تدارك ما يمكن أن يضيع ، والبحث عن مكان في خريطة المصالح، قبل أن يحتكر الفرنسيون كل أفق التعاون المرتقب. هكذا تم توجيه دعوة لسلطان المغرب، لزيارة إسبانيا قصد فتح مفاوضات بين الجانبين، على أساس الاستقلال والوحدة(31) كما حاول الجنرال فرانكو وضع واقع المغرب في عهد الحماية، في إطاره الحقيقي لما صرح لمراسل جريدة "هيرالد تريبيون" الأمريكية بأن تقسيم المغرب لم يكن إلا تقسيما إداريا، ومن الطبيعي إعادة توحيد هذه البلاد(32).

انتقل سلطان المغرب، ووفد وزاري برئاسة البكاي للتفاوض إلى إسبانيا بتاريخ 5 أبريل 1956 على أرضية تحرير المنطقة الخليفة، وتوحيد تراب المغرب(33) والرغبة في تحقيق التعاون مع الإسبان على أساس احترام السيادة والاستقلال(34) وكذا أرضية اقتناع الحكومة الإسبانية بحق المغرب في ممارسة سيادته ، وللأمل في فتح آفاق جديدة بين الإسبان والمغاربة(35) ، أما الوفد الإسباني فتكون من عدد من المسؤولين على رأسهم وزير الخارجية "مارتان أرطاخو". ورغم أن هذه المفاوضات التي ابتدأت يوم 5 أبريل، انتهت يوم السابع منه، فإن ذلك لم يكن ليعني أن السرعة التي انتهت بها دليل على سهولتها أو سيرها. إذ كانت تلك المفاوضات شاقة وعسيرة ومعقدة. وصفها أحد الوطنيين المغاربة بأنها كانت "أعقد من نخب الذهب". ولعل اختلاف الرؤى والمنطلقات لدى وفدي التفاوض، كان من وراء عسر تلك المفاوضات، التي استمرت جلستها الأخيرة حوالي اثنا عشرة ساعة دون انقطاع. فالوفد المغربي حضر المفاوضات بخلفية إجراء محادثات شكلية من أجل استرجاع وحدة البلاد المشروعة، والمتفق عليها دوليا. بينما الإسبان وإن كانوا لم يجادلوا في ذلك فإنهم كانوا يرون ضرورة إجراء مفاوضات لا تختلف عن تلك التي أجريت مع الفرنسيين، وكانوا يبحثون هم كذلك عن صيغة "للتكافل" توظف ما يتم عقده من اتفاقات مع المغرب. ولعل هذا ما خلق صعوبة في التوصل، لم تنته بانتهاء المفاوضات.



انتهت المفاوضات المغربية الإسبانية في السابع من أبريل بالتوصل إلى بيان مشترك وبروتوكول إضافي، وقعهما رئيس الحكومة المغربية ووزير الخارجية الإسبانية. وأهم ما جاء في هاتين الوثيقتين: إعفاء العمل باتفاقية مدريد المبرمة بين فرنسا وإسبانيا في 27 نونبر 1912، واعتراف الحكومة الإسبانية باستقلال المغرب وسيادته التامة ووحدة ترابه، والعمل من أجل إبرام أوفاق جديدة لتحديد علاقات جديدة بين الدولتين، وحذف التأشيرات، وجميع الإجراءات الإدارية التي كانت لازمة في تنقلات المغاربة من منطقة إلى أخرى، ونقل السلطات التي كان يمارسها الولاة الإسبان في المغرب إلى الحكومة المغربية. وفي أفق نقل السلطات كون الطرفان لجنة مختلطة أنيطت بها عمليات السهر على ذلك وتسيير شؤونه، وانتقل السلطان إلى مدينة تطوان للاحتفال بالمناسبة، ثم إلى العرائش والقصر الكبير، وإلى منطقة الحدود بين المنطقة السلطانية، والمنطقة الخليفة حيث قطع شريطا رمزيا، إعلانا بانتهاء سنوات الفصل، وعهد الجمارك. وتعبيرا عن استعادة وحدة جزئين أساسيين من التراب المغربي.

وإتماما للمفاوضات الإسبانية المغربية، بدأ الشطر الثاني منها في يونيو من سنة 1956، انتهى إلى مجموعة من الاتفاقات والأسس التي اعتمدت في تسليم مظاهر السلطة للمغاربة بالمنطقة الشمالية، ونصب العلم المغربي وحده فوق المباني العمومية، والإعلان رسميا عن انتهاء مهمة الجنرال "كارسيا فالينو". وتمهيدا لعمليات الاندماج التام بين شطري المغرب ثم تكليف "عبد الخالق الطريس" من طرف السلطان، بمهمة العمل بين المصالح بالمنطقة الشمالية والوزارات المختصة بالرباط.

### اتفاق استرجاع مدينة طنجة:

اعتبر المسؤولون المغاربة، المفاوضات المغربية الإسبانية، من أجل المنطقة الخليفة، أول مظهر للسيادة المغربية في الخارج، إذ لأول مرة يتم اتصال مباشر مع دولة أجنبية عوض قيام فرنسا بذلك الدور باسم المغرب، كما اعتبروها

أول عمل دبلوماسي لحكومة المغرب المستقل (36). وبعد هذه الخطوة التي صنفت بداية مسار هدف استرجاع وحدة كل البلاد، اتجه عمل حكومة البكاي نحو ضرورة إنهاء وضعية مدينة طنجة التي أرادت لها القوى الامبريالية في مطلع القرن العشرين، أن تصبح منطقة نولية. ولتطمين الدول التي كان يعنيها أمر هذه المدينة، أدلى كاتب الدولة في الأنباء بتصريح يبد فيه تخوفات تلك الدول على مصالحها، أعرب عن استعداد المغرب لمنح المدينة بعد استرجاعها، نظاما يساعد على تسوية جميع المشاكل وإرضاء جميع الرغائب (37). وبعد قبول الدول المعنية لاقتراح المغرب بإنشاء نظام مؤقت للمدينة، وقبولها بتصفية مشكل المدينة، والتوصل مع المغرب إلى اتفاق بصدها، انعقد مؤتمر نولي، بمدينة المحمدية وطنجة، امتد من 8 أكتوبر إلى 29 منه. أنهى أشغاله بتوقيع تصريح مشترك وبروتوكول ملحق به، ألغى بمقتضاهما نظام طنجة الدولي، واستعاد المغرب سلطاته عليها. غير أنه وقبل اللمسات الأخيرة للاتفاق حول استقلال طنجة، كانت حكومة البكاي الأولى قد سقطت.

### استرجاع بعض رموز السيادة :

خولت معاهدة الحماية سنة 1912 للسلطات الفرنسية مهمة الدفاع عن المغرب، وجعلت من المقيم العام، بالإضافة إلى مهامه، الوسيط الوحيد بين السلطان والدبلوماسيين الأجانب، فجرد بذلك المغرب من حقه في تنظيم جيش لحماية نفسه، ومن حق التحكم في علاقاته الدبلوماسية الخارجية بنفسه، وبعد توقيع تصريح الاستقلال، مع كل من فرنسا وإسبانيا، نص البروتوكول الملحقان بهما على حق استرجاع هذين الرمزين من رموز السيادة، الجيش والدبلوماسية بعد فترة انتقالية يتم فيها التفاوض حول طرق تحريرهما. وبما أن الحديث عن الاستقلال الوطني، لا يستقيم في غياب السيادة على هذين المجالين. اهتمت الحكومة اهتماما كبيرا من أجل الحق في ذلك. وإثر تحرير الدبلوماسية المغربية، بانتهاء المفاوضات حول ذلك، تم تعيين أحمد بلافريج وزيرا للخارجية ( 26 أبريل 1956)، وكانت أول

وثيقة وقعها المغرب، بعد تحرر دبلوماسيته، هي معاهدة الصداقة المغربية الفرنسية، التي حددت طبيعة الترابط بين البلدين وقعها بتاريخ 20 ماي 1956، وزير الخارجية المغربي، ووزير الخارجية الفرنسي. واعتبرتها الحكومة المغربية، منفذا لممارسة ما تقتضيه السيادة في الميدان الدولي والدبلوماسي(38)، وبموجب بنود هذه المعاهدة أصبح المغرب عضوا في هيئة الأمم المتحدة ابتداء من يوم 16 يوليوز 1956. كما بدأ المغرب إثر تحرير دبلوماسيته، عمليات تبادل السفراء مع بلاد العالم، وهي عمليات، همت في انطلاقتها الدولتان اللتان كانتا تحتلان تراب المغرب. فرنسا التي أسندت مهمة سفير بها لعبد الرحيم بوعبيد، وإسبانيا التي أسندت هذا المنصب فيها لعبد الخالق الطريس.

موازاة مع محاولات تحرير الدبلوماسية، عملت حكومة البكاي في سبيل إعداد جيش وطني، فتم تعيين أحمد رضا كقادة في 22 مارس 1956، ووزيرا للدفاع، وتعيين ولي العهد، رئيسا لأركان حرب القوات المسلحة الملكية، وتقلد السلطان شخصا مهمة الرئيس الأعلى للجيش. كما بدأت مجهودات كل من رضا كقادة وولي العهد، واتصالاتهما في أفق جيش مغربي، تكونت نواته الأولى من الجنود المغاربة الذين كانوا مجندين في صفوف القوات المسلحة الفرنسية والإسبانية. ففي 13 ماي 1956، أقسم الجنود يمين الولاء، وفي 14 ماي أقيم أول استعراض عسكري، بمشاركة أربعة عشر ألف جندي، وصنفت الصحافة المغربية يوم الاستعراض، في المرتبة الثانية بعد يوم عودة السلطان(39) وفي نفس سياق بسط السيادة، تم تعيين محمد الغزاوي مديرا للأمن وانتشر جنود الأمن والدرك في مختلف الجهات والأماكن...

### خاتمة:

أنجزت حكومة البكاي الأولى، الخطوط العريضة للاستقلال، بإبرام اتفاقيات مع من يعينهم الأمر، بدلت أوضاع الحماية، بأوضاع جديدة كانت متقلة بالإملاءات الفرنسية، وبالنهج الإصلاحية للحركة الوطنية، المبني على مقولة "خذ

وطالب". فأوافق إيكس لي بان ، وما بعدها أهدرت محاولات التخلص منها في عهد الحكومات الموالية الكثير من الجهد، ولكن "الأمر الواقع"، - على ما يبدو - كان فوق كل اعتبار. ومهما كان الأمر فالحكومة حققت ظاهريا ما كان مطلوبا منها في هذا الباب، إلا أن المهام الأخرى، وخصوصا مهمة تدشين الفعل الديمقراطي، استمرت مؤجلة، بسبب نقل مهمة المفاوضات من جهة، وبسبب المشاكل التي أثيرت في أوساط الحكومة نفسها فحزب الاستقلال الذي أشرنا إلى مشاركته في هذه الحكومة على مضض، لم يكن راضيا بنصيبه رغم أنه كان الأكبر. ومن خلال رغبته في تشكيل حكومة يرأسها ويحتكر أغلب مقاعدها، ما فتئ يندد بالحكومة رغبة في إسقاطها، فهاجم مسؤولوه إنجازاتها واتهموها بالتقصير، وتبادلوا هجوما بالتصريحات مع رئيس وزرائها، وطالبوا بحكومة منسجمة. وإذا كان السلطان قد رفض تغيير الحكومة للأسباب التي ردها الاستقلاليون فإن حادثة اختطاف طائرة زعماء جبهة التحرير الوطني الجزائري وما ترتب عن الحادث مباشرة من اضطرابات، كان بمثابة عامل مباشر اضطر الحكومة إلى "الاستعفاء" من مهامها، حيث قدم البكاي استقالة حكومته بتاريخ 26 أكتوبر 1956، فسقطت الحكومة، وكلف الملك نفس الشخصية بتشكيل حكومة جديدة، وتكونت حكومة البكاي الثانية، التي كان نصيب حزب الاستقلال فيها 50% من المناصب، إلى جانب غير المنتمين حزبيا وحزب الأحرار المستقلين، بينما كان الغائب الأكبر فيها هو حزب الشورى والاستقلال الذي رفض المشاركة، احتجاجا على ما منح له من مناصب اعتبرها إجحافا في حقه، والذي تبني مهمة المعارضة، ليكون بذلك أول حزب معارضة في عهد الاستقلال.

## الموامش :

- 1 - كما عبر عن ذلك أعضاء الوفد الفرنسي في الاجتماعات، هو إيريسو YRISSOU. أنظر المحاضر الرسمية لمفاوضات إيكس لي بان - جلسة الاستشارة مع ممثلي حزب الاستقلال - الملفات المغربية الكبرى - عدد 1 - أبريل 1996 ص. 13.
- 2 - أنظر مذكرة هذا الحزب إلى حكومة الجمهورية الفرنسية 24 غشت 1955 ، نفس المرجع أعلاه ، ص. 10 - 11.
- 3 - من أول خطاب للعرش بعد العودة، 18 نونبر 1955. أنظر نصه ب: وزارة الأنباء والسياحة: منجزات وأهداف - الرباط - مطابع فرنسية مغربية - د ت - ص: 10 - 14.
- 4 - من كلمته في حفل تدشين مفاوضات الاستقلال مع فرنسا فبراير 1956 أنظر المرجع نفسه ، ص. 29 - 31.
- 5 - نفس المصدر.
- 6 - من التقرير السياسي للمؤتمر الاستثنائي لحزب الاستقلال، أنظر نصه ب محمد العربي الخطابي: المغرب في طريق الاستقلال - الدار البيضاء - دار الكتاب 1955 ، ص. 127 - 147.
- 7 - من تصريح لاسيل سان كلو. أنظر نصه بنفس الكتاب، ص. 119 - 120.
- 8 - من كلمة الملك بمناسبة تشكيل حكومة البكاي الأولى، منجزات ص. 17 - 19.
- 9 - استندنا في رد الحزبين معا على الاستشارة الملكية على التقرير السياسي للمؤتمر الاستثنائي لحزب الاستقلال. أنظره بكتاب لمؤتمر حزب الاستقلال م س. ومذكرة حزب الشورى والاستقلال المرفوعة إلى الملك. أنظرها بكتاب العربي الخطابي ، ص. 149 - 158.
- 10 - من أول تصريح للحكومة انظر نص ب : المغرب في طريق الاستقلال م س ص ص 159-167
- 11 - جريدة السعادة عدد 5 يناير 1956.
- 12 - أنظر نص الاتفاق بكتاب:
- 13 - من تصريح للناطق الرسمي باسم الوفد لجريدة العلم أنظره بالمرجع نفسه ص ص 32-35
- 14 - من كلمة الملك في حفل تدشين المفاوضات الفرنسية المغربية بباريس 15 فبراير 1956


- أنظر للمرجع ص ص 29-31
- 15 — المصدر نفسه.
- 16 — من كلمة رئيس الجمهورية الفرنسية في حفل تدشين المفاوضات أنظرن م - ص ص 26-28.
- 17 — من تصريح الناطق الرسمي للوفد المغربي م س
- 18 — نفسه.
- 19 — من تصريح عبد الرحيم بوعبيد لجريدة العلم عدد 7 يناير 1956.
- 20 — أنظر التصريح بمنجزات م س ص 36-37
- 21 — أنظر نص البروتوكول بالمرجع نفسه ص 37-38
- 22 — أنظر نصوص هذه الرسائل بنفس المرجع ص ص 38-42
- 23 — أنظر تصريح الناطق الرسمي باسم الوفد المغربي في مفاوضات باريس... نفسه ص ص 42-45
- 24 — من خطاب الملك بتاريخ 7 مارس 1956. أنظر نصه بنفس المرجع ص ص 42-45
- 25 — أنظر على سبيل المثال ما جاء في جريدة العلم عدد 11 يناير 1956.
- 26 — أنظر كلمته في افتتاح المفاوضات.
- 27 — أنظر نص الخطاب.
- 28 — الوزاني محمد حسن: لا استقلال مع التبعية، الرأي العام عدد 583 / 24 / 8 / 1957.
- 29 — بنونة المهدي، المغرب ... السنوات الحرجة. ص. 386
- 30 — أنظر جريدة العلم - عدد 6 يناير 1956.
- 31 — أنظر جريدة العلم - عدد 1 أبريل 1956.
- 32 — العلم عدد 3 أبريل 1956.
- 33 — من خطاب الملك بتاريخ 4 أبريل وهو في اتجاهه إلى إسبانيا. منجزات : ص ص 52-53
- 34 — من خطاب الملك أمام فرانكو في افتتاح المفاوضات المغربية الإسبانية. منجزات : ص ص 53-55
- 35 — من خطاب فرانكو في افتتاح المفاوضات الإسبانية المغربية. منجزات : ص ص 55-58
- 36 — من تصريح لعبد الرحيم بوعبيد بعد انتهاء المفاوضات الإسبانية المغربية أنظر العلم عدد 12 أبريل 1956.
- 37 — أنظر العلم عدد 29 ماي 1956.

38 - من تصريح لأحمد بلا فريخ انظر منجزات : ص 80

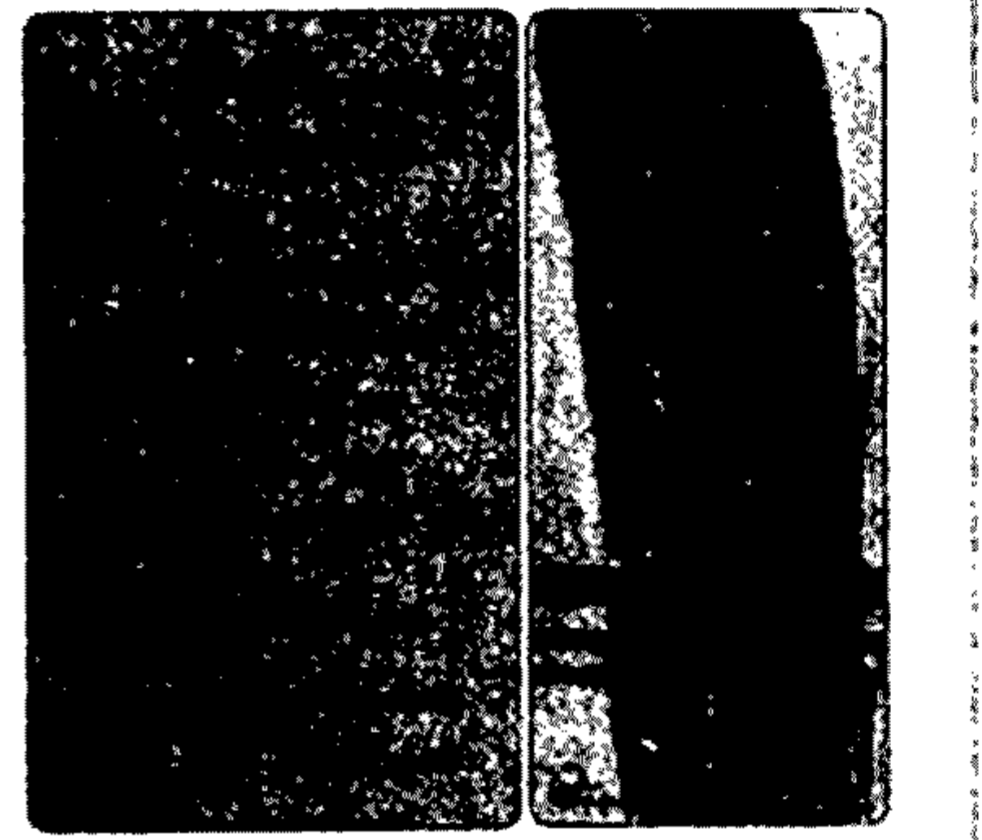
39 - انظر العلم عدد 15 ماي 1956

العدد الأول من السنة الأولى 1992  
التاريخ - الثقافة - المجتمع


في أي متعلق لكتابة تاريخ المغرب؟  
برهان عباس  
في حوار مع الأستاذ محمد زبير  
في حوار من المصالحة البربرية  
في مغرب الديمقراطية  
في محاضرة حوليات  
في حوار حول السياسة البربرية بمغرب الديمقراطية  
في حوار حول الحركة النسائية بمغرب الديمقراطية



العدد الثاني من السنة الأولى 1992  
**أصل**  
التاريخ - الثقافة - المجتمع



العدد الثالث من السنة الأولى 1993  
**أصل**  
التاريخ - الثقافة - المجتمع



حوار مع الأستاذ  
أحمد بلا فريخ  
في حوار مع الأستاذ  
محمد زبير  
في حوار من المصالحة  
البربرية  
في حوار حول  
السياسة البربرية  
بمغرب الديمقراطية

العدد الرابع من السنة الثانية 1993  
**أصل**  
التاريخ - الثقافة - المجتمع

كلمة خداتنا الأستاذ  
أحمد بلا فريخ  
في حوار مع الأستاذ  
محمد زبير  
في حوار من المصالحة  
البربرية  
في حوار حول  
السياسة البربرية  
بمغرب الديمقراطية



## رحم الله الأستاذ المهدي الودغيري

بلغنا - والمجلة بالمطبعة - نعي الأستاذ الصحفي الباحث ، المهدي الودغيري .  
 وبهذه المناسبة الأليمة يتقدم طاقم مجلة أمل بأحر التعازي لأسرة الفقيد ، ونوبسه ،  
 وسائر أصدقائه ويدعو لهم بالصبر والسلوان ، كما يدعو للفقيد بالرحمة والمغفرة .  
 لقد ساهم معنا المرحوم المهدي الودغيري ، في أعمال هذه الندوة التي يتضمنها هذا  
 العدد ، فلم تسعفه الأقدار للإطلاع على بحثه منشورا ، كما لم تسعف أستاذا باحثا  
 آخر ، هو المرحوم بوشنتى بوعسرية الذي كان معنا مشاركا في نفس الندوة  
 فأبى روح ونكرى الفقيد ، نعلم هذا العدد .  
 وإنا لله وإنا إليه راجعون